أنفسهم في الصوامع فدعَهم وما حبسوا أنفسهم له.

وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعاً لوُلاة الأمر. ثمّ إنّ أبا بكر استعمل أبا عُبَيْدة بن الجرّاح على مَنِ اجتمع وأمره بحمص، وسار أبو عُبَيْدة على باب من البلقاء فقاتله أهله ثمّ صالحوه، فكان أوّل صلح في الشام.

واجتمع للروم جمع بالعَرَبَة من أرض فلسطين، فوجّه إليهم يزيد بن أبي سفيان أبا أُمامة الباهليّ فهزمهم، فكان أوّل قتال بالشام بعد سريّة أُسامة بن زيد. ثمّ أتوا الداثن فهزمهم أبو أُمامة أيضاً، ثمّ مرج الصُّفّر استشهد فيها ابن لخالد بن سعيد، وقيل: استشهد فيها خالد أيضاً، وقيل: بل سلم وانهزم على ما نذكره، وذلك أنّه لمّا سمع توجيه الأمراء بالجنود بادر لقتال الروم فاستطرد له باهان فاتبعه خالد ومعه ذو الكلاع وعِكرمة والوليد فنزل مرج الصُّفّر، فاجتمعت عليه مسالح باهان وأخذوا الطرق، وخرج باهان فرأى ابن خالد بن سعيد فقتله ومَنْ معه، فسمع خالد فانهزم، فوصل في هزيمته إلى ذي المَرْوة قريب المدينة، فأمره أبو بكر بالمقام بها، وبقي عِكرمة في النّاس ردْءاً للمسلمين يمنع من يطلبهم.

وكان قد قدم شُرَحْبيل بن حَسَنَة من عند خالد بن الوليد إلى أبي بكر (٤٠٦/٢) وافداً، فأمره أبو بكر بالشام وندب معه النّاس واستعمله على عمل الوليد بن عُقبة. فأتى شُرَحْبيل على خالد بن سعيد ففصل عنه ببعض أصحابه، واجتمع إلى أبي بكر ناس فأرسلهم مع معاوية بن أبي سفيان وأمره باللّحاق بأخيه يزيد، فلمّا مرّ بخالد فصل عنه بباقي أصحابه. فأذن أبو بكر لخالد بدخول المدينة. فلمّا وصل الأمراء إلى الشام نزل أبو عُبَيْدة الجابية، ونزل يزيد البلقاء، ونزل شُرَحْبيل الأردن، وقيل بُصْرى، ونزل عمرو بن العاص العَرَبَة. فبلغ الرومَ ذلك فكتبوا إلى هِرَقْل، وكان بالقُدْس، فقال: أرى أن تصالحوا المسلمين، فواللّه لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام ويبقى لكم نصفه مع بلاد الروم أحبّ إليكم منْ أن يغلبوكم على الشام ونصف بلاد الروم. فتفرّقوا عنه وعصوه، فجمعهم وسار بهم إلى حِمْص، فنزلها وأعدّ الجنود والعساكر، وأراد إشغال كلّ طائفة من المسلمين بطائفة من عسكره لكثرة جنده لتضعف كلّ فرقة من المسلمين عمّن بإزائه، فأرسل تذارق أخاه لأبيه وأمّه في تسعين ألفاً إلى عمرو، وأرسل جَرَجَة بن توذر إلى يزيد بن أبي سفيان، وبعث القيقار بن نسطوس في ستّين ألفاً إلى أبي عُبَيْدة بن الجرّاح، وبعث الدّراقص نحو شُرَحْبيل، فهابهم المسلمون وكاتبوا عَمراً ما الرأي، فأجابهم: إنّ الرأي لمثلنا الاجتماع، فإنّ مثلنا إذا اجتمعنا لا نُغْلَب من قلّة، فإن تفرّقنا لا يقوم كلّ فرقة له بمن استقبلها لكثرة عدوّنا.

وكتبوا إلى أبي بكر فأجابهم مثل جواب عمرو وقال: إنّ مثلكم لا يؤتى من قلّة وإنمّا يؤتى العشرة آلاف من الذنوب، فاحترسوا منها، فاجتمعوا باليرموك متساندين وليصلّ كلّ واحد منكم بأصحابه. فاجتمع المسلمون باليرموك والروم أيضاً وعليهم التذارق وعلى المقدّمة جَرَجَة وعلى المجنّبة (٤٠٧/٢) باهان، ولم يكن وصل بعد إليهم، والدراقص على الأخرى وعلى الحرب القيقار، فنزل الروم وصار الوادي خندقاً لهم، وإنّما أرادوا أن يتأنّس الروم بالمسلمين لترجع إليهم قلوبهم، ونزل المسلمون على طريقهم ليس للروم طريق إلاّ عليهم، فقال عمرو: أبشروا! حُصرت الروم وقلّ ما جاء محصورُ بخير. وأقاموا صفراً عليهم وشهرَيْ ربيع لا يقدرون منهم على شيء من الوادي والخندق ولا يُخْرج الروم خرجة إلاّ أُديل عليهم المسلمون.

ذكر مسير خالد بن الوليد من العراق إلى الشام

لمّا رأى المسلمون مطاولة الروم استمدّوا أبا بكر، فكتب إلى خالد بن الوليد يأمره بالمسير إليهم وبالحثّ وأن يأخذ نصف النّاس ويستخلف على النصف الآخر المثنّى بن حارثة الشيبانيّ، ولا يأخذنّ مَنْ فيه نجدة إلاّ ويترك عند المثنّى مثله، وإذا فتح اللّه عليهم رجع خالد وأصحابه إلى العراق.

فاستأثر خالد بأصحاب النبيّ، ﷺ، على المثنّى وترك للمثنّى عدادهم من أهل القناعة مَنْ ليس له صحبة، ثمّ قسم الجند نصفَين، فقال المثنّى: واللّه لا أقيم إلاّ على إنفاذ أمر أبي بكر، وباللّه ما أرجو النصر إلاّ بأصحاب النبيّ، ﷺ. فلمّا رأى خالد ذلك أرضاه. وقيل: سار من العراق في ثمانمائة، وقيل: في ستّمائة، وقيل: في خمسمائة، وقيل: في تسعة آلاف، وقيل: في ستّة آلاف، وقيل: إنّما أمره أبو بكر أن يأخذ أهل القوّة والنجدة، فأتى حَدوداء فقاتله أهلها فظفر بهم، وأتى المُصَيّخ وبه جمع من تغلب فقاتلهم وظفر بهم وسبَى وغنم. (٤٠٨/٢) وكان من السبي الصهباء بنت حَبيب بن بُجَير، وهي أمّ عمر بن عليّ بن أبي طالب، وقيل في أمرها ما تقدّم.

وقيل: سار خالد فلمّا وصل إلى قُراقر، وهو ماء لكلب، أغار على أهلها وأراد أن يسير منهم مفوّزاً إلى سُوَى، وهو ماء لبهراء بينهما خمس ليال، فالتمس دليلاً، فدُلّ على رافع بن عَميرة الطائي، فقال له في ذلك، فقال له رافع: إنّك لن تُطيق ذلك بالخيل والأثقال، فواللّه إنّ الراكب المفرد يخافه على نفسه. فقال: إنّه لابدّ لي من ذلك لأخرج من وراء جموع الروم لئلاّ يحبسني عن غياث المسلمين. فأمر صاحب كلّ جماعة أن يأخذ الماء للشعبة لخمس وأن يعطّش من الإبل الشُّرُف ما يكتفي به ثمّ يسقوها عَلَلاً بعد نَهَل، والعَلَل الشربة الثانية، والنَّهل الأولى، ثمّ يصرّوا آذان الإبل ويشدّوا مشافرها لئلاّ تجترّ. ثمّ ركبوا من قُراقر، فلمّا ساروا يوماً وليلة شقّوا

لعدّة من الخيل بطون عشرة من الإبل فمزجوا ماء في كروشها بما كان من الألبان وسقوا الخيل، ففعلوا ذلك أربعة أيام. فلمّا دنا من العَلَمَين قال للنّاس: انظروا هل تَرَوْن شجرة عَوْسج كعقدة الرجل؟ فقالوا: ما نراها. فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون،هلكتم واللّه وهلكتُ معكم! وكان أرمد. فقال لهم: انظروا ويحكم! فنظروا فرأوها قد قُطعت و بقي منها بقيّة. فلمّا رأوها كبّروا، فقال رافع احفروا في أصلها. فحفروا واستخرجوا عيناً فشربوا حتّى روي النّاس. فقال رافع: واللّه ما وردتُ هذا الماء قطّ إلاّ مرّة واحدة مع أبي وأنا غلام. فقال شاعر من المسلمين:

للهِ عينا رافعٍ أنّى اهتدى ... فوزّ من قُراقرٍ إلى سُوَى (٤٠٩/٢)

خِمْساً إذا ما سارَهُ الجيشُ بكى ... ما سارَها قبلك إنسيٌّ يُرى

فلمّا انتهى خالد إلى سُوَى أغار على أهلها وهم بهراء وهم يشربون الخمر ومغنّيهم يقول:

ألا عَلّلاني قبلَ جيشِ أبي بكرِ ... لعلّ منايانا قريبٌ ولا نَدْري

ألا عَلّلاني بالزُّجاجِ وكَرِّرُوا ... عليّ كُميتَ اللّونِ صافيةً تجري

ألا عَلّلاني من سُلافةِ قَهوةٍ ... تُسلّي همومَ النّفس من جيّد الخمرِ

أظُنُّ خُيولَ المُسلمينَ وخالِداً ... ستطرُقكم قبل الصّباحِ مَعَ النَّسرِ

فهل لكُمُ في السّيرِ قبل قتالكُمْ ... وقبل خُروجِ المعْصِرَاتِ من الخِدرِ

فقتل المسلمون مغنّيهم وسال دمه في تلك الجفنة، وأخذوا أموالهم وقُتل حُرقوص بن النّعمان البهرانيّ. ثمّ أتى أرَك فصالحوه، ثمّ أتى تَدْمُرَ فتحصّن أهله ثمّ صالحوه، ثمّ أتى القريتَين فقاتلهم فظفر بهم وغنم،وأتى حُوّارَين فقاتل أهلها فهزمهم وقتل وسبَى، وأتى قُصُمَ فصالحه بنو مَشْجَعة من قُضاعة، وسار فوصل إلى ثنيّة العُقاب عند دمشق ناشراً رايته، وهي راية سوداء، وكانت لرسول اللّه، ﷺ، تسمّى العُقاب، وقيل: كانت رايته تسمّى العُقاب فسُمّيت الثنيّة بها، وقيل : سُمّيت بعُقاب من الطير سقطت عليها، والأوّل أصحّ.

ثمّ سار فأتى مرجَ راهط فأغار على غسّان في يوم فصحهم فقتل وسَبى، وأرسل سريّة إلى كنيسة بالغوطة فقتلوا الرجال وسبوا النساء وساقوا العيال إلى خالد. ثمّ سار حتّى وصل إلى بُصْرى فقاتل مَنْ بها فظفر بهم وصالحهم، فكانت بُصرى أوّل مدينة فُتحت بالشام على يد خالد وأهل العراق. (٤١٠/٢) وبعث بالأخماس إلى أبي بكر ثمّ سار فطلع على المسلمين في ربيع الآخر، وطلع باهان على الروم ومعه الشمامسة والقسيسون والرهبان يحرّضون الروم على القتال، وخرج باهان كالمعتذر، فولي خالد قتاله، وقاتل الأمراء مَنْ بإزائهم، ورجع باهان والروم إلى خندقهم وقد نال منهم المسلمون. (عَمِيرة بفتح العين المهملة وكسر الميم).

ذكر وقعة اليرموك

فلمّا تكامل جمع المسلمين باليرموك وكانوا سبعة وعشرين ألفاً، قدم خالد في تسعة آلاف فصاروا ستّة وثلاثين ألفاً سوى عِكرمة فإنّه كان ردءاً لهم، وقيل: بل كانوا سبعة وعشرين ألفاً وثلاثة الآف من فُلاّل خالد بن سعيد، وعشرة آلاف مع خالد بن الوليد، فصاروا أربعين ألفاً سوى ستّة آلاف مع عِكرمة بن أبي جهل، وقيل في عددهم غير ذلك، واللّه أعلم. وكان فيهم ألف صحابي، منهم نحو مائة ممّن شهد بدراً. وكان الروم في مائتَيْ ألف وأربعين ألف مقاتل، منهم ثمانون ألف مقيّد وأربعون ألف مسلسل للموت وأربعون ألفاً مربطون بالعمائم لئلاّ يفرّوا وثمانون ألف راجل، وقيل : كانوا مائة ألف، وكان قتال المسلمين لهم على تساند، كلّ أمير على أصحابه لا يجمعهم أحد حتّى قدم خالد بن الوليد من العراق، وكان القسيسون والرهبان يحرّضون الروم شهراً، ثمّ خرجوا إلى القتال الذي لم يكن بعده قتال في جمادى الآخرة.

فلمّا أحسّ المسلمون بخروجهم أرادوا الخروج متساندين، فسار فيهم (٤١١/٢) خالد بن الوليد فحمد اللّه وأثنى عليه ثمّ قال : إنّ هذا يوم من أيّام اللّه لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم وأريدوا اللّه بعملكم، فإنّ هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية وأنتم متساندون فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي، وإنّ مَنْ ورائكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا، فاعملوا فيما لم تُؤمروا به بالذي ترون أنّه رأيٌ من واليكم ومحبّته. قالوا: هات فما الرأي؟ قال: إنّ أبا بكر لم يبعثنا إلاّ وهو يرى أنّا سنتياسر، ولو علم بذلك كان ويكون قد جمعكم، إنّ الذي أنتم فيه أشدّ على المسلمين ممّا قد غشيهم وأنفع للمشركين من أمدادهم، ولقد علمتُ أنّ الدنيا فرقت بينكم، فاللّه اللّه! فقد أفرد كلّ رجل منكم ببلد لا ينتقصه منه إنّ دان [لأحد] من الأمراء ولا يزيده عليه إن دانوا له. إنّ تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند اللّه ولا عند خليفة رسول اللّه، ﷺ. هلمّوا فإنّ هؤلاء قد تهيّأوا، وإنّ هذا يوم له ما بعده، إن رددناهم إلىخندقهم اليوم لم نزل نردّهم وإن هزمونا لم نفلح بعدها. فهلمّوا فلتتعاور الإمارة فليكن بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد حتّى تتأمّروا كلّكم، ودعوني أتأمّر اليوم. فأمّروه وهم يرون أنّها كخرجاتهم وأنّ الأمر [لا] يطول.

فخرجت الروم في تعبية لم يرَ الراؤون مثلها قطّ، وخرج خالد في تعبية لم تُعَبّئها العرب قبل ذلك، فخرج في ستّة وثلاثين كردوساً إلى الأربعين، وقال: إنّ عدوّكم كثير وليس تعبية أكثر في رأي العين من الكراديس، فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عُبَيْدة، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وشُرَحْبيل بن حَسَنَة، وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان، وكان على كردوس القعقاعُ بن عمرو، وجعل على كلّ كردوس

رجلاً من الشجعان، وكان القاضي أبو الدرداء، وكان القاصّ أبو (٤١٢/٢) سفيان بن حرب، وعلى الطلائع قَباث بن حرب، وعلى الطلائع قَباث بن أشيم، وعلى الأقباض عبد اللّه بن مسعود.

وقال رجل لخالد : ما أكثر الروم وأقلّ المسلمين! فقال خالد : ما أكثر المسلمين وأقلّ الروم، إنّما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان، واللّه لوددتُ أنّ الأشقر، يعني فرسه، براء من توجيه وأنّهم أُضعفوا في العدد، وكان قد حفي في مسيره.

فأمر خالدٌ عِكرمة بن أبي جهل والقعقاعَ بن عمرو فأنشبا القتال والتحم النّاس وتطارد الفرسان وتقاتلوا، فإنّهم على ذلك قدم البريد من المدينة واسمه مَحْمية بن زُنَيم، فسألوه الخبر، فأخبرهم بسلامة وأمداد؛ وإنّما جاء بموت أبي بكر وتأمير أبي عُبَيْدة، فبلغوه خالداً فأخبره خبر أبي بكر سرّاً.

وخرج جَرَجَة إلى بين الصفّين وطلب خالداً، فخرج إليه فآمن كلّ واحد منهما صاحبه، فقال جَرَجَة يا خالد اصدقني ولا تكذبني، فإنّ الحُرّ لا يكذب، ولا تخادعني فإنّ الكريم لا يخادع المسترسل، هل أنزل اللّه على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسلّه على قوم إلاّ هزمتهم؟ قال: لا. قال : ففيمَ سميت سيف اللّه؟ فقال له: إنّ اللّه بعث فينا نبيّه، ﷺ، فكنتُ فيمن كذّبه وقاتله، ثمّ إنّ اللّه هداني فتابعته. فقال : أنت سيف اللّه سلّه اللّه على المشركين! ودعا لي بالنصر. قال: فأخبرني إلى ما تدعوني. قال خالد: إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب. قال: فما منزلة الذي يُجيبكم ويدخل فيكم؟ قال: منزلتنا واحدة. قال: فهل له مثلكم من الأجر والذُخْر؟ قال : نعم وأفضل لأنّنا اتبعنا نبيّنا وهو حيّ يُخبرنا بالغيب ونرى منه العجائب والآيات وحُقّ لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يُسْلم، وأنتم لم تروا مثلنا (٤١٣/٢) ولم تسمعوا مثلنا، فمَنْ دخل بنيّة وصدق كان أفضل منّا. فقلب جَرَجَة ترسه ومال مع خالد وأسلم وعلّمه الإسلام واغتسل وصلّى ركعتين ثمّ خرج مع خالد فقاتل الرومَ.

وحملت الروم حملة أزالوا المسلمين عن مواقفهم إلاّ المحامية، عليهم عِكرمة وعمّه الحارث بن هشام، فقال عِكرمة [يومئذٍ]: قاتلتُ مع النبيّ، ﷺ، في كلّ موطن ثمّ أفرّ اليوم! ثمّ نادى: مَنْ يبايع على الموت؟ فبايعه الحارث بن هشام وضِرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قُدّام فسطاط خالد حتّى أُثبتوا جميعاً جراحاً، فمنهم مَنْ برأ ومنهم مَنْ قُتل. وقاتل خالد وجَرَجَة قتالاً شديداً، فقُتل جَرَجَة عند آخر النهار وصلّى النّاس الأولى والعصر إيماء وتضعضع الروم ونهد خالد بالقلب حتّى كان بين خيلهم ورَجْلهم، فانهزم الفرسان وتركوا الرَّجّالة.

ولما رأى المسلمون خيل الروم قد توجّهت للمهرب أفرجوا لها، فتفرّقت وقُتل الرّجّالة واقتحموا في خندقهم، فاقتحمه عليهم، [فعمدوا إلى الواقوصة حتّى] هوى فيها المقترنون وغيرهم، ثمانون ألفاً من المقترنين وأربعون ألف مطلق سوى مَنْ قُتل في المعركة، وتجلّل الفيقار وجماعة من أشراف الروم برانسهم وجلسوا فقُتلوا متزمّلين. ودخل خالد الخندق ونزل في رواق تذارق. فلمّا أصبحوا أُتي خالد بعكرمة بن أبي جهل جريحاً فوضع رأسه على فخذه، وبعمرو بن عِكرمة فجعل رأسه على ساقه ومسح وجوههما وقطر في حلوقهما الماء وقال : زعم ابن حنْتَمة، يعني عُمر، (٤١٤/٢) أنّا لا نُستشهدُ! وقاتل النساءُ ذلك اليوم وأبلين.

قال عبد اللّه بن الزّبير : كنتُ مع أبي باليرموك وأنا صبيّ لا أقاتل، فلمّا اقتتل النّاس نظرتُ إلى ناسٍ على تلّ لا يقاتلون، فركبتُ وذهبتُ إليهم وإذ أبو سفيان بن حرب ومشيخة من قريش من مهاجرة الفتح فرأوني حدثاً فلم يتّقوني، قال: فجعلوا واللّه إذا مال المسلمون وركبتهم الروم يقولون: إيه بني الأصفر! فإذا مالت الروم وركبهم المسلمون قال : ويح بني الأصفر! فلمّا هزم اللّه الروم أخبرتُ أبي فضحك فقال: قاتلهم اللّه! أبوا إلاّ ضغناً، لنحن خير لهم من الروم!

وفي اليرموك أُصيبت عين أبي سفيان بن حرب.

ولمّا انهزمت الروم كان هِرَقْل بحمِص، فنادى بالرحيل عنها قريباً وجعلها بينه وبين المسلمين وأمّر عليها أميراً كما أمّر على دمشق. وكان مَنْ أُصيب من المسلمين ثلاثة آلاف، منهم عِكرمة وابنه عمرو وسَلَمة بن هشام وعمرو بن سعيد وأبان بن سعيد وجُنْدُب بن عمرو والطُّفَيْل بن عمرو وطُليب بن عُمَير وهشام بن العاص وعِياش بن أبي ربيعة، في قول بعضهم.

(عِياش بالياء المثنّاة والشين المعجمة).

وفيها قُتل سعيد بن الحرب بن قيس بن عديّ السهميّ، وهو من مهاجرة الحبشة.

وفيها قُتل نعيم بن عبد اللّه النّحّام العدويّ عديّ قريش، وكان إسلامه قبل عمر.

وفيها قُتل النُضَير بن الحارث بن علقمة، وهو قديم الإسلام (٤١٥/٢) والهجرة، وهو أخو النضر الذي قُتل ببدر كافراً.

وقُتل فيها أبو الروم بن عمير بن هاشم العبدريّ أخو مصعب بن عُمير وهو من مهاجرة الحبشة شهد أُحُداً. وقيل قُتلوا يوم أجنادَيْن، واللّه أعلم.

ذكر حال المثنّى بن حارثة بالعراق

وأمّا المثنّى بن حارثة الشيبانيّ فإنّه لما ودّع خالدَ بن الوليد، وسار خالد إلى الشام فيمن معه بالجند، أقام بالحيرة ووضع المسلحة وأذكى العيون،واستقام أمر فارس بعد مسير خالد من الحيرة بقليل، وذلك سنة ثلاث عشرة، على شهريران بن أردشير بن شهريار سابور، فوجّه إلى المثنّى جنداً عظيماً عليهم هرمز جاذوَيْه في عشرة آلاف، فخرج المثنّى من الحيرة نحوه وعلى مجنبتَيْه المُعنّى ومسعود أخواه، فأقام ببابل وأقبل هرمز نحوه،وكتب كسرى شهريران إلى المثنّى كتاباً : إنّي قد بعثت إليكم جنداً من وحش أهل فارس، إنمّا هم رُعاء الدجاج والخنازير ولستُ أقاتلك إلاّ بهم. فكتب إليه المثنّى : إنما أنت أحد رجلَين: إمّا باغٍ فذلك شرّ لك وخير لنا، وإما كاذبٌ فأعظم الكاذبين فضيحة عند اللّه وفي النّاس الملوك، وأمّا الذي يدلنا عليه الرأي فإنّكم إنمّا أضررتم إليهم، فالحمد لله الذي ردّ كيدكم إلى رُعاة الدجاج والخنازير.

فجزع الفرس من كتابه فالتقى المثنّى وهرمز ببابل فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكان فيلهم يفرّق المسلمين، فانتدب له المثنّى ومعه ناس فقتلوه وانهزم الفرس وتبعهم المسلمون إلى المدائن يقتلونهم. ومات شهريران لمّا انهزم هرمز جاذوَيْه واختلف أهل فارس وبقي ما دون دجلة بيد المثنّى. ثمّ اجتمعت الفرسُ على (٤١٦/٢) دُخت زنان ابنة كسرى، فلم ينفذ لها أمرٌ وخُلعت وملك سابور بن شهريران.

فلمّا ملك قام بأمره الفرّخزاد بن البندوان فسأله أن يزوّجه آزرميدُخت بنت كسرى، فأجابه. فغضبت آزرميدُخت فأرسلت إلى سياوُخش الرازيّ فشكت إليه، فقال لها : لا تعاوديه وأرسلي إليه فليأتك، فأرسلت إليه واستعد سياوُخش، فلمّا كانت ليلة العرس أقبل الفرّخزاد حتّى دخل، فثار به سياوُخش فقتله، وقصدت آزرميدخت ومعها سياوُخش سابور فحصروه ثمّ قتلوه، وملكت آزرميدخت ثمّ تشاغلوا بذلك.

وأبطأ خبر أبي بكر على المثنّى فاستخلف على المسلمين بَشير بن الخصاصيّة وسار إلى المدينة إلى أبي بكر ليُخبره خبر المشركين ويستأذنه في الاستعانه بمن حسنت توبته من المرتدّين، فإنهم أنشط إلى القتال من غيرهم، فقدم المدينة وأبو بكر مريض قد أشفى، فأخبره الخبر، فاستدعى عمر وقال له: إنّي لأرجو أن أموت يومي هذا، فإذا متُّ فلا تمُسينّ حتّى تندب النّاس مع المثنّى، ولا تشغلنّكم مصيبةٌ عن أمر دينكم ووصيّة ربّكم، فقد رأيتني متوفّى رسول اللّه، ﷺ، وما صنعتُ وما أُصيب الخلق بمثله، وإذا فتح اللّه على أهل الشام فاردد أهل العراق إلى العراق فإنّهم أهله وولاة أمره وأهل الجراة عليهم.

ومات أبو بكر ليلاً فدفنه عمر وندب النّاس مع المثنّى، وقال عمر: قد علم أبو بكر أنّه يسوؤني أن أؤمر خالداً فلهذا أمرني أن أردّ أصحاب خالد، وترك ذكره معهم.

وإلى آزرميدخُت انتهى شأن أبي بكر، فهذا حديث العراق إلى آخر أيّام أبي بكر، رضي اللّه عنه. (٤١٧/٢)

ذكر وقعة أجنادَيْنْ

قد ذكرها أبو جعفر عُقَيْب وقعة اليرموك وروى خبرها عن ابن إسحاق من اجتماع الأمراء ومسير خالد بن الوليد من العراق إلى الشام نحو ما تقدم، وقال: فسار خالد من مرج راهط إلى بُصرى وعليها أبو عُبَيْدة بن الجراح وشُرَحبيل بن حَسَنَة ويزيد بن أبي سفيان، فصالحهم أهلها على الجزية، فكانت أوّل مدينة فُتحت بالشام في خلافة أبي بكر. ثمّ ساروا جميعاً إلى فلسطين مدداً لعمرو بن العاص وهو مقيم بالعَرَبات، واجتمعت الروم بأجنادَيْنْ وعليهم تذارق أخو هِرَقْل لأبوَيْه، وقيل كان على الروم القبقلار؛ وأجنادَيْنْ بين الرملة وبيت جبرين من أرض فلسطين، وسار عمرو بن العاص حين سمع بالمسلمين فلقيهم ونزلوا بأجنادين وعسكروا عليهم، فبعث القبقلار عربيّاً إلى المسلمين يأتيه بخبرهم، فدخل فيهم وأقام يوماً وليلة ثمّ عاد إليه، فقال: ما وراءك؟ فقال: بالليل رهبان وبالنهار فرسان، ولو سرق ابن ملكهم قطعوه، ولو زنَى رُجم لإقامة الحقّ فيهم. فقال: إنْ كنتَ صدّقتني لَبطن الأرض خيرٌ من لقاء هؤلاء على ظهرها.

والتقوا يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، فظهر المسلمون وهزُم المشركون، وقُتل القبقلار وتذارق واستشهد رجال من المسلمين، منهم : سَلَمَة بن هشام بن المُغيرة، وهبّار بنْ الأسود، ونُعَيمْ بن عبد اللّه النَّحّام، وهشام بن العاص بن وائل، وقيل: بل قُتل باليرموك وجماعة غيرهم.

قال: ثمّ جمع هِرَقْل للمسلمين فالتقوا باليرموك، وجاءهم خبر وفاة أبي (٤١٨/٢) بكر وهم مصافّون، وولاية أبي عُبَيْدة، وكانت هذه الوقعة في رجب؛ هذه سياقة الخبر.

وكان فيمَنْ قُتل ضِرار بن الخطّاب الفهريّ وله صحبة، وعمرو بن سعيد بن العاص وهو من مهاجرة الحبشة، وقُتل باليرموك، وممن قُتل الفضل بن العبّاس، وقيل : قُتل بمرج الصفر، وقيل: مات في طاعون عمواس.

وفيها قُتل طليب بن عمير بن وهب القرشيّ وقُتل باليرموك، شهد بدراً، وهو من المهاجرين الأوّلين.

وفيها قُتل عبد اللّه بن أبي جَهْم القريشيّ العدويّ، وكان إسلامه يوم الفتح.

وفيها قُتل عبد اللّه بن الزّبير بن عبد المطّلب بعد أن قتل جمعاً من الروم في المعركة، وكان عمره يوم مات النبيّ، ﷺ، نحو ثلاثين سنة.

وفيها قُتل عبد اللّه بن الطُّفَيل الدّوْسي، وهو الملقّب بذي النّور، وكان من فضلاء الصحابة قديم الإسلام هاجر إلى الحبشة.

(أجنادَين بعد الجيم نون، ودال مهملة مفتوحة، ومنهم مَنْ يكسرها، ثمّ ياء مثنّاة من تحتها ساكنة، وآخره نون).

وقد قيل: إنّ وقعة أجنادَين كانت سنة خمس عشرة، وسيرد ذكرها إنْ شاء اللّه.

ذكروفاة أبي بكر

كانت وفاة أبي بكر، رضي اللّه عنه، لثماني ليال بقين من جمادى الآخرة ليلة الثلاثاء وهو ابن ثلاث وستّين سنة وهو الصحيح، وقيل غير ذلك، وكان قد سمّه اليهود في أرز، وقيل في حريرة، وهي الحسو، فأكل هو (٤١٩/٢) والحارث بن كَلَدة، فكفّ الحارث وقال لأبي بكر: أكلنا طعاماً مسموماً سمّ سنة، فماتا بعد سنة. وقيل : إنّه اغتسل وكان يوماً بارداً فحُمّ خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى صلاة فأمر عمر أن يصلّي بالنّاس. ولمّا مرض قال له النّاس : ألا ندعو الطبيب؟ قال: قد أتاني وقال لي أنا فاعل ما أريد؛ فعلموا مراده وسكتوا عنه، ثمّ مات.

وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال، وقيل : كانت سنتين وأربعة أشهر إلا أربع ليال، وكان مولده بعد الفيل بثلاث سنين.

وأوصى أن تغسله زوجته أسماء بنت عُمَيْس وابنه عبد الرحمن وأن يُكفّن في ثوبيه ويشترى معهما ثوب ثالث، وقال : الحيّ أحوج إلى الجديد من الميت، إنما هو للمُهْلة والصديد.

ودُفن ليلاً وصلّى عليه عمر بن الخطّاب في مسجد رسول اللّه، ﷺ، وكبر عليه أربعاً، وحُمل على السرير الذي حُمل عليه رسول اللّه، ﷺ، ودخل قبره ابنه عبد الرحمن وعمر وعثمان وطلحة، وجُعل رأسه عند كتفي النبيّ، ﷺ، وألصقوا لحده بلحد النبيّ، ﷺ، وجُعل قبره مثل قبر النبيّ، ﷺ، مسطّحاً. وأقامت عائشة عليه النوح فنهاهنّ عن البكاء عمر فأبين، فقال لهشام بن الوليد : ادخلْ فأخرج إليّ ابنة أبي قُحافة، فأخرج إليه أمّ فروة ابنة أبي قُحافة فعلاها بالدِّرّة ضربات فتفرّق النّوح حين سمعن ذلك.

وكان آخر ما تكلّم به : توفّني مسلماً وألحقني بالصالحين.

وكان أبيض خفيف العارضَين أحْنى لا يستمسك إزاره، معروق الوجه (٤٢٠/٢) نحيفاً، أقنى غائر العينين يخضب بالحنّاء والكَتَم، وكان أبوه حيّاً بمكّة لمّا توفي.

وهو أبو بكر عبد اللّه، وقيل : عتيق بن أبي قُحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مُرّة بن لؤيّ بن غالب بن فِهْر بن مالك، يجتمع مع النبيّ، ﷺ، في مُرّة بن كعب، وأمّه أمّ الخير سَلمَى بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم. وقيل: إنّ رسول اللّه، ﷺ، قال له: أنت عتيق من النّار، فلزمه، وقيل : إنّما قيل له عتيق لرقّة حسنه وجماله. وأسلمت أمّه قديما بعد إسلام أبي بكر، وتزوّج في الجاهليّة قُتَيْلة بنت عبد العُزّى بن عامر بن لُؤيّ فولدت له عبد اللّه وأسماء، وتزوّج أيضا في الجاهليّة أمّ رمان، واسمها دَعْد بنت عامر بن عَميرة الكنانيّة، فولدت له عبد الرحمن وعائشة، وتزوّج في الإسلام أسماء بنت عُمَيس وكانت قبله عند جعفر بن أبي طالب، فولدت له محمّد بن أبي بكر، وتزوّج أيضاً في الاسلام حبيبة بنت خارجة بن زيد الأنصاريّة، فولدت له بعد وفاته أم كلثوم.

أسماء قُضاته وعُمّاله وكُتّابه

لمّا ولي أبو بكر قال له أبو عُبَيْدة : أنا أكفيك المال. وقال له عمر: أنا أكفيك القضاء. فمكث عمر سنةً لا يأتيه رجلان. وكان عليّ بن أبي طالب يكتب له وزيد بن ثابت وعثمان بن عفّان، وكان يكتب له من حضر. وكان عامله على مكة عتاب بن أسيد، ومات في اليوم الذي مات فيه أبو بكر، (٤٢١/٢) وقيل: مات بعده. وكان على الطائف عثمان بن أبي العاص، وكان على صنعاء المهُاجر بن أبي أميّة، وعلى حضرموت زياد بن لبيد الأنصاريّ، وعلى خَوْلان يَعْلى بن مُنية، وعلى زَبيد ورمَعَ أبو موسى، وعلى الجَنَد مُعاذ بن جبل، وعلى البحرين العلاء بن الحضرميّ. وبعث جريرَ بن عبد اللّه إلى نجران، وعبدَ اللّه بن ثَوْر إلى جُرَش، وعِياضَ بن غَنْم إلى دومة الجندل. وكان بالشام أبو عُبَيْدة وشُرَحْبيل ويزيد وعمرو، وكلّ رجل منهم على جند وعليهم خالد بن الوليد. وكان نقش خاتمه: نعم القادر اللّه. وعاش أبوه بعده ستّة أشهر وأياماً، ومات وله سبع وتسعون سنة.

ذكر بعض أخباره ومناقبه

كان أبو بكر أوّل النّاس إسلاماً في قول بعضهم، وقد تقدّم الخلاف في ذلك، وقال النبيّ، ﷺ :ما دعوتُ أحداً إلى الاسلام إلاّ كانت له عنه كبوة غير أبي بكر. والذي ورد له عن النبيّ، ﷺ، من المناقب كثير، كشهادته له بالجنّة، وعتقه مَن النّار وغير ذلك مَنْ الأخبار بخلافته تعريضاً كقوله، صلّى اللّه عليه سلم، للمرأة : إن لم تجديني فأتي أبا بكر، وقوله: اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر، إلى غير ذلك.

وشهد بدراً وأحداً والخندق وغير ذلك من المشاهد مع رسول

اللّه، ﷺ، وأعتق سبعة نفركلّهم يعذب في اللّه تعالى، منهم بلال وعامر بن فُهَيرة وزنّيرة والنّهديّة وابنها وجارية بني مؤمّل وأم عبيس وأسلم. وله أربعون ألفاً أنفقها في اللّه مع ما كسب في التجارة.

ولمّا ولي الخلافة وارتدّت العرب خرج شاهراً سيفه إلى ذي القَصّة، (٤٢٢/٢) فجاءه عليّ وأخذ بزمام راحلته وقال له : أين يا خليفة رسول اللّه، ﷺ! أقول لك ما قال لك رسول اللّه، ﷺ، يوم أحُد: شِمْ سيفك لا تفجعنا بنفسك، فواللّه لئن أُصِبنا بك لا يكون للإسلام نظام؛ فرجع وأمضى الجيش.

وكان له بيت مال بالسُّنح، وكان يسكنه إلى أن انتقل إلى المدينة، فقيل له: ألا نجعل عليه مَنْ يحرسه؟ قال: لا. فكان ينفق جميع ما فيه على المسلمين فلا يبقى فيه شيء، فلمّا انتقل إلى المدينة جعل بيت المال معه في داره.

وفي خلافته انفتح معدن بني سُلَيم، وكان يسوّي في قسمته بين السابقين الأوّلين والمتأخّرين في الإسلام وبين الحرّ والعبد والذكر والأنثى، فقيل له: لتقدّم أهل السبق على قدر منازلهم، فقال : إنمّا أسلموا لله ووجب أجرهم عليه يوفيهم ذلك في الآخرة، وإنمّا هذه الدنيا بلاغ. وكان يشتري الأكسية ويفرّقها في الأرامل في الشتاء.

ولما توفّي أبو بكر جمع عمر الأمناء وفتح بيت المال فلم يجدوا فيه شيئاً غير دينار سقط من غرارة، فترحمّوا عليه.

قال أبو صالح الغِفاريّ: كان عمر يتعهّد إمرأةً عمياء في المدينة باللّيل فيقوم بأمرها فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها ففعل ما أرادت، فرصده عمر فإذا هو أبو بكر كان يأتيها ويقضي أشغالها سرّاً وهو خليفة، فقال له: أنت هو لعمري! قال أبو بكر بن حفص بن عمر لمّا حضرت أبا بكر الوفاة حضرته عائشة وهو يعالج الموت فتمثّلت:

لعمرك ما يغني الثّرَاءُ عَنِ الفتى ... إذا حشرَجتْ يوْماً وضَاق بها الصّدرُ

فنظر إليها كالغضبان ثمّ قال: ليس كذلك ولكن ﴿جَاءَتْ سَكْرَةُ (٤٢٣/٢) المَوْتِ بِالحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق:١٩] إنّي قد كنتُ نحلتُك حائط كذا وفي نفسي منه شيء فردّيه على الميراث، فردّته، فقال: إنمّا هو أخواك وأختاك. قالت: مَنِ الثانية؟ إنما هي أسماء. قال: ذاتُ بطنِ بنتِ خارجة، يعني زوجته، وكانت حاملاً فولدت أمّ كلثوم بعد موته. وقال لها : أما إنّا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم ولبسنا من خشن ثيابهم وليس عندنا من فيء المسلمين إلاّ هذا العبد وهذا البعير وهذه القطيفة، فإذا متُّ فابعثي بالجميع إلى عمر. فلمّا مات بعثته إلى عمر، فلمّا رآه بكى حتّى سالت دموعه إلى الأرض وجعل يقول : رحم اللّه أبا بكر! لقد أتعب من بعده، ويكرّر ذلك، وأمر برفعه. فقال عبد الرحمن بن عوف سبحان اللّه! تسلب عيال أبي بكر عبداً وناضحاً وسحق قطيفة ثمنها خمسة دراهم، فلو أمرتَ بردها عليهم. فقال : لا والذي بعث محمّداً، ﷺ، لا يكون هذا في ولايتي ولا خرج أبو بكر منه وأتقلّده أنا. وأمر أبو بكر أن يُردّ جميع ما أخذ من بيت المال لنفقته بعد وفاته.

وقيل: إنّ زوجته اشتهت حلواً فقال: ليس لنا ما نشتري به. فقالت : أنا استفضل مَنْ نفقتنا في عدّة أيّام ما نشتري به. قال : افعلي. ففعلت ذلك، فاجتمع لها في أيّام كثيرة شيء يسير، فلمّا عرّفته ذلك ليشتري به حلواً أخذه فردّه إلى بيت المال وقال: هذا يفضل عن قوتنا، وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كلّ يوم وغرمه لبيت المال من ملك كان له.

هذا واللّه هو التقوى الذي لا مزيد عليه وبحقّ قدمه النّاس، رضي اللّه عنه وأرضاه (٤٢٤/٢) وكان منزل أبي بكر بالسُّنح عند زوجته حبيبة بنت خارجه، فأقام هنالك ستّة أشهر بعدما بويع له، وكان يغدو على رجلَيْه إلى المدينة، وربّما ركب فرسه، فيصلّي بالنّاس، فإذا صلّى العشاء رجع إلى السُّنح، وكان إذا غاب صلّى بالناس عمر. وكان يغدو كلّ يوم إلى السوق فيبيع ويبتاع، وكانت له قطعة غنم تروح عليه، وربّما خرج هو بنفسه فيها، وربّما رُعيت له، وكان يحلب للحيّ أغنامهم، فلمّا بويع بالخلافة قالت جارية منهم : الآن لا يحلب لنا منائح دارنا، فسمعها فقال : بلا لعمري لأحلبنّها لكم، وإنّي لأرجو أن لا يغير بي ما دخلتُ فيه. فكان يحلب لهم. ثمّ تحوّل إلى المدينة بعد ستّة أشهر من خلافته وقال: ما تصلح أمور النّاس مع التجارة، وما يصلح إلاّ التفرّغ لهم والنظر في شأنهم، فترك التجارة، وأنفق من مال المسلمين ما يصلحه وعياله يوماً بيوم ويحجّ ويعتمر، فكان الذي فرضوا له في كلّ سنة ستّة آلاف درهم، وقيل : فرضوا له ما يكفيه، فلمّا حضرته الوفاة أوصى أن تُباع الأرض ويُصرف ثمنها عوض ما أخذه من مال المسلمين.

وكان أوّل وال فرض له رعيّته نفقته، وأوّل خليفة ولّي وأبوه حيّ، وأول مَنْ سمّى مصحف القرآن مصحفاً، وأوّل مَنْ سُمّي خليفة.

(زنّيرة بكسر الزاي، والنون مشددّة. وعُبَيْس بضم العين المهملة، وبالباء الموحّدة المفتوحة، ثمّ بالياء المثنّاة من تحت، وبالسين المهملة. ومُنْية وبالنون الساكنة، والياء تحتها نقطتان). (٤٢٥/٢)

ذكر استخلافه عمر بن الخطاب

لما نزل بأبي بكر، رضي اللّه عنه، الموتُ دعا عبدَ الرحمن بن عوف فقال:أخبرني عن عمر. فقال: إنّه أفضل من رأيك إلاّ أنّه فيه غِلْظة. فقال أبو بكر : ذلك لأنّه يراني رقيقاً، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً ممّا هو عليه، وقد رمّقتُهُ فكنتُ إذا غضبتُ على رجل

أراني الرضاء عنه، وإذا لنتُ له أراني الشدّة عليه. ودعا عثمانَ بن عفان وقال له : أخبرني عن عمر.فقال: سريرته خير من علانيته، وليس فينا مثله.فقال أبو بكر لهما:لا تذكرا ممّا قلتُ لكما شيئاً ولو تركته ما عدوتُ عثمان، والخيرة له أن لا يلي من أموركم شيئاً، ولوددتُ أنيّ كنتُ من أموركم خِلواً وكنتُ فيمن مضى من سلفكم.

ودخل طلحة بن عُبَيْد اللّه على أبي بكر فقال:استخلفتَ على النّاس عمر وقد رأيتَ ما يلقى النّاس منه وأنت معه، وكيف به إذا خلا بهم وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك! فقال أبو بكر :أجلسوني، فأجلسوه، فقال: أباللّه تخوّفني! إذا لقيتُ ربّي فسألني قلتُ :استخلفتُ على أهلك خير أهلك.

ثمّ إنّ أبا بكر أحضر عثمان بن عفّان خالياً ليكتب عهد عمر، فقال له: اكتب : بسم اللّه الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قُحافة إلى المسلمين، أمّا بعد ثمّ أُغمي عليه فكتب عثمان : أمّا بعد قد استخلفتُ عليكم عمرَ بن الخطّاب ولم آلُكم خيراً. ثمّ أفاق أبو بكر فقال: اقرأ عليّ. فقرأ عليه، فكبّر أبو بكر وقال: أراك خِفتَ أن يختلف النّاس إن مُتُّ في غشيتي.قال:نعم. قال: جزاك اللّه خيراً عن الإسلام وأهله. (٢/ ٤٢٦) .

فلمّا كتب العهد أمر به أن يُقرأ على النّاس، فجمعهم وأرسل الكتاب مع مولى له ومعه عمر فكان عمر يقول للناس :أنصتوا وأسمعوا لخليفة رسول اللّه، ﷺ، فإنه لم يألكم نصحاً. فسكن النّاسُ، فلمّا قُرِىء عليهم الكتاب سمعوا وأطاعوا، وكان أبو بكر أشرف على النّاس وقال:أترضون بمن استخلفتُ عليكم؟ فإني ما استخلفتُ عليكم ذا قرابة، وإني استخلفت عليكم عمرَ فأسمعوا له وأطيعوا، فإنّي واللّه ما ألوت من جهد الرأي. فقالوا : سمعنا وأطعنا.ثمّ أحضر أبو بكر عمرَ فقال له :إنّي قد استخلفتك على أصحاب رسول اللّه، ﷺ، وأوصاه بتقوى اللّه ثمّ قال:

يا عمر إنّ لله حقّاً بالليل لا يقبله في النهار،وحقاً في النهار لا يقبله بالليل،وإنه لا يقبل نافلة حتّى تؤدّي الفريضة، ألم ترَ؟يا عمر أنّما ثقلت موازين مَنْ ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحقّ وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه غداً إلاّ حق أن يكون ثقيلاً. ألم ترَ يا عمر أنّما خفّت موازين من خفّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفّته عليهم، وحق لميزان لا يوضع [فيه] غداً إلا باطل أن يكون خفيفاً. ألم ترَ يا عمر أنّما نزلت آية الرّخاء مع آية الشدّة وآية الشدّة مع آية الرخاء ليكون المؤمن راغباً راهباً، لا يرغب رغبة يتمنّى فيها على اللّه ما ليس له، ولا يرهب رهبةً يلقى فيها بيديه. أولم ترَ يا عمر أنما ذكر اللّه أهل النّار بأسوإ أعمالهم فإذ ذكرتهم قلت إنّي لأرجو أن لا أكون منهم، وأنه إنما ذكر أهل الجنة بأحسن (٤٢٧/٢) أعمالهم لأنّه يجاوز لهم ما كان منْ سيّء فإذا ذكرتُهم قلتُ أين عملي من أعمالهم؟ فإن حفظت وصيتي فلا يكوننّ غائب أحبَّ إليك من حاضر من الموت، ولست بمعجزه.

وتوفي أبو بكر فلمّا دُفن صعد عمر بن الخطّاب فخطب النّاسَ ثمّ قال: إنّما مثل العرب مثل جمل آنف اتبع قائده فلينظرْ قائده حيث يقوده، وأمّا أنا فوربّ الكعبة لأحملنّكم على الطريق! وكان أوّل كتاب كتبه إلى أبي عُبَيْدة بن الجرّاح بتولية جند خالد وبعزل خالد لأنّه كان عليه ساخطاً في خلافة أبي بكر كلّها لوقعته بابن نُوَيرة وما كان يعمل في حربه، وأوّل ما تكلّم به عزل خالد وقال : لا يلي لي عملاً أبداً، وكتب إلى أبي عُبَيْدة : إنّ أكذب خالد نفسه فهو الأمير على ما كان عليه، وإن لم يُكذب نفسه فأنت الأمير على ما هو عليه، وانزعْ عمامته عن رأسه وقاسمْه ماله. فذُكر ذلك لخالد، فاستشار أخته فاطمة، وكانت عند الحارث بن هشام، فقالت له : واللّه لا يحبّك عمر أبداً وما يريد إلاّ أن تكذّب نفسك ثمّ ينزعك. فقبّل رأسها وقال: صدقتِ؛ فأبى أن يكذّب نفسه، فأمر أبو عُبَيْدة فنزع عمامة خالد وقاسمه ماله، ثمّ قدم خالد على عمر بالمدينة، وقيل: بل هو أقام بالشام مع المسلمين، وهو أصحّ.

ذكر فتح دِمَشْق

قيل : ولمّا هزم اللّه أهل اليرموك استخلف أبو عُبَيْدة على اليرموك بَشير بن كعب الحِمْيريّ، وسار حتّى نزل بالصُّفّر، فأتاه الخبرُ أن المنهزمين اجتمعوا بفِحْل، وأتاه الخبر أيضاً بأنّ المدد قد أتى أهلَ دمشق من حِمْص، فكتب إلى عمر في ذلك، فأجابه عمر يأمره بأن يبدأ بدمشق فإنّها حصن الشام (٤٢٨/٢) وبيت ملكهم، وأن يشغل أهل فِحْل بخيل تكون بإزائهم، وإذا فتح دمشق سار إلى فِحْل، فإذا فُتحت عليهم سار هو وخالد إلى حِمْص وترك شُرَحْبيل بن حَسَنَة وعَمراً بالأردنّ وفلسطين.

فأرسل أبو عُبَيْدة إلى فِحْل طائفة من المسلمين فنزلوا قريباً منها، وبثق الرومُ الماء حول فِحْل فوحلت الأرض، فنزل عليهم المسلمون، فكان أوّل محصور بالشام أهل فِحْل ثمّ أهل دمشق.

وبعث أبو عُبَيْدةجنداً فنزلوا بين حِمْص ودمشق، وأرسل جنداً آخر فكانوا بين دمشق وفلسطين، وسار أبو عُبَيْدة وخالد فقدموا على دمشق وعليها نسْطاس، فنزل أبو عُبَيْدة على ناحية وخالد على ناحية وعمرو على ناحية، وكان هِرَقْل قريب حِمْص، فحصرهم المسلمون سبعين ليلة حصاراً شديداً وقاتلوهم بالزحف والمجانيق، وجاءت خيول هِرَقْل مغيثة دمشق فمنعتها خيول المسلمين التي عند حِمْص، فخُذل أهل دمشق وطمع فيهم المسلمون. وَوُلد للبطريق الذي على أهلها مولود فصنع طعاماً

فأكل القوم وشربوا وتركوا مواقفهم، ولا يعلم بذلك أحد من المسلمين إلاّ ما كان من خالد، فإنّه كان لا ينام ولا ينُيم ولا يخفى عليه من أمورهم شيء، وكان قد اتخذ حبالاً كهيئة السلاليم وأوهاقاً، فلمّا أمسى ذلك اليوم نهد ومَنْ معه من جنده الذين قدم عليهم وتقدّمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عديّ وأمثاله وقالوا: إذا سمعتم تكبيراً على السور فارْقَوا إلينا واقصدوا الباب. فلمّا وصل هو وأصحابه إلى السور ألقوا الحبال فعلق بالشُّرَف منها حبلان فصعد فيهما القعقاع ومذعور وأثبتا الحبل بالشُّرَف، وكان ذلك المكان أحصن (٤٢٩/٢) موضع بدمشق وأكثره ماء، فصعد المسلمون ثمّ انحدر خالد وأصحابه وترك بذلك المكان مَن يحميه وأمرهم بالتكبير، فكبّروا، فأتاهم المسلمون إلى الباب وإلى الحبال، وانتهى خالد إلى مَنْ يليه فقتلهم وقصد الباب فقتل البوّابين، وثار أهلُ المدينة لا يدرون ما الحال، وتشاغل أهل كلّ ناحية بما يليهم، وفتح خالد الباب وقتل كلّ مَنْ عنده من الروم. فلمّا رأى الروم ذلك قصدوا أبا عُبَيْدة فبذلوا له الصلح، فقبل منهم وفتحوا له الباب وقالوا له: ادخلْ وامنعْنا من أهل ذلك الجانب، ودخل أهل كلّ باب بصلح ممّا يليهم. ودخل خالد عنوةً، فالتقى خالد والقوّاد في وسطها، هذا قتالاً ونهباً وهذا صفحاً وتسكيناً، فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح، وكان صلحهم على المقاسمة، وقسموا معهم للجنود التي عند فِحْل وعند حِمْص وغيرهم ممّن هو رِدْء للمسلمين.

وأرسل أبو عُبَيْدة إلى عمر بالفتح، فوصل كتاب عمر إلى أبي عُبَيْدة يأمره بإرسال جند العراق نحو العراق إلى سعد بن أبي وقّاص، فأرسلهم وأمّر عليهم هاشم بن عُتْبة المِرْقال، كانوا قد قُتل منهم، فأرسل أبو عُبَيْدة عوَض مَنْ قُتل، وكان ممّنْ أرسل الأشْتر وغيره، وسار أبو عُبَيْدة إلى فِحْل.

ذكر غزوة فِحْل

فلمّا فُتحت دمشق سار أبو عُبَيْدة إلى فِحْل واستخلف على دمشق يزيدَ بن أبي سفيان، وبعث خالداً على المقدّمة، وعلى النّاس شُرَحْبيل بن حَسَنَة، وكان على المجنّبتَين أبو عُبَيْدة وعمرو بن العاص، وعلى الخيل ضِرار بن الأزْور، وعلى الرّجال عِياض بن غنم، وكان أهل فِحْل قد قصدوا بَيْسان، (٤٣٠/٢) فهم بها، فنزل شُرَحْبيل بالنّاس فِحلاً، وبينهم وبين الروم تلك المياه والأوحال، وكتبوا إلى عمر، وكانت العرب تسمّي تلك الغزاة ذات الرُّدَغَة وبَيْسان وفِحْل. وقام النّاسُ ينتظرون كتاب عمر، فاغترّهم الرومُ فخرجوا وعليهم سقلار بن مخْراق، فأتوهم والمسلمون حذرون، وكان شُرَحْبيل لا يبيت ولا يصبح إلاّ على تعبية. فلمّا هجموا على المسلمين لم يناظروهم فاقتتلوا أشدّ قتال كان لهم ليلتهم ويومهم إلى اللّيل، وأظلم اللّيل عليهم وقد حاروا، فانهزم الروم وهم حيارى وقد أُصيب رئيسهم سقلار والذي يليه [فيهم] نسطورس، وظفر المسلمون بهم وركبوهم، ولم تعرف الروم مأخذهم، فانتهت بهم الهزيمة إلى الوحل فركبوه، ولحقهم المسلمون فأخذهم ولا يمنعون يَدَ لامِس فوخزوهم بالرّماح، فكانت الهزيمة بفِحْل والقتل بالرداغ، فأصيب الروم وهم ثمانون ألفاً لم يفلت منهم إلاّ الشريد، وقد كان اللّه يصنع للمسلمين وهم كارهون، كرهوا البثوق والوحل، فكانت عوناً لهم على عدوّهم وغنموا أموالهم فاقتسموها. وانصرف أبو عُبَيْدة بخالد ومَنْ معه إلى حِمْص.

وممّن قُتل في هذه الحرب السائب بن الحارث بن قيس بن عديّ السّهميّ، له صحبة.

(فِحْل بكسر الفاء، وسكون الحاء المهملة، وآخره لام). (٤٣١/٢)

ذكر فتح بلاد ساحل دمشق

لمّا استخلف أبو عُبَيْدة يزيدَ بن أبي سفيان على دمشق وسار إلى فِحْل سار يزيد إلى مدينة صَيْدا وعِرْقة وجُبَيْل وبَيروت، وهي سواحل دمشق، على مقدّمته أخوه معاوية، ففتحها فتحاً يسيراً وجلا كَثيرٌ من أهلها؛ وتولّى فتحَ عِرْقة معاوية بنفسه في ولاية يزيد. ثمّ إنّ الروم غلبوا على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر وأوّل خلافة عثمان، فقصدهم معاوية ففتحها ثمّ رمّها وشحنها بالمقاتلة وأعطاهم القطائع.

ولمّا ولي عثمان الخلافة وجمع لمعاوية الشام وجّه معاويةُ سفيانَ بن مُجيب الأزديَّ إلى طرابلس، وهي ثلاث مدن مجتمعة، ثمّ بنى في مرج على أميال منها حصناً سُمّي حصن سُفيان وقطع المادّة عن أهلها من البرّ والبحر وحاصرهم. فلمّا اشتدّ عليهم الحصار اجتمعوا في أحد الحصون الثلاثة وكتبوا إلى ملك الروم يسألونه أن يمدّهم أو يبعث إليهم بمراكب يهربون فيها إلى بلاد الروم، فوجّه إليهم بمراكب كثيرة ركبوا فيها ليلاً وهربوا. فلمّا أصبح سفيان، وكان يبيت هو والمسلمون في حصنه ثمّ يغدو على العدوّ، وجد الحصن خالياً فدخله وكتب بالفتح إلى معاوية، فأسكنه معاوية جماعة كثيرة من اليهود، وهو الذي فيه المينا اليوم، ثمّ بناه عبد الملك بن مروان وحصّنه، ثمّ نقض أهله أيام عبد الملك ففتحه ابنه الوليد في زمانه.

ذكر فتح بَيْسان وطبرية

لمّا قصد أبو عُبَيْدة حِمْص من فِحْل أرسل شُرَحْبيل ومن معه إلى بَيْسان فقاتلوا أهلها، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ثمّ صالحهم مَنْ بقي على صُلح (٤٣٢/٢) دمشق فقبل ذلك منهم. وكان أبو عُبَيْدة قد بعث بالأعور إلى طبرية يحاصرها، فصالحه أهلها على صلح

دمشق أيضاً وأن يشاطروا المسلمين المنازل، فنزلها القوّاد وخيولها وكتبوا بالفتح إلى عمر.

قال أبو جعفر : وقد اختلفوا في أيّ هذه الغزوات كان قبل الأخرى، فقيل ما ذكرنا، وقيل : إنّ المسلمين لمّا فرغوا من أجنادين اجتمع المنهزمون بفِحْل فقصدها المسلمون فظفروا بها.

ثمّ لحق المنهزمون من فِحْل بدمشق فقصدها المسلمون فحاصروها وفتحوها، وقدم كتاب عمر بن الخطّاب بعزل خالد وولاية أبي عُبَيْدة وهم محاصرون دمشق، فلم يعرّفه أبو عُبَيْدة ذلك حتّى فرغوا من صلح دمشق وكتب الكتاب باسم خالد وأظهر أبو عُبَيْدة بعد ذلك عزله، وكانت فِحْل في ذي القعده سنة ثلاث عشرة، وفتح دمشق في رجب سنة أربع عشرة، وقيل : إنّ وقعة اليرموك كانت سنة خمس عشرة، ولم تكن للروم بعدها وقعة، وإنّما اختلفوا لقرب بعض ذلك من بعض.

ذكر خبر المثنّى بن حارثة وأبي عُبَيْد بن مسعود

قد ذكرنا قدوم المثنّى بن حارثة الشيبانيّ من العراق على أبي بكر، ووصيّةَ أبي بكر عمَر بالمبادرة إلى إرسال الجيوش معه؛ فلمّا أصبح عمر من اللّيلة التي مات فيها أبو بكر كان أوّل ما عمل أن ندب النّاس مع المثنّى بن حارثة الشيبانيّ [إلى أهل فارس]، ثمّ بايع النّاس، ثمّ ندب النّاس وهو يبايعهم ثلاثاً ولا ينتدب أحد إلى فارس، وكانوا أثقل الوجوه على المسلمين وأكرهها إليهم لشدّة سلطانهم وشوكتهم وقهرهم الأمم، فلمّا كان اليوم (٤٣٣/٢) الرابع ندب النّاس إلى العراق، فكان أوّل منتدب أبو عُبَيْد بن مسعود الثقفيّ، وهو والد المختار، وسعد بن عُبَيْد الأنصاريّ، وسَليط بن قيس، وهو ممّنْ شهد بدراً، وتتابع النّاسُ.

وتكلّم المثنّى بن حارثة فقال: أيّها النّاس لا يعظمنّ عليكم هذا الوجه، فإنّا قد فتحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقّي السواد ونلنا منهم واجترأنا عليهم، ولنا إن شاء اللّه ما بعدها. فاجتمع النّاسُ، فقيل لعمر : أمّرْ عليهم رجلاً من السابقين من المهاجرين أو الأنصار. قال: لا واللّه لا أفعل، إنّما رفعهم اللّه تعالى بسبقهم ومسارعتهم إلى العدوّ، فإذا فعل فعلهم قوم وتثاقلوا كان الذين ينفرون خِفافاً وثقالاً ويسبقون إلى الرفع أولى بالرئاسة منهم، واللّه لا أؤمّر عليهم إلاّ أوّلهم انتداباً! ثمّ دعا أبا عُبَيْد، وسعداً وسَليطاً، وقال لهما : لو سبقتماه لوليتكما ولأدركتما بها إلى ما لكما من السابقة، فأمّر أبا عُبَيْد وقال له: اسمعْ من أصحاب رسول اللّه، ﷺ، وأشركْهم في الأمر، ولم يمنعني أن أؤمّر سَليطاً إلاّ سرعتُه إلى الحرب، وفي التسرّع إلى الحرب ضياع الأعراب، فإنّه لا يصلحها إلاّ الرجل المَكيث. وأوصاه بجنده. فكان بعث أبي عُبَيْد أوّل جيش سيّره عمر، ثمّ بعده سيّر يَعْلى بن مُنْيَة إلى اليمن وأمره بإجلاء أهل نجران بوصيّة رسول اللّه، ﷺ، وأن لا يجتمع بجزيرة العرب دينان. (٤٣٤/٢).

ذكر خبر النّمارق

فسار أبو عُبَيْد الثقفيّ وسعد بن عُبَيْد وسَليط بن قيس الأنصاريّان والمثنّى بن حارثة الشيبانيّ أحد بني هند من المدينة، وأمر عمر المثنّى بالتقدّم إلى أن يقدم عليه أصحابه، وأمرهم باستنفار من حسُن إسلامه من أهل الردّة. ففعلوا ذلك، وسار المثنّى فقدم الحيرة، وكانت الفرس تشاغلت عن المسلمين بموت شهريران حتّى اصطلحوا على سابور بن شهريار بن أردشير، فثارت به آزرميدُخت فقتلته وقتلت الفرُخزاد وملكت بوران، وكانت عَدلاً بين النّاس حتّى يصطلحوا، فأرسلت إلى رستم بن الفرُخزاد بالخبر وتحثّه على السير، وكان على فرج خراسان، فأقبل لا يلقى جيشاً لآزرميدُخت إلاّ هزمه حتّى دخل المدائن، فاقتتلوا، وهزم سياوُخش وحصره وآزرميدخيت بالمدائن. ثمّ افتتحها رستم وقتل سياوخش وفقأ عين آزرميدخت، ونصّب بوران على أن تملّكه عشر سنين ثمّ يكون الملك في آل كسرى إن وجدوا من غلمانهم أحداً وإلاّ ففي نسائهم، ودعت مرازبة فارس وأمرتهم أن يسمعوا له ويطيعوه، وتوّجَتْهُ، فدانت له فارس قبل قدوم أبي عُبَيْد. وكان منجّماً حسن المعرفة به وبالحوادث، فقال له بعضهم: ما حملك على هذا الأمر وأنت ترى ما ترى؟ قال: حبّ الشرف والطمع.

ثمّ قدم المثنّى إلى الحيرة في عشر، وقدم أبو عُبَيْد بعده بشهر. فكتب رُستم إلى الدهاقين أن يثوروا بالمسلمين، وبعث في كلّ رستاق رجلاً يثور (٤٣٥/٢) بأهله، فبعث جابان إلى فرات بادَقْلى، وبعث نَرْسي إلى كَسْكر ووعدهم يوماً، وبعث جنداً لمصادمة المثنّى. وبلغ المثنّى الخبرُ فحذر، وعجل جابانُ ونزل النّمارق، وثاروا وتوالوا على الخروج، وخرج أهل الرساتيق من أعلى الفرات إلى أسفله، وخرج المثنّى من الحيرة فنزل خَفّان لئلاّ يوتى من خلفه بشيء يكرهه، وأقام حتّى قدم عليه أبو عُبَيْد. فلمّا قدم لبث أياماً يستريح هو وأصحابه، واجتمع إلى جابان بشر كثير، فنزل النّمارق، وسار إليه أبو عُبَيْد فجعل المثنّى على الخيل، وكان على مجنّبتَيْ جابان جشْنس ماه ومردانشاه، فاقتتلوا بالنّمارق قتالاً شديداً، فهزم اللّه أهل فارس وأُسر جابان، أسرهُ مَطَر بن فِضّة التيميّ، وأُسر مردانشاه، وأسره أَكْتَل بن شمّاخ العُكلّي فقتله.

وأمّا جابان فإنّه خدع مطراً وقال له: هل لك أن تؤمنني وأعطيك غلامَين أمردَيْن خفيفَين في عملك وكذا وكذا؟ ففعل، فخلّى عنه، فأخذه المسلمون وأتوا به أبا عُبَيْد وأخبروه أنّه جابان وأشاروا عليه بقتله. فقال: إنّي أخاف اللّه أن أقتله وقد آمنه رجل مسلم والمسلمون كالجسد الواحد، ما لزم بعضَهم فقد لزم كلّهم،

وتركوه. وأرسل في طلب المنهزمين حتّى أدخلوهم عسكر نرسيّ وقتلوا منهم.

(أكْتَل بفتح الهمزة، وسكون الكاف، وفتح التاء المثنّاة باثنتين من فوقها، وفي آخره لام). (٤٣٦/٢)

ذكر وقعة السقاطيّة بكَسْكَر

ولحق المنهزمون نحو كَسْكَر وبها نرسي، وهو ابن خالة الملك، وكان له النّرْسيان، وهو نوع من التمر يحميه، لا يأكله إلاّ ملك الفرس أو مَنْ أكرموه بشيء منه، ولا يغرسه غيرهم، واجتمع إلى النرسي الفالّةُ، وهو في عسكره، فسار أبو عُبَيْد إليهم من النّمارق فنزل على نرسي بكَسْكَر، وكان المثنّى في تعبيته التي قاتل فيها بالنّمارق، وكان على مجنبتَي نرسي بِندَوَيْه وتيرَوَيْه ابنا بسطام خال الملك، ومعه أهل بارُوسما والزّوابي. ولمّا بلغ الخبر بوران ورستم بهزيمة جابان بعثا الجالينوس إلى نرسي فلحقه قبل الحرب، فعاجلهم أبو عُبَيْد، فالتقوا أسفل من كَسْكَر بمكان يُدْعى السقاطيّة، فاقتتلوا قتالاً شديداً ثمّ انهزمت فارس وهرب نرسي وغلب المسلمون على عسكره وأرضه وجمعوا الغنائم، فرأى أبو عُبَيْد من الأطعمة شيئاً كثيراً فنفّله مَنْ حوله من العرب، وأخذوا النّرْسيان فأطعموه الفلاّحين وبعثوا بخمسه إلى عمر وكتبوا إليه : إنّ اللّه أطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة تحميها وأحببنا أن تروها لتشكروا إنعام اللّه وإفضاله.وأقام أبو عُبَيْد.

وبعث أبو عُبَيْد المثنّى إلى باروسما، وبعث والقاً إلى الزوابي، وعاصماً إلى نهر جَوْبر، فهزموا مَنْ كان تجمّع وأخربوا وسبوا أهل زَنْدوَرَدْ وغيرها، وبذل لهم فرّوخ وفراونداد عن أهل بارُوسما والزوابيّ وكَسْكَر الجزاء معجلاً، فأجابوا إلى ذلك وصاروا صلحاً، وجاء فرّوخ وفراونداد إلى أبي عُبَيْد بأنواع الطعام والأخبصة وغيرها، فقال: هل أكرمتم الجند بمثلها؟ فقالوا: لم يتيسّر ونحن فاعلون، وكانوا يتربّصون قدوم الجالينوس. (٤٣٧/٢) فقال أبو عُبَيْد: لا حاجة لنا فيه، بئس المرء أبو عُبَيْد إن صحب قوماً من بلادهم استأثر عليهم بشيء، ولا واللّه لا آكل ما أتيتم به ولا ممّا أفاء اللّه إلاّ مثل ما يأكل أوساطهم. فلمّا هُزم الجالينوس أتوه بالأطعمة أيضاً، فقال : ما آكل هذا دون المسلمين. فقالوا له: ليس من أصحابك أحد إلاّ وقد أُتي بمثل هذا؛ فأكل حينئذٍ.

ذكر وقعة الجالينوس

ولمّا بعث رستم الجالينوس أمره أن يبدأ بنرسي ثمّ يقاتل أبا عُبَيْد، فبادره أبو عُبَيْد إلى نرسي فهزمه، وجاء الجالينوس فنزل بباقُسْيانا من باروسما، فسار إليه أبو عُبَيْد، وهو على تعبيته، فالتقوا بها، فهزمهم المسلمون وهرب الجالينوس وغلب أبو عُبَيْد على تلك البلاد، ثمّ ارتحل حتّى قدم الحيرة، وكان عمر قد قال له : إنّك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبريّة، تقدم على قوم تجرّأوا على الشرّ فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه، فانظرْ كيف تكون، واحرزْ لسانك ولا تُفشينّ سرّك، فإنّ صاحب السرّ ما يضبطه متحصّن لا يؤتى من وجه يكرهه، وإذا ضيّعه كان بمضيعة. (٤٣٨/٢)

ذكر وقعة قُسّ الناطف ويقال لها الجسر ويقال المَرْوَحَة وقتل أبي عُبَيْد بن مسعود

ولما رجع الجالينوس إلى رستم منهزماً ومَنْ معه من جنده قال رستم: أيّ العجم أشدّ على العرب؟ قال: بهمن جاذَوَيْه المعروف بذي الحاجب، وإنّما قيل له ذو الحاجب لأنّه كان يعصّب حاجبَيْه بعصابة ليرفعها كِبراً. فوجّهه ومعه فيلة وردّ الجالينوس معه وقال لبهمن : إن انهزم الجالينوس ثانيةً فاضربْ عنقه. فأقبل بهمن جاذوَيْه ومعه دِرَفْش كابيان راية كسرى، وكانت من جلود النمر، عرض ثمانية أذرع، وطول اثني عشر ذراعاً، فنزل بقُسّ الناطف. وأقبل أبو عُبَيْد فنزل بالمَرْوحة، فرأت دومة، امرأته أمّ المختار ابنه، إنّ رجلاً نزل من السماء بإناء فيه شراب، فشرب أبو عُبَيْد ومعه نفر، فأخبرت بها أبا عُبَيْد فقال : لهَذه إن شاء اللّه الشهادة! وعهد إلى النّاس فقال: إن قُتلتُ فعلى النّاس فلان، فإن قُتل فعليهم فلان، حتّى أمّر الذين شربوا من الإناء، ثمّ قال: فإن قُتل فعلى النّاس المثنّى.

وبعث إليهم بهمن جاذوَيْه : إمّا أن تعبر إلينا ونَدَعكم والعبور، وإمّا أن تدعونا نعبر إليكم. فنهاه النّاس عن العبور، ونهاه سَليط أيضاً، فلجّ وترك الرأي وقال: لا يكونوا أجرأ على الموت منّا. فعبر إليهم على جسر عقده ابن صَلوبا للفريقين، وضاقت الأرض بأهلها واقتتلوا، فلمّا نظرت الخيول إلى الفيلة والخيل عليها التجافيف رأت شيئاً منكراً لم تكن رأت مثله، (٤٣٩/٢) [فجعل المسلمون إذا حملوا عليهم] لم تقدم عليهم [خيولهم]، وإذا حملت الفرس على المسلمين بالفيلة والجلاجل فرّقت خيولهم وكراديسهم ورموهم بالنشّاب. واشتدّ الأمر بالمسلمين، فترجّل أبو عُبَيْد والنّاس ثمّ مشوا إليهم ثمّ صافحوهم بالسيوف، فجعلت الفيلة لا تحمل على جماعة إلاّ دفعتهم، فنادى أبو عُبَيْد: احتوشوا الفيلة واقطعوا بطانها وأقلبوا عنها أهلها، ووثب هو على الفيل الأبيض فقطع بطانه ووقع الذين عليه، وفعل القوم مثل ذلك فما تركوا فيلاً إلاّ حطّوا رحله وقتلوا أصحابه. وأهوى الفيل لأبي عُبَيْد فضربه أبو عُبَيْد بالسيف وخبطه الفيل بيده فوقع فوطئه الفيل وقام عليه. فلمّا بصر به النّاس تحت الفيل خشعت أنفس بعضهم، ثمّ أخذ اللّواءَ الذي [كان] أمّره بعده فقاتل الفيل حتّى تنحّى عن أبي عُبَيْد، فأخذه المسلمون فأحرزوه، ثمّ قتل الفيل الأميرَ الذي بعد أبي عُبَيْد وتتابع سبعة أنفس من ثقيف كلّهم يأخذ اللّواء ويقاتل حتّى يموت، ثمّ

أخذ اللواءَ المثنّى فهرب عنه النّاس.

فلمّا رأى عبد اللّه بن مَرْثد الثقفي ما لقي أبو عُبَيْد وخلفاؤه وما يصنع النّاس بادرهم إلى الجسر فقطعه وقال: يا أيّها النّاس موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا! وحاز المشركون المسلمين إلى الجسر، فتواثب بعضهم إلى الفرات فغرق مَنْ لم يصبر وأسرعوا فيمن صبر. وحمى المثنّى وفرسان من المسلمين النّاس وقال: إنّا دونكم فاعبروا على هينتكم ولا تدهشوا ولا تغرّقوا نفوسكم. وقاتل عُروة بن زيد الخيل قتالاً شديداً وأبو مِحْجن الثقفيّ، وقاتل أبو زُبَيْد الطائيّ حميّة للعربيّة، وكان نصرانيّاً قدم الحيرة لبعض (٤٤٠/٢) أمره، ونادى المثنّى: من عبر نجا. فجاءَ العلوج فعقدوا الجسر وعبر النّاس.

وكان آخر مَنْ قُتل عند الجسر سَليط بن قيس، وعبر المثنّى وحمى جانبه، فلمّا عبر ارفضّ عنه أهل المدينة وبقي المثنّى في قلّة، وكان قد جُرح وأُثبت فيه حلق من درعه.

وأُخبر عمر عمّن سار في البلاد من الهزيمة استحياء، فاشتدّ عليه وقال: اللهمّ كلّ مسلم في حلّ مني، أنا فئة كلّ مسلم، يرحم اللّه أبا عُبَيْد! ولو كان انحاز إليّ لكنتُ له فئة.

وهلك من المسلمين أربعة آلاف بين قتيل وغريق، وهرب ألفان وبقي ثلاثة آلاف، وقُتل من الفرس ستّة آلاف. وأراد بهمن جاذوَيْه العبور خلف المسلمين فأتاه الخبر باختلاف الفرس وأنّهم قد ثاروا برستم ونقضوا الذي بينهم وبينه وصاروا فريقَين: الفهلوج على رستم، وأهل فارس على الفيرزان، فرجع إلى المدائن.

وكانت هذه الوقعة في شعبان.

وكان فيمن قُتل بالجسر عُقبة وعبداللّه ابنا قبطي بن قيس، وكانا شهدا أُحُداً، وقُتل معهما أخوهما عبّاد ولم يشهد معهما أُحُداً، وقُتل أيضاً قيس بن السَّكَن بن قيس أبو زيد الأنصاريّ، وهو بدريّ لا عقب له، وقُتل يزيد بن قيس بن الخُطَيْم الأنصاريّ، شهد أُحُداً، وفيها قُتل أبو أميّة الفزاريّ، له صحبة، والحَكَم بن مسعود أخو أبي عُبَيْد، وابنه جبر بن الحكم بن مسعود. (٤٤١/٢).

ذكر خبر أُلَيْس الصغرى

لما عاد ذو الحاجب لم يشعر جابان ومَرْدانشاه بما جاءه من الخبر، فخرجا حتّى أخذا بالطريق، وبلغ المثنّى فعلهما فاستخلف على النّاس عاصم بن عمرو وخرج في جريدة خيل يريدهما، فظنا أنّه هارب فاعترضاه، فأخذهما أسيرَين، وخرج أهل أُلَيْس على أصحابهما فأتوه بهم أسرى، وعقد لهم بها ذِمّة وقتلهما وقتل الأسرى. وهرب أبو محجن من أُلَيْس ولم يرجع مع المثنّى بن حارثة.

ذكر وقعة البُوَيْب

لمّا بلغ عمرَ خبر وقعة أبي عُبَيْد بالجسر ندبَ النّاسَ إلى المثنّى، وكان فيمن ندب بَجيلة، وأمرهم إلى جرير بن عبد اللّه لأنّه كان قد جمعهم من القبائل وكانوا متفرّقين فيها، فسأل النبيّ، ﷺ، أن يجمعهم فوعده ذلك، فلمّا ولي أبو بكر تقاضاه بما وعده النبيّ، ﷺ، فلم يفعل، فلمّا ولي عمر طلب منه ذلك فكتب إلى عُمّاله: إنّه مَنْ كان يُنسب إلى بَجيلة في الجاهليّة وثبت عليه في الإسلام فأخرجوه إلى جرير، ففعلوا ذلك، فلمّا اجتمعوا، أمرهم عمر بالعراق، وأبوا إلاّ الشام، فعزم عمر على العراق وينفلهم ربع الخمس، فأجابوا، وسيّرهم إلى المثنّى بن حارثة، وبعث عصمة بن عبد اللّه الضّبّيّ فيمن تبعه إلى المثنّى، وكتب إلى أهل الردّة (٤٤٢/٢) فلم يأتِهِ أحد إلاّ رمى به المثنّى، وبعث المثنّى الرسل فيمن يليه من العرب فتوافوا إليه في جمع عظيم. وكان فيمن جاءه أنس بن هلال النمريّ في جمع عظيم من النمر نصارى وقالوا: نقاتل مع قومنا.

وبلغ الخبر رستم والفيرزان فبعثا مِهْران الهمذانيّ إلى الحيرة، فسمع المثنّى ذلك وهو بين القادسيّة وخفّان فاستبطن فرات بادَقْلى وكتب إلى جرير وعصمة وكلّ مَن أتاه ممدّاً له يُعلمهم الخبر ويأمرهم بقصد البُوَيْب فهو الموعد، فانتهوا إلى المثنّى وهو بالبُوَيْب ومهران بإزائه مَنْ وراء الفرات، فاجتمع المسلمون بالبُوَيْب ممّا يلي الكوفة اليوم، وأرسل مِهْران إلى المثنّى يقول: إما أن تعبر إلينا وإما أن نعبر إليك. فقال المثنّى: أعبروا. فعبر مِهْران فنزل على شاطئ الفرات، وعبّى المثنّى أصحابه، وكان في رمضان، فأمرهم بالإفطار ليقووا على عدوّهم، فأفطروا. وكان على مجنّبتَي المثنّى بَشير بن الخصاصيّة وبُسْر بن أبي رُهْم، وعلى مجرّدته المُعنّى أخوه، وعلى الرَّجل مسعود أخوه، وعلى الرِّدْء مذعور، وكان على مجنّبتَي مِهْران بن الأزاذبه مرزبان الحيرة ومردانشاه. وأقبل الفرس في ثلاثة صفوف مع كلّ صفّ فيل ورَجلهم أمام فيلهم ولهم رُجّل، فقال المثنّى للمسلمين: إنّ الذي تسمعون فشل فالزموا الصمت.

ودنوا من المسلمين وطاف المثنّى في صفوفه يعهد إليهم وهو على فرسه الشَّموس، وإنّما سُمّي بذلك للينه، وكان لا يركبه إلاّ إذا قاتل، فوقف على الرايات يحرّضهم ويهزّهم، ولكلّهم يقول: إنّي لأرجو أن لا يؤتَى النّاس من قِبَلكم اليوم، واللّه ما يسرّني اليوم لنفسي شيء إلاّ وهو يسرّني لعامتكم. فيجيبونه بمثل ذلك، وأنصفهم من نفسه في القول والفعل، وخلط النّاس في المحبوب والمكروه فلم يقدر أحد أن يعيب له قولاً ولا فعلاً وقال: (٤٤٣/٢) إنّي مكبّرٌ ثلاثاً فتهيّأوا ثمّ احملوا في الرابعة فلمّا كبّر أوّل تكبيرة أعجلتهم فارس وخالطوهم وركدت خيلهم وحزبهم مليّاً،

فرأى المثنّى خللاً في بني عِجْل فجعل يمدّ لحيته لما يرى منهم وأرسل إليهم يقول: الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول : لا تفضحوا المسلمين اليوم. فقالوا : نعم؛ واعتدلوا. فضحك فرحاً.

فلمّا طال القتال واشتدّ قال المثنّى لأنس بن هلال النمريّ: إنك امرؤ عربيّ وإن لم تكن على ديننا، فإذا حملتُ على مِهْران فاحملْ معي، فأجابه، فحمل المثنّى على مِهْران فأزاله حتّى دخل في ميمنته، ثمّ خالطوهم واجتمع القلبان وارتفع الغبار والمجنّبات تُقتَل لا يستطيعون أن يفرغوا لنصر أميرهم لا المسلمون ولا المشركون، وارتُثّ مسعود أخو المثنّى يومئذٍ وجماعة من أعيان المسلمين، فلمّا أُصيب مسعود تضعضع مَنْ معه، فقال: يا معشر بكر ارفعوا رايتكم رفعكم الله ولا يهولنّكم مصرعي! وكان المثنّى قال لهم: إذا رأيتمونا أُصبنا فلا تَدَعوا ما أنتم فيه، الزموا مصافّكم وأغنوا غَناءَ من يليكم.

وأوجع قلبُ المسلمين في قلب المشركين، وقتل غلام نصرانيّ من تغلب مِهْرانَ واستولى على فرسه، فجعل المثنّى سَلَبه لصاحب خيله، وكان التغلبّي قد جلب خيلاً هو وجماعة من تغلب، فلمّا رأوا القتال قاتلوا مع العرب، قال: وأفنى المثنّى قلب المشركين والمجنّبات بعضها يقاتل بعضاً. فلمّا رأوه قد أزال القلب وأفنى أهله وثب مجنّبات المسلمين على مجنّبات المشركين وجعلوا يردّون الأعاجم على أدبارهم، وجعل المثنّى والمسلمون في القلب يدعون لهم بالنصر ويرسل إليهم مَنْ يذمرهم ويقول لهم: عاداتكم في أمثالهم، انصروا الله ينصركم، حتّى هزموا الفرس، وسبقهم المثنّى إلى الجسر وأخذ طريق الأعاجم، فافترقوا (٤٤٤/٢) مصعدين ومنحدرين، وأخذتْهم خيول المسلمين حتّى قتلوهم وجعلوهم جُثّاً.

فما كانت بين المسلمين والفرس وقعة أبقى رمّة منها، بقيت عظام القتلى دهراً طويلاً، وكانوا يحزرون القتلى مائة ألف، وسُميّ ذلك اليوم الأعشار، أُحصي مائة رجل قتل كلّ رجل منهم عشرة. وكان عروة بن زيد الخيل من أصحاب التسعة، وغالب الكنانيّ وعَرْفجة الأزديّ من أصحاب التسعة. وقُتل المشركون فيما بين السّكون اليوم وضَفّة الفرات وتبعهم المسلمون إلى اللّيل ومن الغد إلى اللّيل. وندم المثنّى على أخذه بالجسر وقال: عجزتُ عجزة وقَى الله شرّها بمسابقتي إيّاهم إلى الجسر حتّى أحرجتُهم، فلا تعودوا أيّها النّاس إلى مثلها فإنّها كانت زلّة فلا ينبغي إحراج مَنْ لا يقوى على امتناع.

ومات أناس من الجرحى، منهم مسعود أخو المثنّى، وخالد بن هلال، فصلّى عليهم المثنّى وقال: والله إنّه ليهوّن وجدي أن صبروا وشهدوا البُوَيْب ولم ينكلوا.

وكان قد أصاب المسلمون غنماً ودقيقاً وبقراً فبعثوا به إلى عيال مَنْ قدم من المدينه وهم بالقوادس. وأرسل المثنّى الخيلَ في طلب العجم فبلغوا السِّيب وغنموا مَنْ البقر والسبي وسائر الغنائم شيئاً كثيراً، فقسمه فيهم ونفّل أهل البلاد وأعطى بَجيلة رُبْع الخمس، وأرسل الذين تبعوا المنهزمين إلى المثنّى يعرّفونه سلامتهم وأنّه لا مانع دون القوم ويستأذنونه في الإقدام، فأذن لهم، فأغاروا حتّى بلغوا ساباط، وتحصّن أهله منهم واستباحوا القرى ثمّ مخروا (٤٤٥/٢) السواد فيما بينهم وبين دجلة لا يخافون كيداً ولا يَلقون مانعاً، ورجعت مسالح العجم إليهم، وسرّهم أن يتركوا ما وراء دجلة.

(بُسْر بن أبي رُهْم وبضمّ الباء الموحّدة، وسكون السين المهملة).

ذكر خبر الخنافس وسوق بغداد

ثمّ خلّف المثنّى بالحيرة بَشيرَ بن الخصاصيّة، وسار يمخر السواد،وأرسل إلى مَيْسان ودَسْتميسان وأذكى المسالح ونزل أُلَيْس، قرية من قرى الأنبار، وهذه الغزوة تُدْعى غزوة الأنبار الآخرة وغزوة أُلَيْس.

وجاء إلى المثنّى رجلان أحدهما أنباريّ فدلّه على سوق الخنافس، والثاني حيريّ دلّه على بغداد، فقال المثنّى : أيّهما قبل صاحبتها؟ فقالا : بينهما مسيرة أيّام. قال: أيّهما أعجل؟ قالا: سوق الخنافس يجتمع بها تجار مدائن كسرى والسواد وربيعة وقُضاعة يخفرونهم. فركب المثنّى وأغار على الخنافس يوم سوقها وبها خيلان من ربيعة وقُضاعة، وعلى قُضاعة رُومانس بن وَبَرَة، وعلى ربيعة السُّليل بن قيس وهم الخفراء، فانتسف السوق وما فيها وسلب الخفراء. ثمّ رجع فأتى الأنبار فتحصّن أهلُها منه، فلمّا عرفوه نزلوا إليه وأتوه بالأعلاف والزاد، وأخذ منهم الأدلاّء على سوق بغداد وأظهر لدهقان الأنبار أنّه يريد المدائن، وسار منهم إلى بغداد ليلاً وعبر إليهم وصبّحهم في أسواقهم فوضع السيف فيهم وأخذ ما شاء. وقال المثنى: لا تأخذوا إلاّ (٤٤٦/٢) الذهب والفضّة والحُرّ من كلّ شيء. ثمّ عاد راجعاً حتّى نزل بنهر السالحين بالأنبار، فسمع أصحابه يقولون: ما أسرع القوم في طلبنا، فخطبهم وقال: احمدوا الله وسلوه العافية وتناجوا بالبّر والتقوى ولا تتناجوا بالإثم والعدوان، انظروا في الأمور وقدّروها ثمّ تكلّموا. إنّه لم يبلغ النذير مدينتهم بعدُ، ولو بلغهم لحال الرّعْب بينهم وبين طلبكم. إنّ للغارات روعات تُضعف القلوب يوماً إلى اللّيل، ولو طلبكم المحامون من رأي العين ما أدركوكم وأنتم على العراب حتّى تنتهوا إلى عسكركم، ولو أدركوكم لقاتلتُهم التماس الأجر ورجاء النصر، فثِقُوا بالله وأحسنوا به الظنّ، فقد نصركم في مواطن كثيرة.

ثمّ سار بهم إلى الأنبار، وكان مَنْ خلفه من المسلمين يمخرون السواد ويشنّون الغارات ما بين أسفل كَسْكَر وأسفل الفرات، وجسّوا مِثْقباً إلى عين التمر وفي أرض الفلاليج، والمثنّى بالأنبار.

ولمّا رجع المثنّى من بغداد إلى الأنبار بعث المُضاربَ العِجْليّ في جمع إلى الكَباث وعليه فارس العُنَاب التغلبيّ، ثمّ لحقهم المثنّى فسار معهم، فوجدوا الكَباث قد سار مَنْ كان به عنه ومعهم فارس العُناب، فسار المسلمون خلفه فلحقوه وقد رحل من الكَباث، فقتلوا في أخريات أصحابه وأكثروا القتل. فلمّا رجعوا إلى الأنبار سرّح فُرات بن حَيّان التغلبيّ وعُتَيْبة بن النّهّاس وأمرهما بالغارة على أحياء من تغلب بصفّين ثمّ اتبعهما المثنّى واستخلف على (٤٤٧/٢) النّاس عمرو بن أبي سَلْمَى الهُجَيْميّ. فلمّا دنوا من صفّين فرّ مَنْ بها وعبروا الفرات إلى الجزيرة، وفني الزاد الذي مع المثنّى وأصحابه، فأكلوا رواحلهم إلاّ ما لا بدّ منه حتّى جلودها، ثمّ أدركوا عيراً من أهل دَبا وحَوْران فقتلوا مَنْ بها وأخذوا ثلاثة نفر من تغلب كانوا خفراء وأخذوا العير، فقال لهم: دلّوني. فقال أحدهم: آمنوني على أهلي ومالي وأدلّكم على حيّ من تغلب. فآمنه المثنّى وسار معهم يومه، فهجم العشيّ على القوم والنّعم صادرة عن الماء وأصحابها جلوس بأفنية البيوت، فقتل المقاتلة وسَبَى الذرّيّة واستاق الأموال، وكان التغلبيّون بني ذو الرُّوَيْحلة، فاشترى مَنْ كان مع المثنّى من ربيعة السبايا بنصيبه من الفيء وأعتقوهم؛ وكانت ربيعة لا تسابي إذ العرب يتسابون في جاهليتهم.

وأخبر المثنّى أنّ جمهور مَنْ سلك البلاد قد انتجع شاطئ دجلة، فخرج المثنّى وعلى مجنّبتَيْه النّعمان بن عوف ومَطَر الشيبانيّان، وعلى مقدّمته حُذَيفة بن مِحْصن الغِلفانيّ، فساروا في طلبهم فأدركوهم بتَكريت، فأصابوا ما شاؤوا مَنْ النّعم، وعاد إلى الأنبار. ومضى عُتَيْبة وفرات ومَن معهما حتّى أغاروا على صفّين وبها النّمر وتغلب متساندين،فأغاروا عليهم حتّى رموا طائفة منهم في الماء، فجعلوا ينادونهم: الغرقَ الغرقَ! وجعل عُتَيْبة وفرات يذمران النّاس ويناديانهم : تغريق بتحريق! يذكّرانهم يوماً من أيّام الجاهليّة أحرقوا فيه قوماً من بكر بن وائل في غيضة من الغياض. ثمّ رجعوا إلى المثنّى وقد غرّقوهم، وقد بلغ الخبر عمر فبعث إلى عُتَيْبة وفرات فاستدعاهما فسألهما عن قولهما، فأخبراه أنّهما لم يفعلا ذلك على وجه طلب ذَحْل إنّما هو مَثَلٌ. فاستحلفهما وردّهما إلى المثنّى.

(عُتَيْبة بن النّهّاس، بالتاء المثنّاة من فوقها، والياء المثنّاة من تحتها، والباء الموحّدة). (٤٤٨/٢)

ذكر الخبر عن الذي هيّج أمر القادسيّة وملك يزدجرد

لما رأى أهل فارس ما يفعل المسلمون بالسواد قالوا لرستم والفيرزان، وهما على أهل فارس: لم يبرح بكما الاختلاف حتّى وهّنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوّهم، ولم يبلغ من أمركما أن نقرّكما على هذا الرأي وأن تعرّضاها للهلكة؛ ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلاّ المدائن، واللّه لتجتمعان أو لنبدأنّ بكما ثمّ نهلك وقد اشتفينا منكما. فقال الفيرزان ورستم لبوران ابنة كِسْرَى: اكتبي لنا نساء كسرى وسراريّه ونساء آل كسرى وسراريّهم، ففعلت، فأحضروهنّ جميعهنّ وأخذوهنّ بالعذاب يستدلّونهنّ على ذَكَرَ من أبناء كسرى، فلم يوجد عند واحدة منهنّ أحد، وقال بعضهنّ: لم يبقَ إلاّ غلام يُدْعى يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى وأمّه من أهل بادوريا. فأرسلوا إليها وطلبوه منها، وكانت قد أنزلته آيام شِيرَى حين جمعهنّ فقتل الذكور، وأرسلته إلى أخواله، فلمّا سألوها عنه دلّتهم عليه، فجاؤوا به فملّكوه وهو ابن إحدى وعشرين سنة واجتمعوا عليه، فاطمأنّت فارس واستوثقوا وتبارى المرازبة في طاعته ومعونته فسمّى الجنود لكلّ مسلحة وثغر، فسمّى جند الحيرة والأُبُلّة والأنبار وغير ذلك.

وبلغ ذلك من أمرهم المثنّى والمسلمين، فكتبوا إلى عمر بن الخطّاب بما ينتظرون من أهل السواد، فلم يصل الكتاب إلى عمر حتّى كفر أهل السواد مَنْ كان له عهد ومَنْ لم يكن له عهد، فخرج المثنّى حتّى نزل بذي قار ونزل النّاس بالطفّ في عسكر واحد. ولمّا وصل كتاب المثنّى إلى عمر قال: واللّه لأضربنّ ملوك العجم بملوك العرب! فلم يَدَعْ رئيساً ولا ذا رأي وذا شرف وبسطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلاّ رماهم به، فرماهم بوجوه النّاس وغُرَرهم. وكتب عمر إلى المثنّى ومَنْ معه يأمرهم بالخروج من بين العجم (٤٤٩/٢) والتفرّق في المياه التي تلي العجم، وأن لا يَدَعوا في ربيعة ومضر وحلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلاّ أحضروه إمّا طوعاً أو كرهاً. ونزل النّاس بالخَلّ وشِراف إلى غُضَى، وهو جبل البصرة، وبسلمان، بعضهم ينظر إلى بعض ويُغيث بعضهم بعضاً، وذلك في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة. وأرسل عمر في ذي الحجه من السنة مخرجَهُ إلى الحجّ إلى عُمّاله على العرب أن لا يَدَعوا مَنْ له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأي إلاّ وجّهوه إليه، فأمّا مَنْ كان على النصف ما بين المدينة والعراق فجاء إليه بالمدينة لما عاد مَنْ الحجّ، وأما مَنْ كان أقرب إلى العراق فانضمّ إلى المثنّى بن حارثة، وجاءت أمداد العرب إلى عمر.

وحجّ في هذه السنة عمر بن الخطّاب بالناس وحجّ سنيه كلّها.

وكان عامل عمر على مكّة هذه السنة عتّاب بن أسيد فيما قال بعضهم، وعلى الطائف عثمان بن أبي العاص، وعلى اليمن يَعْلى بن مُنْية، وعلى عُمان واليمامة حُذَيْفة بن مِحْصن، وعلى البحرين العلاء بن الحضرميّ، وعلى الشام أبو عُبَيْدة بن الجرّاح، وعلى فرج الكوفة وما فُتح من أرضها المثنّى بن حارثة، وكان على القضاء

فيما ذُكر عليّ بن أبي طالب.

وفي هذه السنة مات أبو كَبْشة مولى رسول اللّه، ﷺ، وقيل بعد ذلك. وفي خلافة أبي بكر مات سهل بن عمرو أخو سُهَيْل، وهو من مسلمة الفتح. وفي خلافته مات الصَّعْب بن جثّامة اللَّيْثي. وفي أوّل خلافته مات ابنه عبد اللّه بن أبي بكر، وكان قد جُرح في حصار الطائف ثمّ انتقض عليه جرحه فمات. وفي هذه السنة توفيّ الأرْقم بن أبي الأرقم يوم مات أبو بكر، وهو الذي كان رسول اللّه، ﷺ، مستخفياً بداره بمكّة أوّل ما أُرسل. (٤٥٠/٢)

سنة أربع عشرة

ذكر ابتداء أمر القادسيّة

لما اجتمع النّاسُ إلى عمر خرج من المدينة حتّى نزل على ماء يُدْعى صِراراً، فعسكر به ولا يدري النّاس ما يريد أيسير أم يقيم، وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف، فإن لم يقدر هذان على علم شيء ممّا يريد ثلّثوا بالعبّاس بن عبد المطّلب، فسأله عثمان عن سبب حركته، فأحضر النّاس فأعلمهم الخبر واستشارهم في المسير إلى العراق، فقال العامّة: سِرْ وسِرْ بنا معك. فدخل معهم في رأيهم وقال: اغدوا واستعدّوا فإنّي سائر إلاّ أن يجيء رأي هو أمثل من هذا. ثمّ جمع وجوه أصحاب رسول اللّه، ﷺ، وأرسل إلى عليّ، وكان استخلفه على المدينة، فأتاه، وإلى طلحة، وكان على المقدّمة، فرجع إليه، وإلى الزبير وعبد الرحمن، وكانا على المجنّبتَين، فحضرا، ثمّ استشارهم فاجتمعوا على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول اللّه، ﷺ، ويرميه بالجنود، فإن كان الذي يشتهي فهو الفتح وإلاّ أعاد رجلاً وبعث آخر ففي ذلك غيظ العدوّ. (٤٥١/٢)

فجمع عمر النّاس وقال لهم: إنّي كنتُ عزمتُ على المسير حتى صرفني ذوو الرأي منكم، وقد رأيتُ أن أقيم وأبعث رجلاً فأشيروا عليّ برجل.

وكان سعد بن أبي وقاص على صدقات هوازن، فكتب إليه عمر بانتخاب ذوي الرأي والنجدة والسلاح فجاءه كتابُ سعد، وعمر يستشير النّاس فيمن يبعثه، يقول: قد انتخبتُ لك ألف فارس كلّهم له نجدة ورأي وصاحب حيطة يحوط حريم قومه، إليهم انتهت أحسابهم ورأيهم. فلمّا وصل كتابه قالوا لعمر: قد وجدتهُ. قال: من هو؟ قالوا: الأسد عادياً سعد بن مالك، فانتهى إلى قولهم وأحضره وأمّره على حرب العراق ووصاه وقال: لا يغرّنّك من اللّه أن قيل خال رسول اللّه، ﷺ، وصاحب رسول اللّه، ﷺ، فإنّ اللّه لا يمحو السيّء ولكنّه يمحو السيّء بالحسن، وليس بين اللّه وبين أحد نسب إلاّ طاعته، فالنّاس في ذات اللّه سواء، اللّه ربّهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمرَ الذي رأيتَ رسول اللّه، ﷺ، يلزمه فالزمْه. ووصّاه بالصبر وسرّحه فيمن اجتمع إليه من نفر المسلمين، وهم أربعة آلاف، فيهم حُمَيْضة بن النعمان بن حميضة على بارق، وعمرو بن معدي كرب، وأبو سَبْرة بن ذؤيب على مَذْحِج، ويزيد بن الحارث الصُّدائيّ على صُداء، وحَبيب ومُسْلية وبِشر بن عبد اللّه الهلالي في قيس عيلان.

وخرج إليهم عمر فمرّ بفتية من السّكون مع حُصين بن نُمَير ومعاوية ابن حُدَيْج دُلْم سِباطٍ فأعرض عنهم، فقيل له: ما لك وهؤلاء؟ فقال: ما مرّ بي قوم من العرب أكره إليّ منهم. ثمّ أمضاهم فكان بعدُ يذكرهم بالكراهة، فكان منهم سُودان بن حُمْران قتل عثمان، وابن مُلْجَم قتل (٤٥٢/٢) عليّاً، ومعاوية بن حُدَيْج جرّد السيف في المسلمين يُظهر الأخذ بثأر عثمان، وحصين بن نمير كان أشدّ النّاس في قتال عليّ.

ثمّ إنّ عمر أخذ بوصيّتهم ويعظتهم ثمّ سيّرهم، وأمدّ عمر سعداً بعد خروجه بألفَيْ يمانيّ وألفَيْ نجديّ، وكان المثنّى بن حارثة في ثمانية آلاف، وسار سعد والمثنّى ينتظر قدومه، فمات المثنّى قبل قدوم سعد من جراحة انتفضت عليه، واستخلف على النّاس بشير بن الخصاصيّة وسعد يومئذٍ بزَرود وقد اجتمع معه ثمانية آلاف، وأمر عمر بني أسد أن ينزلوا على حدّ أرضهم بين الحَزْن والبسيطة، فنزلوا في ثلاثة آلاف، وسار سعد إلى شراف فنزلها ولحقه بها الأشعث بن قيس في ألف وسبعمائة من أهل اليمن، فكان جميع مَنْ شهد القادسيّة بضعة وثلاثين ألفاً، وجميع مَنْ قُسم عليه فيئها نحو من ثلاثين ألفاً.

ولم يكن أحد أجرأ على أهل فارس من ربيعة، فكان المسلمون يسمّونهم ربيعة الأسد إلى ربيعة الفَرَس، ولم يَدَعْ عمر ذا رأي ولا شرف ولا خطيباً ولا شاعراً ولا وجيهاً من وجوه النّاس إلاّ سيّره إلى سعد. وجمع سعد مَن كان بالعراق من المسلمين من عسكر المثنّى، فاجتمعوا بشراف، فعبّأهم وأمّر الأمراء وعرّف على كلّ عشرة عريفاً، وجعل على الرايات رجالاً من أهل السابقة، وولّى الحروب رجالاً على ساقتها ومقدّمتها ورَجْلها وطلائعها ومجنّباتها، ولم يفصل إلاّ بكتاب عمر، فجعل على المقدّمة زُهْرة بن عبد اللّه بن قَتادة بن الحَوِيّة، فانتهى إلى العُذَيْب، وكان من أصحاب رسول اللّه، ﷺ، وجعل على الميمنة عبد اللّه بن المُعْتَمّ، وكان من الصحابة أيضاً، واستعمل على الميسرة شُرَحْبيل بن السِّمْط الكنديّ، وجعل خليفته خالد بن عُرْفُطة حليف بني عبد شمس، وجعل عاصم بن عمرو التميميّ على الساقة، وسَواد بن مالك التميميّ على الطلائع، وسلمان بن ربيعة الباهليّ (٤٥٣/٢) على المجرّدة، وعلى الرَّجّالة حَمّال بن مالك الأسديّ، وعلى الركبان عبد اللّه ابن ذي السّهمَين الحنفيّ، وجعل عمر على القضاء بينهم

عبد الرحمن بن ربيعة الباهليّ، وعلى قسمة الفيء أيضاً، وجعل رائدهم وداعيتهم سلمان الفارسيّ، والكاتب زياد بن أبيه.

وقدم المعنّى بن حارثة الشيبانيّ وسَلْمَى بنت خَصَفَة زوج المثنّى بشراف، وكان المعنّى بعد موت أخيه قد سار إلى قابوس بن قابوس بن المنذر بالقادسيّة، وكان قد بعثه إليها الفرس يستنفر العرب، فسار إليه المعنّى فقفله فأنامه ومَنْ معه، ورجع إلى ذي قار وسار إلى سعد يُعلمه برأي المثنّى له وللمسلمين يأمرهم أن يقاتلوا الفرس على حدود أرضهم على أدنى حَجَر من أرض العرب ولا يقاتلوهم بعقر دارهم، فإن يُظْهر اللّه المسلمين فلهم ما وراءهم، وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة ثمّ يكونوا أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يردّ اللّه الكرّة عليهم. فترحّم سعد ومَنْ معه على المثنّى، وجعل المعنّى على عمله وأوصى بأهل بيته خيراً، ثمّ تزوّج سعد سَلْمَى زوج المثنّى. وكان معه تسعة وتسعون بدريّاً وثلاثمائة وبضعة عشر ممّن كانت له صحبة فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك، وثلاثمائة ممّن شهد الفتح، وسبعمائة من أبناء الصحابة.

وقدم على سعد كتاب عمر بمثل رأي المثنّى، وكتب عمر أيضاً إلى أبي عبيدة ليصرف أهل العراق ومن اختار أن يلحق بهم إلى العراق. وكان للفرس رابطة بقصر ابن مُقاتل عليها النعمان بن قَبيصة الطائي، وهو ابن عمّ قَبيصة بن إياس صاحب الحيرة، فلمّا سمع بمجيء سعد سأل عنه وعنده عبد اللّه بن سِنان بن خُزَيم الأسديّ، فقيل: رجل من قريش. فقال: واللّه لأحادنّه (٤٥٤/٢) القتال فإنّ قريشاً عبيد مَنْ غلب، واللّه لا يخرجون من بلادهم إلاّ بخفَّين! فغضب عبد اللّه بن سِنان من قوله وأمهله حتى دخل قبّته فقتله ولحق بسعد وأسلم.

وسار سعد من شِراف فنزل العُذَيْب، ثمّ سار حتى نزل القادسيّة بين العَتيق والخندق بحيال القنطرة وقُدَيْس أسفل منها بميل. وكتب عمر إلى سعد: إنّي أُلقيَ في روعي أنّكم إذا لقيتم العدوّ هزمتموهم، فمتى لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو بإشارة أو بلسان كان عندهم أماناً فأجروا له ذلك مجرى الأمان والوفاء، فإنّ الخطأ بالوفاء بقيّة، وإنّ الخطأ بالغدر هلكة، وفيها وهنكم وقوّة عدوّكم. فلمّا نزل زُهْرة في المقدّمة وأمسى بعث سريّة في ثلاثين معروفين بالنجدة وأمرهم بالغارة على الحيرة، فلمّا جازوا السّيلحين سمعوا جلبة فمكثوا حتى حاذوهم، وإذا أخت آزاذُمَرْد بن آزاذبه مرزبان الحيرة تُزَفّ إلى صاحب الصُّنَّين، وهو من أشراف العجم، فحمل بُكَير بن عبد اللّه اللّيثيّ أمير السريّة على شيرزاد بن آزاذبه فدقّ صلبه وطارت الخيل على وجوهها وأخذوا الأثقال وابنة آزاذبه في ثلاثين من الدهاقين ومائة من التوابع ومعهم ما لا يُدرى قيمته، فاستاق ذلك ورجع فصبّح سعداً بُعذَيْب الهجانات، فقسم ذلك على المسلمين وترك الحريم بالعُذيب ومعها خيل تحوطها، وأمّر عليهم غالب بن عبد اللّه اللّيثيّ.

ونزل سعد القادسيّة وأقام بها شهراً لم يأته من الفرس أحد. فأرسل سعد عاصمَ بن عمرو إلى مَيْسان، فطلب غنماً أو بقراً فلم يقدر عليها وتحصّن منه مَنْ هناك، فأصاب عاصم رجلاً بجانب أجمة، فسأله عن البقر والغنم، فقال: ما أعلم. فصاح ثور من الأجمة: كذب عدوّ اللّه، ها نحن! فدخل فاستاق البقر فأتى بها العسكر قسمه سعد على النّاس فأخصبوا أياماً. فبلغ ذلك الحجّاج في (٤٥٥/٢) زمانه فأرسل إلى جماعة فسألهم، فشهدوا أنّهم سمعوا ذلك وشاهدوه، فقال: كذبتم. قالوا: ذلك إن كنتَ شهدتَها وغِبْنا عنها. قال: صدقتم، فما كان النّاس يقولون في ذلك؟ قالوا: وإنّه يُستدلّ بها على رضى اللّه وفتح عدوّنا. فقال: ما يكون هذا إلاّ والجمع أبرار أتقياء. قالوا: ما ندري ما أجنّت قلوبهم، فأمّا ما رأينا قطّ أزهد في دنيا منهم ولا أشدّ بغضاً لها، ليس فيهم جبان ولا عار ولا غدار. وذلك يوم الأباقر.

وبثّ سعد الغارات والنهب بين كسكر والأنبار، فحووا من الأطعمة ما استكفوا به زماناً؛ وكان بين نزول خالد بن الوليد العراق وبين نزول سعد القادسيّة والفراغ منها سنتان وشيء، وكان مقام سعد بالقادسيّة شهرَيْن وشيئاً حتى ظفر.

فاستغاث أهلُ السواد إلى يزدجرد وأعلموه أنّ العرب قد نزلوا القادسيّة ولا يبقى على فعلهم شيء وقد أخربوا ما بينهم وبين الفرات ونهبوا الدوابّ والأطعمة، وإن أبطأ الغياث أعطيناهم بأيدينا، وكتب إليه بذلك الذين لهم الضياع بالطفّ وهيّجوه على إرسال الجنود. فأرسل يزدجرد إلى رستم، فدخل عليه فقال: إنّي أريد أن أوجّهك في هذا الوجه، فأنت رجل فارس اليوم وقد ترى ما حلّ بالفرس ممّا لم يأتهم مثله، فأظهر له الإجابة ثمّ قال له: دَعْني فإنّ العرب لا تزال تهاب العجم ما لم تضربهم بي، ولعلّ الدولة أن تثبت بي إذا لم أحضر الحرب فيكون الله قد كفى ونكون قد أصبنا المكيدة والرأي في الحرف أنفع من بعض الظفر، والأناة خير من العجلة، وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرّة وأشدّ على عدوّنا. فأبى عليه، وأعاد رستم كلامه وقال: قد اضطرّني تضييع الرأي إلى إعظام نفسي وتزكيتها، ولو أجد من ذلك بدّاً لم أتكلّم به، فأنشدك اللّه في نفسك وملكك دَعْني أقم بعسكري (٤٥٦/٢) وأسرّح الجالينوس، فإن تكن لنا فذلك وإلاّ بعثنا غيره حتى إذا لم نجد بدّاً صبرنا لهم وقد وهّنّاهم ونحن حامون، فإنّي لا أزال مرجوّاً في أهل فارس ما لم أُهزم. فأبى إلاّ أن يسير، فخرج حتى ضرب عسكره بساباط وأرسل إلى الملك ليعفيه فأبى.

وجاءت الأخبار إلى سعد بذلك، فكتب إلى عمر، فكتب إليه

عمر: لا يكربنّك ما يأتيك عنهم واستعنْ بالله وتوكّل عليه وابعثْ إليه رجالاً من أهل المناظرة والرأي والجلد يدعونه، فإنّ الله جاعلٌ دُعاءَهم توهيناً لهم.

فأرسل سعد نفراً، منهم: النعمان بن مُقَرِّن، وبُسْر بن أبي رُهْم، وحَمَلَة بن حَوِيّة، وحَنْظلة بن الربيع، وفرات بن حيّان، وعديّ بن سُهَيْل، وعُطارد بن حاجب، والمُغيرة بن زُرارة بن النَّبّاش الأسديّ، والأشعث بن قيس، والحارث بن حسّان، وعاصم بن عمرو، وعمرو بن معدي كرب، والمغيرة بن شُعْبة، والمعنّى بن حارثة إلى يزدجرد دُعاة، فخرجوا من العسكر فقدموا على يزدجرد وطووا رستم واستأذنوا على يزدجرد فحُبسوا، وأحضر وزراءه ورستم معهم واستشارهم فيما يصنع ويقوله لهم.

واجتمع النّاس ينظرون إليهم وتحتهم خيول كلّها صُهّال، وعليهم البرود وبأيديهم السيّاط، فأذن لهم وأحضر الترجمان وقال له: سلْهم ما جاء بكم وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا؟ أمن أجل أنّنا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟ فقال النعمان بن مُقرِّن لأصحابه: إن شئتم تكلّمتُ عنكم، ومَنْ شاء آثرتُهُ. فقالوا: بل تكلّم. فقال: إنّ الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يأمرنا بالخير وينهانا عن الشرّ، ووعدَنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يدعُ قبيلة إلاّ وقاربه منها فرقة وتباعد عنه بها فرقة، ثم أمر أن ينبذ إلى مَنْ خالفه من العرب، فبدأ بهم، فدخلوا معه على وجهَين: مكره عليه فاغتبط، وطائع [أتاه] (٤٥٧/٢) فازداد، فعرفنا جميعاً فضلَ ما جاء به على الذي كنّا عليه من العداوة والضيق، ثمّ أمرَنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسّن الحسنَ وقبّح القبيح كلّه، فإن أبيتم فأمرٌ من الشرّ هو أهون من آخر شرّ منه الجزية، فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خلّفنا فيكم كتاب الله وأقمنا على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن بذلتم الجزاء قبلنا ومنعناكم، وإلاّ قاتلناكم.

فتكلّم يزدجرد فقال: إنّي لا أعلم في الأرض أمّة كانت أشقى ولا أقلّ عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم، قد كنّا نوكّل بكم قُرى الضواحي فيكفوننا أمركم، ولا تطمعوا أن تقوموا لفارس فإن كان غرر لحقكم فلا يغرنّكم منّا، وإن كان الجهد فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملّكنا عليكم ملكاً يرفق بكم.

فأسكت القوم، فقام المُغيرة بن زُرارة فقال: أيّها الملك إنّ هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم وهم أشراف يستحيون من الأشراف، وإنّما يُكرم الأشرافَ ويعظّم حقّهم الأشرافُ، وليس كلّ ما أُرسلوا به قالوه، ولا كلّ ما تكلّمتَ به أجابوك عليه، فجاوبْني لأكون الذي أبلغك وهم يشهدون على ذلك لي؛ فأمّا ما ذكرتَ من سوء الحال فهي على ما وصفتَ وأشدّ؛ ثمّ ذكر من سوء عيش العرب وإرسال الله النبيّ، ﷺ، إليهم نحو قول النعمان وقتال مَنْ خالفهم أو الجزية، ثمّ قال له: اخترْ إن شئتَ الجزية عن يدٍ وأنت صاغر، وإن شئتَ فالسيف أو تُسلم فتنْجي نفسك.

فقال: لولا أنّ الرسل لا تُقْتَل لقتلتُكم! لا شيء لكم عندي. ثمّ استدعى بوقر من تراب فقال: احملوه على أشرف هؤلاء ثمّ سوقوه حتى يخرج من (٤٥٨/٢) باب المدائن. ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أنّي مُرْسل إليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسيّة ثمّ أُورده بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم بأشدّ ممّا نالكم من سابور.

فقام عاصم بن عمرو ليأخذ التراب وقال: أنا أشرفهم، أنا سيّد هؤلاء، فحمله على عنقه وخرج إلى راحلته فركبها وأخذ التراب وقال لسعد: أبشرْ فوالله لقد أعطانا الله أقاليد ملكهم.

واشتدّ ذلك على جلساء الملك. وقال الملك لرستم، وقد حضر عنده من ساباط: ما كنتُ أرى أنّ في العرب مثل هؤلاء، ما أنتم بأحسن جواباً منهم، ولقد صدقني القوم، لقد وعدوا أمراً ليُدركنّه أو ليموتُنّ عليه، على أنّي وجدتُ أفضلهم أحمقهم حيث حمل التراب على رأسه. فقال رستم: أيّها الملك إنّه أعقلهم، وتطيّر إلى ذلك وأبصرها دون أصحابه. وخرج رستم من عند الملك غضبان كئيباً وبعث في أثر الوفد وقال لثقته: إن أدركهم الرسول تلاقَيْنا أرضنا، وإن أعجزه سلبكم الله أرضكم. فرجع الرسول من الحيرة بفواتهم، فقال: ذهب القوم بأرضكم من غير شكّ؛ وكان منجمّاً كاهناً.

وأغار سَواد بن مالك التميميّ بعد مسير الوفد إلى يزدجرد على النّجاف والفِراض؛ فاستاق ثلاثمائة دابّة من بين بغل وحمار وثور وأوقرها سمكاً، وصبّح العسكر، فقسمه سعد بين النّاس، وهذا يوم الحِيتان، وكانت السرايا تسري لطلب اللّحوم، فإنّ الطعام كان كثيراً عندهم، فكانوا يسمّون الأيّام بها: يوم الأباقر ويوم الحيتان. وبعث سعد سريّة أخرى فأغاروا فأصابوا إبلاً لبني تغلب والنّمر واستاقوها ومَن فيها، فنحر سعد الإبل وقسمها في النّاس فأخصبوا. وأغار عمرو بن الحارث على النّهرين فاستاق مواشيَ كثيرة وعاد.

وسار رستم من ساباط وجمع آلة الحرب وبعث على مقدّمته الجالينوس في أربعين ألفاً، وخرج هو في ستين ألفاً، وفي ساقته عشرون ألفاً، وجعل (٤٥٩/٢) في ميمنته الهُرْمُزان، وعلى الميسرة مِهْران بن بهرام الرازيّ، وقال رستم للملك يشجّعه بذلك: إن فتح الله علينا القوم فتوجّهنا إلى ملكهم في دارهم حتى نشغلهم في

أصلهم وبلادهم إلى أن يقبلوا المسالمة.

وكان خروج رستم من المدائن في ستّين ألف متبوع، ومسيره على ساباط في مائة ألف وعشرين ألف متبوع، وقيل غير ذلك.

ولما فصل رستم عن ساباط كتب إلى أخيه البَنْدوان: أمّا بعد فرمّوا حصونكم وأعدّوا واستعدّوا، فكأنّكم بالعرب قد قارعوكم عن أرضكم وأبنائكم، وقد كان من رأيي مدافعتهم ومطاولتهم حتى تعود سعودهم نُحوساً، فإنّ السمكة قد كدّرت الماء، وإنّ النّعائم قد حَسُنَتْ، والزُّهرة قد حَسُنَتْ، واعتدل الميزان، وذهب بهرام ولا أرى هؤلاء القوم إلاّ سيظهرون علينا ويستولون على ما يلينا، وإنّ أشدّ ما رأيت أنّ الملك قال: لتسيرُنّ أو لأسيرَنّ بنفسي.

ولقي جابان رستم على قنطرة ساباط، وكانا منجمين، فشكا إليه وقال له: ألا ترى ما أرى؟ فقال له رستم: أمّا أنا فأُقاد بخشاش وزمام ولا أجد بدّاً من الانقياد. ثمّ سار فنزل بكُوثَى، فأتى برجل من العرب، فقال له: ما جاء بكم وماذا تطلبون؟ فقال: جئنا نطلب موعود اللّه بملك أرضكم وأبنائكم إن أبيتم أن تُسلموا. قال رستم: فإن قُتلتم قبل ذلك! قال: مَنْ قُتل منّا دخل الجنّة، ومَنْ بقي منّا أنجزه اللّه ما وعده، فنحن على يقين.

فقال رستم: قد وضعنَا إذَنْ في أيديكم! فقال: أعمالكم وضعتْكم فأسلمكم اللّه بها، فلا يغرّنّك مَنْ ترى حولك، فإنّك لستَ تجاول الإنسَ إنّما تجاول القدر. فضرب عنقه ثمّ سار فنزل البِرْس، فغصب أصحابُه النّاسَ أبناءهم (٤٦٠/٢) وأموالهم ووقعوا على النساء وشربوا الخمور، فضجّ أهلها إلى رستم فقال: يا معشر فارس واللّه لقد صدق العربيّ، واللّه ما أسلَمَنا إلاّ أعمالنا، واللّه إنّ العرب مع هؤلاء وهم لهم حرب أحسن سيرةً منكم، إنّ اللّه كان ينصركم على العدوّ ويمكّن لكم في البلاد بحسن السيرة وكفّ الظلم والوفاء والإحسان، فإذا تغيّرتم فلا أرى اللّه إلاّ مغيّراً ما بكم، وما أنا بآمن من أن ينزع اللّه سلطانه منكم. وأُتي ببعض من يُشكى منه فضرب عنقه.

ثمّ سار حتى نزل الحيرة ودعا أهلها وتهدّدهم وهمّ بهم، فقال له ابن بُقَيْلة: لا تجمعْ علينا أن تعجز عن نصرتنا وتلومنا على الدفع عن أنفسنا.

ولما نزل رستم بالنّجف رأى كأنّ ملَكاً نزل من السماء ومعه النبيّ، ﷺ، وعمر، فأخذ الملَك سلاح أهل فارس فختمه ثمّ دفعه إلى النبيّ، ﷺ، فدفعه النبيّ، ﷺ، إلى عمر، فأصبح رستم حزيناً.

وأرسل سعد السرايا ورستم بالنجف والجالينوس بين النجف والسَّيْلحين، فطافت في السّواد، فبعث سواداً وحُمَيْضة في مائة مائة، فأغاروا على النّهرَين، وبلغ رستم الخبر فأرسل إليهم خيلاً، وسمع سعدٌ أنّ خيله قد وغلت فأرسل عاصم بن عمرو وجابراً الأسديّ في آثارهم، فلقيهم عاصم وخيل فارس تحوشهم ليخلّصوا ما بأيديهم، فلمّا رأته الفرس هربوا ورجع المسلمون بالغنائم. وأرسل سعدٌ عمرو بن معدي كرب وطُلَيْحة الأسدي طليعة، فسارا في عشرة، فلم يسيروا إلاّ فرسخاً وبعض آخر حتى رأوا مسالحهم وسَرْحَهم على الطفوف قد ملأوها، فرجع عمرو ومَنْ معه، وأبى طليحة إلاّ التقدّم، فقالوا له: أنت رجل في نفسك غدر ولن تُفلح بعد قتل عُكاشة بن مِحْصن، فارجعْ معنا. فأبى، فرجعوا إلى سعد فأخبروه بقرب القوم.

ومضى طليحة حتى دخل عسكر رستم وبات فيه يجوسه ويتوسّم، فهتك (٤٦١/٢) أطناب بيت رجل عليه واقتاد فرسه، ثمّ هتك على آخر بيته وحلّ فرسه، ثمّ فعل بآخر كذلك، ثمّ خرج يعدو به فرسه، ونذِر به النّاس فركبوا في طلبه، فأصبح وقد لحقه فارس من الجند فقتله طليحه ثمّ آخر فقتله ثمّ لحق به ثالث فرأى مصرع صاحبَيْه، وهما ابنا عمّه، فازداد حنقاً، فلحق طليحةَ فكرّ عليه طليحةُ وأسره ولحقه النّاس، فرأوا فارسَي الجند قد قُتلا وأُسر الثالث وقد شارف طليحةُ عسكره، فأحجموا عنه، ودخل طليحة على سعد معه الفارسيّ وأخبره الخبر، فسأل الترجمان الفارسيَّ، فطلب الأمان، فآمنه سعد، قال: أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عمّن قِبَلي، باشرتُ الحروب منذ أنا غلام إلى الآن وسمعتُ بالأبطال ولم أسمع بمثل هذا أنّ رجلاً قطع فرسخَين إلى عسكر فيه سبعون ألفاً يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة فلم يرضَ أن يخرج كما دخل حتى سلب فرسان الجند وهتك عليهم البيوت، فلمّا أدركناه قتل الأوّلَ وهو يُعَدّ بألف فارس، ثمّ الثاني وهو نظيره، ثمّ أدركتُه أنا [ولا أظُنُّ أنّني] خلّفتُ من بعدي مَنْ يعدلني وأنا الثائر بالقتيلَين فرأيتُ الموت واستؤسرتُ. ثمّ أخبره عن الفُرس وأسلم ولزم طليحة، وكان من أهل البلاء بالقادسيّة، وسمّاه سعد مسلماً.

ثمّ سار رستم وقدّم الجالينوس وذا الحاجب، فنزل الجالينوس بحيال زُهْرة من دون القنطرة، ونزل ذو الحاجب بطِيزَناباذ، ونزل رستم بالخرّارة، ثمّ سار رستم فنزل بالقادسيّة؛ وكان بين مسيره من المدائن ووصوله القادسيّة أربعة أشهر لا يقدم رجاء أن يضجروا بمكانهم فينصرفوا، وخاف أن يلقى ما لقي من قبله، وطاولهم لولا ما جعل الملك يستعجله ويُنهضه [ويقدّمه، حتى أقحمه].

وكان عمر قد كتب إلى سعد يأمره بالصبر والمطاولة أيضاً، فأعدّ للمطاولة. (٤٦٢/٢) فلمّا وصل رستم القادسيّة وقف على العتيق بحيال عسكر سعد ونزل النّاس، فما زالوا يتلاحقون حتى أعتموا من كثرتهم والمسلمون ممسكون عنهم. وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلاً، منها فيل سابور الأبيض، وكانت الفيلة تألفه،

فجعل في القلب ثمانية عشر فيلاً، وفي المجنّبتَين خمسة عشر فيلاً. فلمّا أصبح رستم من تلك الليّلة ركب وساير العتيق نحو خَفّان حتى أتى على مُنْقطع عسكر المسلمين، ثمّ صعد حتى انتهى إلى القنطرة، فتأمّل المسلمين ووقف على موضع يشرف منه عليهم ووقف على القنطرة، وأرسل إلى زُهْرة فوافقه، فأراده على أن يصالحه ويجعل له جُعْلاً على أن ينصرفوا عنه من غير أن يصرّح له بذلك بل يقول له: كنتم جيراننا وكنّا نُحْسن إليكم ونحفظكم، ويخبره عن صنيعهم مع العرب.

فقال له زُهْرة: ليس أمرنا أمر أولئك، إنّا لم نأتكم لطلب الدنيا إنّما طَلبتنا وهمّتنا الآخرة، وقد كنّا كما ذكرتَ إلى أن بعثَ اللّه فينا رسولاً فدعانا إلى ربّه فأجبناه، فقال لرسوله: إنّي سلّطتُ هذه الطائفة على مَنْ لم يدِنْ بديني، فأنا منتقم به منهم وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرّين به، وهو دين الحقّ لا يرغب عنه أحد إلاّ ذلّ، ولا يعتصم به أحد إلاّ عزّ.

فقال له رستم: ما هو؟ قال: أمّا عموده الذي لا يصلح إلاّ به فشهادة أن لا إله إلاّ اللّه وأنّ محمّداً رسول اللّه. قال: وأيّ شيء أيضاً؟ قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة اللّه، والنّاس بنو آدم وحوّاء إخوة لأب وأمّ. قال: ما أحسن هذا! [ثمّ] قال رستم: أرأيتَ إن أجبتُ إلى هذا ومعي قومي كيف يكون أمركم، أترجعون؟ قال: إي واللّه. قال: صدقتَني، أما إنّ أهل فارس منذ ولي أردشير لم يَدَعوا أحداً يخرج من عمله من السُّفلة، كانوا يقولون إذا خرجوا من أعمالهم: تعدّوا طَوْرَهم وعادوا أشرافهم. فقال زُهْرة: نحن خير النّاس للنّاس، فلا نستطيع أن نكون كما تقولون بل نطيع اللّه (٤٦٣/٢) في السُّفلة ولا يضرّنا مَنْ عصى اللّه فينا.

فانصرف عنه ودعا رجال فارس فذاكرهم هذا فأنفوا. فأرسل إلى سعد: أن ابعثْ إلينا رجلاً نكلّمه ويكلّمنا. فدعا سعدٌ جماعة ليرسلهم إليهم. فقال له ربْعيّ بن عامر: متى نأتهم جميعاً يروا أنّا قد احتفلنا بهم فلا تزدْهم على رجل.

فأرسله وحده، فسار إليهم، فحبسوه على القنطرة. وأُعلم رستم بمجيئه فأظهر زينته وجلس على سرير من ذهب وبسط البُسط والنمارق والوسائد المنسوجة بالذهب، وأقبل ربعيّ على فرسه وسيفه في خرقة ورمحه مشدود بعصب وقدّ، فلمّا انتهى إلى البُسط قيل له: انزلْ، فحمل فرسه عليها ونزل وربطها بوسادتَين شقّهما وأدخل الحبل فيهما، فلم ينهوه وأروه التهاون، وعليه درع، وأخذ عباءة بعيره فتدرّعها وشدّها على وسطه. فقالوا: ضَعْ سلاحك. فقال: لم آتِكم فأضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتموني. فأخبروا رستم، فقال: ائذنوا له، فأقبل يتوكّأ على رمحه ويقارب خطوه، فلم يَدَعْ لهم نمرقاً ولا بساطاً إلاّ أفسده وهتكه. فلمّا دنا من رستم جلس على الأرض وركز رمحه على البُسط، فقيل له: ما حملك على هذا؟ قال: إنّا لا نستحبّ القعود على زينتكم. فقال له ترجمان رستم، واسمه عَبُود من أهل الحيرة: ما جاء بكم؟ قال: اللّه جاء بنا، وهو بعثنا لنُخْرج مَنْ يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلَنا بدينه إلى خلقه، فمَنْ قبله قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه دوننا، ومَنْ أبى قاتلناه حتى نُفْضي إلى الجنّة أو الظفر. فقال رستم: قد سمعنا قولكم فهل لكم أن تؤخّروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟ قال: نعم، وإنّ ممّا سنّ لنا رسول اللّه، ﷺ، أن لا نمكّن الأعداء أكثر من ثلاث، فنحن متردّدون عنكم ثلاثاً، فانظر في أمرك واختَرْ واحدة من ثلاث بعد الأجل: إمّا الإسلام (٤٦٤/٢) وندعك وأرضك، أو الجزاء فنقبل ونكفّ عنك وإن احتجتَ إلينا نصرناك، أو المنابذة في اليوم الرابع إلاّ أن تبدأ بنا، أنا كفيل بذلك عن أصحابي. قال: أسيّدهم أنت؟ قال: لا ولكنّ المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم.

فخلا رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم كلاماً قطُّ أعزّ وأوضح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا: معاذ اللّه أن نميل إلى دين هذا الكلب! أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويحكم! لا تنظروا إلى الثياب ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إنّ العرب تستخفّ باللّباس وتصون الأحساب، ليسوا مثلكم.

فلمّا كان من الغد أرسل رستم إلى سعد: أن ابعثْ إلينا ذلك الرجل. فبعث إليهم حُذَيْفة بن مِحْصن، فأقبل في نحو من ذلك الزيّ ولم ينزل عن فرسه ووقف على رستم راكباً. قال له: انزلْ. قال: لا أفعل. فقال له: ما جاء بك ولم يجئ الأوّل؟ قال له: إنّ أميرنا يحبّ أن يعدل بيننا في الشِّدّة والرخاء، وهذه نوبتي. فقال: ما جاء بكم؟ فأجابه مثل الأوّل. فقال رستم: أو الموادعة إلى يوم ما؟ قال: نعم، ثلاثاً من أمس. فردّه وأقبل على أصحابه وقال: ويحكم أما ترون ما أرى؟ جاءنا الأول بالأمس فغلبَنا على أرضنا وحقّر ما نعظّم وأقام فرسه على زِبْرجنا، وجاء هذا اليوم فوقف علينا وهو في يُمْن الطائر يقوم على أرضنا دوننا.

فلمّا كان الغد أرسل: ابعثوا إلينا رجلاً. فبعث المُغيرةَ بن شُعْبة، فأقبل إليهم وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبُسطهم على غلوة لا يوصل إلى صاحبهم حتى يمشي عليها، فأقبل المُغيرةُ حتى جلس مع رستم على سريره، فوثبوا عليه وأنزلوه ومعكوه، وقال: قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى (٤٦٥/٢) قوماً أسفه منكم، إنّا معشر العرب لا نستعبد بعضنا بعضاً، فظننتُ أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، فكان أحسن من الذي صنعتم أن تُخبروني أنّ بعضكم أرباب بعض، فإنّ هذا الأمر

لا يستقيم فيكم ولا يصنعه أحدٌ، وإنّي لم آتِكم ولكن دعوتموني اليوم، علمتُ أنّكم مغلّبون وأنّ ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول. فقالت السُّفلة: صدق واللّه العربيّ. وقالت الدهاقين: واللّه لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا ينزعون إليه، قاتل اللّه أوّلينا حين كانوا يصغّرون أمر هذه الأمّة!

ثمّ تكلّم رستم فحمد قومه وعظّم أمرهم وقال: لم نزل متمكّنين في البلاد ظاهرين على الأعداء أشرافاً في الأمم، فليس لأحد مثل عزّنا وسلطاننا، نُنصر عليهم ولا يُنصرون علينا إلاّ اليوم واليومين والشهر للذنوب، فإذا انتقم اللّه منّا ورضي علينا ردّ لنا الكرّة على عدوّنا، ولم يكن في الأمم أمّة أصغر عندنا أمراً منكم، كنتم أهل قشفٍ ومعيشةٍ سيّئة لا نراكم شيئاً، وكنتم تقصدوننا إذا قحطت بلادكم فنأمر لكم بشيء من التمر والشعير ثمّ نردّكم، وقد علمتُ أنّه لم يحملكم على ما صنعتم إلاّ الجهد في بلادكم، فأنا آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم، وآمر لكلّ منكم بوِقر تمر وتنصرفون عنّا، فإنّي لستُ أشتهي أن أقتلكم.

فتكلم المغيرة فحمد اللّه وأثنى عليه وقال: إنّ اللّه خالق كلّ شيء ورازقه، فمَن صنع شيئاً فإنّما هو يصنعه، وأمّا الذي ذكرتَ به نفسك وأهل بلادك فنحن نعرفه، فاللّه صنعه بكم ووضعه فيكم وهو له دونكم، وأمّا الذي ذكرتَ فينا من سوء الحال والضيق والاختلاف فنحن نعرفه ولسنا ننكره، واللّه (٤٦٦/٢) ابتلانا به والدنيا دولٌ، ولم يزل أهلُ الشدائد يتوقعون الرخاء حتى يصيروا إليه، ولم يزل أهل الرخاء يتوقّعون الشدائد حتى تنزل بهم، ولو شكرتم ما آتاكم اللّه لكان شكركم يقصر عمّا أوتيتم، وأسلمكم ضُعْف الشكر إلى تغيّر الحال، ولو كنّا فيما ابتُلينا به أهل كفر لكان عظيم ما ابتُلينا به مستجلباً من اللّه رحمةً يرفّه بها عنّا؛ إنّ اللّه تبارك وتعالى بعث فينا رسولاً. ثمّ ذكر مثل ما تقدّم من ذكر الإسلام والجزية والقتال، وقال له: وإنّ عيالنا قد ذاقوا طعام بلادكم، فقالوا: لا صبرَ لنا عنه.

فقال رستم: إذا تموتون دونها. فقال المغيرة: يدخل مَن قُتل منّا الجنّة ومن قُتل منكم النّار، ويظفر مَنْ بقي منّا بمن بقي منكم.

فاستشاط رستم غضباً ثمّ حلف أن لا يرتفع الصبح غداً حتى نقتلهم أجمعين. وانصرف المغيرة وخلص رستم بأهل فارس وقال: أين هؤلاء منكم! هؤلاء واللّه الرجال، صادقين كانوا أم كاذبين، واللّه لئن كان بلغ من عقلهم وصونهم لسرّهم أن لا يختلفوا فما قوم أبلغ لما أرادوا منهم، ولئن كانوا صادقين فما يقوم لهؤلاء شيء! فلجّوا وتجلّدوا.

فأرسل رستم مع المغيرة وقال له: إذا قطع القنطرة فأعلمه أنّ عينه تُفقأ غداً، فأعلمه الرسول ذلك؛ فقال المغيرة: بشّرتني بخير وأجر، ولولا أن أجاهد بعد هذا اليوم أشباهكم من المشركين لتمنّيتُ أنّ الأخرى ذهبت. فرجع إلى رستم فأخبره. فقال: أطيعوني يا أهل فارس، إنّي لأرى للّه فيكم نقمة لا تستطيعون ردّها.

ثمّ أرسل إليه سعدٌ بقيّة ذوي الرأي فساروا، وكانوا ثلاثة، إلى رستم، (٤٦٧/٢) فقالوا له: إنّ أميرنا يدعوك إلى ما هو خيرٌ لنا ولك، العافية أن تقبل ما دعاك إليه ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك وداركم لكم وأمركم فيكم وما أصبتم كان زيادة لكم دوننا وكنّا عوناً لكم على أحد إن أرادكم، فاتّق اللّه ولا يكونَنّ هلاك قومك على يدك، وليس بينك وبين أن تَغبط بهذا الأمر إلاّ أن تدخل فيه وتطرد به الشيطان عنك.

فقال لهم: إنّ الأمثال أوضح من كثير من الكلام، إنّكم كنتم أهل جهد وقشفٍ لا تنتصفون ولا تمتنعون فلم نُسئ جواركم وكنّا نميركم ونُحسن إليكم، فلمّا طعمتم طعامنا وشربتم شرابنا وصفتم لقومكم ذلك ودعوتموهم ثمّ أتيتمونا، وإنّما مثلكم ومثلنا كمثل رجل كان له كَرْم فرأى فيه ثعلباً فقال: وما ثعلب! فانطلق الثعلب فدعا الثعالب إلى ذلك الكرم، فلمّا اجتمعوا إليه سدّ صاحب الكرم النقب الذي كنّ يدخلن منه فقتلهنّ؛ فقد علمتُ أنّ الذي حملكم على هذا الحرصُ والجهدُ، فارجعوا ونحن نميركم، فإنّي لا أشتهي أن أقتلكم، ومَثلكم أيضاً كالذباب يرى العسل فيقول: مَنْ يوصلني إليه وله درهمان؟ فإذا دخله غرق ونشِب، فيقول: مَنْ يُخرجني وله أربعة دراهم؟ وقال أيضاً: إنّ رجلاً وضع سلّة وجعل طعاماً فيها فأتى الجرذان فخرقن السلّة فدخلن فيها، فأراد سدّها فقيل له: لا تفعل إذَنْ يخرقنه، ولكن انقبْ بحياله ثمّ اجعلْ [فيها] قصبة مجوّفة فإذا دخلها الجرذان وخرجن منها فاقتل كلّ ما خرج منها؛ وقد سددتُ عليكم [فإيّاكم] أن تقتحموا القصبة فلا يخرج منها أحدٌ إلاّ قُتل، فما دعاكم إلى ما صنعتم ولا أرى عدداً ولا عُدّة!

قال: فتكلّم القوم وذكروا سوء حالهم وما منّ اللّه به عليهم من إرسال رسوله واختلافهم أوّلاً ثمّ اجتماعهم على الإسلام، وما أمرهم به من الجهاد، (٤٦٨/٢) وقالوا: وأمّا ما ضربتَ لنا من الأمثال فليس كذلك ولكن إنّما مثلكم كمثل رجل غرس أرضاً واختار لها الشجر وأجرى إليها الأنهار وزيّنها بالقصور وأقام فيها فلاّحين يسكنون قصورها ويقومون على جنّاتها، فخلا الفلاّحون في القصور على ما لا يحبّ فأطال إمهالهم فلم يستحيوا، فدعا إليها غيرهم وأخرجهم منها، فإن ذهبوا عنها تخطّفهم النّاس وإن أقاموا فيها صاروا خولاً لهؤلاء فيسومونهم الخسف أبداً؛ واللّه لو لم يكن ما نقول حقّاً ولم يكن إلاّ الدنيا لما صبرنا عن الذي نحن فيه من لذيذ عيشكم ورأينا من زِبْرِجكم ولقارعناكم عليه!

فقال رستم: أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم؟ فقالوا: بل اعبروا

إلينا.

ورجعوا من عنده عشيّاً، وأرسل سعد إلى النّاس أن يقفوا مواقفهم، وأرسل إليهم: شأنكم والعبور، فأرادوا القنطرة فقال: لا ولا كرامة! أمّا شيء غلبناكم عليه فلن نردّه عليكم. فباتوا يَسْكُرون العَتيق حتى الصباح بالتراب والقصب والبراذع حتى جعلوه طريقاً، واستتمّ بعدما ارتفع النهار.

ورأى رستم من اللّيل كأنّ ملَكاً نزل من السماء فأخذ قسيّ أصحابه فختم عليها ثمّ صعد بها إلى السماء، فاستيقظ مهموماً واستدعى خاصّته فقصّها عليهم وقال: إنّ اللّه لَيَعِظنا لو اتّعظنا. ولما ركب رستم ليعبر كان عليه درعان ومغفر، وأخذ سلاحه ووثب فإذا هو على فرسه لم يضع رجله في الركاب، وقال: غداً ندقّهم دقّاً! فقال له رجل: إن شاء اللّه. فقال: وإن لم يشأ! ثمّ قال: إنّما ضغا الثعلب حين مات الأسد، يعني كسرى، وإنّي أخشى أن تكون هذه سنة القرود! فإنّما قال هذه الأشياء توهيناً للمسلمين عند الفرس، وإلاّ فالمشهور عنه الخوف من المسلمين، وقد أظهر ذلك إلى من يثق به. (٤٦٩/٢)

ذكر يوم أرْماث

لما عبر الفرس العتيق جلس رستم على سريره وضرب عليه طيارة وعبّى في القلب ثمانية عشر فيلاً عليها صناديق ورجال وفي المجنّبتَين ثمانية وسبعة، وأقام الجالينوس بينه وبين ميمنته، والفيرزان بينه وبين ميسرته، وكان يزدجرد قد وضع بينه وبين رستم رجالاً على كلّ دعوة رجلاً، أوّلهم على باب إيوانه وآخرهم مع رستم، فكلّما فعل رستم شيئاً قال الذي معه للذي يليه: كان كذا وكذا، ثمّ يقول الثاني ذلك للذي يليه، وهكذا إلى أن ينتهي إلى يزدجرد في أسرع وقت. وأخذ المسلمون مصافّهم. وكان بسعد دماميل وعرق النسا فلا يستطيع الجلوس، انّما هو مكبّ على وجهه في صدره وسادة على سطح القصر يشرف على النّاس والصفّ في أصل حائطه، لو أعْرَاهُ الصفّ فُواق ناقةٍ لأُخذ برُمّته، فما كَرَثَهُ هولُ تلك الأيّام شجاعة، وذكر ذلك النّاس، وعابه بعضهم بذلك فقال:

نُقاتل حتى أنزَلَ اللّه نَصرَهُ ... وسعدٌ بباب القادسيّة مُعْصِمُ
فأبْنا وَقد آمَتْ نساءٌ كَثيرَةٌ ... وَنسوَةُ سَعدٍ لَيسَ فيهنّ أيّمُ

فبلغت أبياته سعداً فقال: اللهمّ إن كان هذا كاذباً وقال الذي قاله رياء وسمعةً فاقطعْ عني لسانه! فإنّه لواقفٌ في الصّفّ يومئذ أتاه سهم غرب فأصاب لسانه فما تكلّم بكلمة حتى لحق باللّه تعالى. فقال جرير بن عبد اللّه نحو ذلك أيضاً، وكذلك غيره، ونزل سعدٌ إلى النّاس فاعتذر إليهم وأراهم ما به من القروح في فخذَيه وأليَتَيه، فعذره النّاس وعلموا حاله، ولما عجز عن

(٤٧٠/٢)الركوب استخلف خالدَ بن عُرْفُطة على النّاس، فاختُلف عليه فأخذ نفراً ممّن شغب عليه فحبسهم في القصر، منهم: أبو مِحْجن الثقفيّ، وقيّدهم، وقيل: بل كان حبس أبي مِحْجن بسبب الخمر، وأعلم النّاس أنّه قد استخلف خالداً وإنّما يأمرهم خالد، فسمعوا وأطاعوا، وخطب النّاسَ يومئذٍ، وهو يوم الاثنين من المحرّم سنة أربع عشرة، وحثّهم على الجهاد وذكرهم ما وعدهم اللّه من فتح البلاد وما نال من كان قبلهم من المسلمين من الفرس، وكذلك فعل أمير كلّ قوم، وأرسل سعد نفراً من ذوي الرأي والنجدة، منهم: المُغيرة وحُذَيْفة وعاصم وطُلَيْحة وقيس الأسديّ وغالب وعمرو بن معدي كرب وأمثالهم، ومن الشعراء: الشمّاخ والحُطيْئة وأوس بن مَغْراء وعبدة بن الطبيب وغيرهم، وأمرهم بتحريض النّاس على القتال، ففعلوا.

وكان صفّ المشركين على شفير العتيق، وكان صفّ المسلمين مع حائط قُدَيْس والخندق، فكان المسلمون والمشركون بين الخندق والعتيق، ومع الفرس ثلاثون ألف مُسلسل، وأمر سعد النّاس بقراءة سورة الجهاد، وهي الأنفال، فلمّا قُرئت هشّت قلوب النّاس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها. فلمّا فرغ القرّاء منها قال سعد: الزموا مواقفكم حتى تصلّوا الظهر، فإذا صلّيتم فإنّي مكبّر تكبيرة فكبّروا واستعدّوا، فإذا سمعتم الثانية فكبّروا والبسوا عُدّتكم، ثمّ إذا كبّرتُ الثالثة فكبّروا ولينشط فرسانكم النّاس، فإذا كبّرتُ الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوّكم وقولوا لا حول ولا قوّة إلاّ باللّه. فلمّا كبّر سعد الثالثة برز أهل النجدات فأنشبوا القتال، وخرج إليهم من الفرس أمثالهم، فاعتوروا الطعن والضرب، وقال غالب بن عبد اللّه الأسديّ:(٤٧١/٢)

قد علمتْ واردة المَشائح ... ذاتُ اللّبان والبيان الواضح
أنّي سِمامُ البَطَل المسالح ... وفارجُ الأمرِ المهمّ الفادح

فخرج إليه هرمز، وكان من ملوك الباب، وكان متوّجاً، فأسرّه غالب، فجاء به سعداً ورجع وخرج عاصم وهو يقول:

قد علمَتْ بَيْضاءُ صَفراءُ اللّبَبْ ... مثلُ اللُّجَينِ إذ تَغَشّاهُ الذّهَبْ
أنّي امرُؤٌ لا مَنْ يَعيبُهُ السّبَبْ ... مثلي على مثلك يُغريه العَتَبْ

فطارد فارسيّاً فانهزم، فاتبعه عاصم حتى خالط صفّهم، فحموه، فأخذ عاصم رجلاً على بغل وعاد به، وإذا هو خبّاز الملك معه من طعام الملك وخبيصٌ، فأتى به سعداً فنفّله أهل موقفه. وخرج فارسيّ فطلب البراز، فبرز إليه عمرو بن معدي كرب، فأخذه وجلد به الأرض، فذبحه وأخذ سوارَيْه ومنطقته. وحملت الفيلة عليهم ففرّقت بين الكتائب، فنفرت الخيل، وكانت الفرس قد قصدت بَجيلة بسبعة عشر فيلاً، فنفرت خيل بجيلة، فكادت بجيلة تهلك لنفار خيلها عنها وعمّن معها، وأرسل سعد إلى بني أسد أن دافعوا عن بجيلة وعمّنْ معها من النّاس. فخرج طُلَيْحة بن خُوَيْلد وحمّال

بن مالك في كتائبهما فباشروا الفيلة حتى عدلها ركبانها. وخرج إلى طُلَيْحة عظيم منهم، فقتله طليحةُ، وقام الأشعث بن قيس في كِندة فقال: يا معشر كِندة للّه درّ بني أسد أيّ فَريّ يَفْرون وأيّ هذٍّ يَهُذُّون عن (٤٧٢/٢) موقفهم، أغنى كلّ قوم ما يليهم، وأنتم تنتظرون مَن يكفيكم، أشهد ما أحسنتم أُسوة قومكم من العرب. فنهد ونهدوا معه، فأزالوا الذين بإزائهم. فلمّا رأى الفرس ما يلقى النّاس والفيلة من أسد رموهم بحدّهم وحملوا عليهم وفيهم ذو الحاجب والجالينوس، والمسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة من سعد، فاجتمعت حلبة فارس على أسد ومعهم تلك الفيلة فثبتوا لهم، وكبّر سعد الرابعة وزحف إليهم المسلمون ورحا الحرب تدور على أسد، وحملت الفيول على الميمنة والميسرة فكانت الخيول تحيد عنها.

فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو التميميّ فقال: يا معشر بني تميم، أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة؟ قالوا: بلى واللّه! ثمّ نادى في الرجال من قومه رُماة وآخرين لهم ثقافة فقال: يا معشر الرماة، ذبّوا ركبان الفيلة عنهم بالنّبل. وقال: يا معشر أهل الثقافة، استدبروا الفيلة فقطّعوا وُضُنها، وخرج يحميهم ورحا الحرب تدور على أسد وقد جالت الميمنة والميسرة غير بعيد، وأقبل أصحاب عاصم على الفيلة فأخذوا بأذناب توابيتها فقطّعوا وُضُنها وارتفع عُواؤهم فما بقي لهم فيل إلاّ أوى وقُتل أصحابها ونُفّس عن أسد وردّوا فارساً عنهم إلى مواقفهم واقتتلوا حتى غربت الشمس ثمّ حتى ذهبت هدأة من اللّيل، ثمّ رجع هؤلاء وهؤلاء، وأُصيب من أسد تلك العشيّة خمسمائة، وكانوا ردءاً للنّاس، وكان عاصم حامية للنّاس، وهذا اليوم الأوّل، وهو يوم أرماث؛ فقال عمرو بن شأس الأسديّ:

جَلَبْنا الخيلَ من أكنافِ نِيقٍ ... إلى كِسْرَى فوافقها رِعَالا
تركنَ لهم على الأقسامِ شَجْواً ... وبالحَفْوَين أيّاماً طِوالا

(٤٧٣/٢)

قَتَلْنا رُستماً وبَنِيهِ قَسْراً ... تُثير الخَيلُ فَوْقَهُمُ الهِيالا

الأبيات. وكان سعد قد تزوّج سَلْمى امرأة المثنّى بن حارثة الشيبانيّ بعده بشَراف، فلمّا جال النّاس يوم أرماث وكان سعد لا يطيق الجلوس، جعل سعد يتململ جزعاً فوق القصر، فلمّا رأت سَلمى ما يصنع الفرس قالت: وامثنّياه! ولا مثنّى للخيل اليوم! قالت ذلك عند رجل ضجر ممّا يرى في أصحابه ونفسه، فلطم وجهها وقال: أين المثنّى عن هذه الكتيبة التي تدور عليها الرحا! يعني أسداً وعاصماً. فقالت: أغيرةً وجبناً؟ فقال: واللّه لا يعذرني اليوم أحد إن لم تعذريني وأنت ترين ما بي! فتعلّقها النّاس لم يبقَ شاعر إلاّ اعتد بها عليه، وكان غير جبان ولا ملوم.

ذكر يوم أغواث

ولما أصبح القوم وكّل سعد بالقتلى والجرحى مَن ينقلهم، فسلّم الجرحى إلى النساء ليقمن عليهم، وأمّا القتلى فدُفنوا هنالك على مشرِق، وهو وادٍ بين العُذَيْب وعين الشمس. فلمّا نقل سعد القتلى والجرحى طلعت نواصي الخيل من الشام، وكان فتح دمشق قبل القادسيّة، فلمّا قدم كتاب عمر على أبي عبيدة بن الجرّاح بإرسال أهل العراق سيّرهم وعليهم هاشم بن عُتبة بن أبي وقّاص، وعلى مقدّمته القعقاع بن عمرو التميميّ، فتعجّل القعقاع فقدم على النّاس صبيحة هذا اليوم، وهو يوم أغواث، وقد عهد إلى أصحابه أن يتقطّعوا أعشاراً، وهم ألفٌ، كلّما بلغ عشرة مدى البصر سرّحوا عشرة، فقدّم أصحابه في عشرة، فأتى النّاس فسلّم عليهم وبشرهم بالجنود وحرّضهم على القتال وقال: اصنعوا كما أصنع، وطلب البراز فقالوا فيه بقول أبي بكر:(٤٧٤/٢) لا يُهْزَم جيش فيهم مثل هذا. فخرج إليه ذو الحاجب، فعرفه القعقاع فنادى: يا لثارات أبي عُبَيْد وسَليط وأصحاب الجسر! وتضاربا، فقتله القعقاع وجعلت خيله تَرِد إلى اللّيل وتنشّط النّاس، وكأن لم يكن بالأمس مصيبة، وفرحوا بقتل ذي الحاجب، وانكسرت الأعاجم بذلك.

وطلب القعقاع البراز فخرج إليه الفيرزان والبندوان، فانضمّ إلى القعقاع الحارث بن ظَبْيان بن الحارث أحد بني تيم اللات فتبارزوا، فقتل القعقاع الفيرزانَ وقتل الحارث البندوانَ، ونادى القعقاع: يا معشر المسلمين، باشروهم بالسيوف فإنّما يُحْصد النّاس بها! فاقتتلوا حتى المساء، فلم يرَ أهل فارس في هذا اليوم [شيئاً] ممّا يُعجبهم، وأكثر المسلمون فيهم القتل، ولم يقاتلوا في هذا اليوم على فيل كانت توابيتها تكسّرت بالأمس، فاستأنفوا عملها فلم يفرغوا منها حتى كان الغد.

وجعل القعقاع كلّما طلعت قطعة من أصحابه كبّر وكبّر المسلمون ويحمل ويحملون، وحمل بنو عمّ للقعقاع عشرةً عشرة على إبل قد ألبسوها وهي مجلّلة مبرقعة، وأطافت بهم خيولهم تحميهم، وأمرهم القعقاع أن يحملوها على خيل الفرس يتشبّهون بالفيلة، ففعلوا بهم هذا اليوم، وهو يوم أغواث، كما فعلت فارس يوم أرماث، فجعلت خيل الفرس تفرّ منها وركبتها خيول المسلمين. فلمّا رأى النّاس ذلك استنّوا بهم، فلقي الفرس من الإبل أعظم ممّا لقي المسلمون من الفيلة.

وحمل رجل من تميم على رستم يريد قتله فقُتل دونه. وخرج رجل من فارس يبارز، فبرز إليه الأعرف بن الأعلم العقيليّ فقتله، ثمّ برز إليه آخر فقتله، وأحاطت به فوارس منهم فصرعوه وأخذوا سلاحه، فغبّر في وجوههم (٤٧٥/٢) التراب حتى رجع إلى أصحابه. وحمل القعقاع بن عمرو يومئذٍ ثلاثين حملة، كلّما طلعت

قطعة حمل حملة وأصاب فيها وقتل، فكان آخرهم بُزُرْجُمِهْر الهمذانيّ. وبارز الأعورُ بن قُطْبَة شهريارَ سجستان فقتل كلّ واحد منهما صاحبه، وقاتلت الفرسان إلى انتصاف النهار. فلمّا اعتدل النهار تزاحف النّاس فاقتتلوا حتى انتصف اللّيل. فكانت ليلة أرماث تُدعى الهدأة، وليلة أغواث تُدْعى السواد، ولم يزل المسلمون يرون [في] يوم أغواث الظفر، وقتلوا فيه عامّة أعلامهم، وجالت فيه خيل القلب وثبت رَجْلهم، فلولا أنّ خيلهم عادت أُخذ رستم أخذاً. وبات النّاس على ما بات عليه القوم ليلة أرماث، ولم يزل المسلمون ينتمون. فلمّا سمع سعد ذلك قال لبعض مَنْ عنده: إن تمّ النّاس على الانتماء فلا توقظني فإنّهم أقوياء، وإن سكتوا ولم ينتمِ الآخرون فلا توقظني فإنّهم على السّواء، فإن سمعتَهم ينتمون فأيقظني فإنّ انتماءهم عن السُّوء.

ولما اشتدّ القتال، وكان أبو مِحْجَن قد حُبس وقُيِّد فهو في القصر، قال لسَلْمى زوج سعد: هل لكِ أن تخلّي عني وتعيريني البلقاء؟ فللّه عليّ إن سلّمني اللّه أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في قيدي. فأبت، فقال:

كَفَى حَزَناً أن تَرْدِيَ الخيلُ بالقنا ... وأُتْرَكَ مَشْدوداً عليّ وَثاقِيَا
إذا قمتُ عَنّاني الحَديدُ وأُغلقتْ ... مصاريعُ دوني قد تصمّ المُنادِيَا
وَقد كنتُ ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ ... فقد تركوني واحداً لا أخا لِيَا
وَللّهِ عَهْدٌ لا أخيسُ بعَهْدِهِ ... لئن فُرِّجتْ أن لا أزورَ الحوانِيَا

فرقّت له سلمى وأطلقته وأعطته البلقاء فرس سعد، فركبها حتى [إذا] كان (٤٧٦/٢) بحيال الميمنة كبّر ثمّ حمل على ميسرة الفرس ثمّ رجع خلف المسلمين وحمل على ميمنتهم، وكان يقصف النّاس قصفاً منكراً، وتعجّب النّاس منه وهم لا يعرفونه، فقال بعضهم: هو من أصحاب هاشم أو هاشم نفسه، وكان سعد يقول: لولا محبس أبي مِحْجَن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء. وقال بعض النّاس: هذا الخضر. وقال بعضهم: لولا أنّ الملائكة لا تباشر الحرب لقلنا إنّه ملَك. فلمّا انتصف اللّيل وتراجع المسلمون والفرس عن القتال أقبل أبو محجن فدخل القصر وأعاد رجليْه في القيد وقال:

لقد علِمَتْ ثَقيفٌ غيرَ فَخْرٍ ... بأنّا نحن أكرَمُهم سُيوفا
وأكثرُهم دُروعاً سابغاتٍ ... وَأصبرُهم إذا كرهوا الوُقُوفا
وأنا وَفدُهم في كلّ يَوْمٍ ... فإنْ عُمّوا فَمَنْ بهمُ عريفا
وَليلَةَ قادسٍ لم يشعروا بي ... وَلم أُشْعِرْ بمخرَجيَ الزُّحُوفا
فإنْ أُحْبَسْ فذلِكُمُ بلائي ... وَإنْ أُتْرَكْ أُذيقُهُمُ الحُتُوفا

فقالت له سَلْمَى: في أيّ شيء حبسك؟ فقال: واللّه ما حبسني بحرام أكلتُه ولا شربتُه ولكنّني كنت صاحب شرابٍ في الجاهليّة، وأنا امرؤ شاعر يدبّ الشعر على لساني، فقلت:

إذا متُّ فادفني إلى أصلِ كَرْمَةٍ ... تُرَوّي عِظامي بعد موتي عروقُها
وَلا تدفِنّني بالفلاةِ فإنّني ... أخافُ إذا ما متُّ أن لا أذوقَها

فلذلك حبسني. فلمّا أصبحت أتت سعداً فصالحته، وكانت مغاضبة له، وأخبرته بخبر أبي مِحْجَن، فأطلقه فقال: اذهبْ فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله. قال: لا جَرَمَ، [واللّه] لا أُجيب لساني إلى [صفة] قبيح أبداً! (٤٧٧/٢)

ذكر يوم عِماس

ثمّ أصبحوا اليوم الثالث وهم على مواقفهم، وبين الصفّين من قتلى المسلمين ألفان من جريح وميتٍ، ومن المشركين عشرة آلاف، فجعل المسلمون ينقلون قتلاهم إلى المقابر والجرحى إلى النساء، وكان النساء والصبيان يحفرون القبور، وكان على الشهداء حاجب بن زيد. وأمّا قتلى المشركين فبين الصفّين لم يُنقلوا، وكان ذلك ممّا قوّى المسلمين، وبات القعقاع تلك اللّيلة يسرّب أصحابه إلى المكان الذي فارقهم فيه وقال: إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائةً مائةً، فإن جاء هاشم فذاك وإلاّ جددتم للنّاس رجاء وجدّاً ولا يشعر به أحد. وأصبح النّاسُ على مواقفهم، فلمّا ذرّ قرن الشمس أقبل أصحاب القعقاع، فحين رآهم كبّر وكبّر المسلمون وتقدّموا وتكتّبت الكتائب واختلفوا الضرب والطعن والمدد متتابع، فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى إليهم هاشم فأُخبر بما صنع القعقاع، فعبّى أصحابه سبعين سبعين، وكان فيهم قيس بن هُبَيرة بن عبد يَغوث المعروف بقيس بن المكشوح المُراديّ، ولم يكن من أهل الأيّام إنّما كان باليرموك، فانتدب مع هاشم حتى إذا خالط القلب كبّر وكبّر المسلمون وقال: أوّل قتال المطاردة ثمّ المراماة ثمّ حمل على المشركين يقاتلهم حتى خرق صفّهم إلى العَتيق ثمّ عاد.

وكان المشركون قد باتوا يعملون توابيتهم حتى أعادوها وأصبحوا على مواقفهم، وأقبلت الرَّجّالة مع الفيلة يحمونها أن تُقطع وُضُنها، ومع الرَّجّالة فرسان يحمونهم، فلم تنفر الخيل منهم كما كانت بالأمس لأنّ الفيل إذا كان وحده كان أوحش وإذا أطافوا به كان آنس، وكان يوم عِماس من أوّله إلى (٤٧٨/٢) آخره شديداً، العربُ والعجمُ فيه سواء، ولا تكون بينهم نُقْطَة إلاّ أبلغوها يزدجردَ بالأصوات، فيبعث إليهم أهل النجدات ممّن عنده، فلولا أنّ اللّه ألهم القعقاع ما فعل في اليومَين وإلاّ كسر ذلك المسلمين.

وقاتل قيس بن المكشوح، وكان قد قدم مع هاشم، قتالاً شديداً وحرّض أصحابه، وقال عمرو بن معدي كرب: إنّي حاملٌ على الفيل ومَن حوله، لفيل بإزائه، فلا تَدَعوني أكثر من جَزر جزور، فإن تأخّرتم عني فقدتم أبا ثَور، يعني نفسه، وأين لكم مثل أبي ثور! فحمل وضرب فيهم حتى ستره الغبارُ وحمل أصحابه فأفرج المشركون عنه بعدما صرعوه، وإنّ سيفه لفي يده يصارمهم، وقد طُعن فرسه، فأخذ برجل فرس أعجميّ فلم يطق الجري، فنزل

عنه صاحبه إلى أصحابه وركب عمرو. وبرز فارسيّ فبرز إليه رجل من المسلمين يقال له شَبْر بن علقمة، وكان قصيراً، فترجّل الفارسي إليه فاحتمله وجلس على صدره ثمّ أخذ سيفه ليذبحه ومقود فرسه مشدود في منطقته، فلمّا سلّ سيفه نفر الفرس فجذبه المقود عنه وتبعه المسلم فقتله وأخذ سلبه فباعه باثني عشر ألفاً.

فلمّا رأى سعد الفيول قد فُرّقت بين الكتائب وعادت لفعلها أرسل إلى القعقاع وعاصم ابنَيْ عمرو: اكفياني الأبيض، وكانت كلّها آلفة له، وكان بإزائهما، وقال لحمّال والرُّبَيِّل: اكفياني الأجراب، وكان بإزائهما، فأخذ القعقاع وعاصم رمحين وتقدّما في خيل ورَجْل، وفعل حمّال والرُّبَيِّل مثل فعلهما، فحمل القعقاع وعاصم فوضعا رمحَيْهما في عين الفيل الأبيض فنفض ﴿٤٧٩/٢﴾ رأسه فطرح سائسه ودلّى مشفره، فضربه القعقاع فرمى به ووقع لجنبه وقتلوا مَنْ كان عليه، وحمل حمّال والرُّبَيِّل الأسديّان على الفيل الآخر فطعنه حمّال في عينه فأقعى ثمّ استوى، وضربه الرُّبَيِّل فأبان مشفره، وبصر به سائسه فبقر أنفه وجبينه بالطبرزين، فأفلت الرُّبَيِّل جريحاً، فبقي الفيل جريحاً متحيراً بين الصّفين كلّما جاء صفَّ المسلمين وخزوه وإذا أتى صفَّ المشركين نخسوه. وولّى الفيل، وكان يُدْعَى الأجرب، وقد عوّر حمّالٌ عينَيْه، فألقى نفسه في العتيق، فاتبعته الفيلة فخرقت صفَّ الأعاجم فعبرت في أثره فأتت المدائن في توابيتها، وهلك مَنْ فيها. فلمّا ذهبت الفيلة وخلص المسلمون والفرس ومال الظلّ تزاحف المسلمون فاجتلدوا حتى أمسوا وهم على السواء. فلمّا أمسى النّاس اشتدّ القتال وصبر الفريقان فخرجا على السواء.

ذكر ليلة الهرير وقتل رستم

قيل: إنّما سُمّيت بذلك لتركهم الكلام إنّما كانوا يهرّون هريراً. وأرسل سعد طُلَيْحة وعَمراً ليلة الهرير إلى مخاضة أسفل العسكر ليقوموا عليها خشية أن يأتيه القوم منها. فلمّا أتياها قال طليحة: لو خُضْنا وأتينا الأعاجم من خلفهم. قال عمرو: بل نعبر أسفل. فافترقا وأخذ طليحة وراء العسكر وكبّر ثلاث تكبيرات ثمّ ذهب وقد ارتاع أهلُ فارس وتعجّب المسلمون، وطلبه الأعاجم فلم يُدركوه.(٤٨٠/٢)

وأمّا عمرو فإنّه أغار أسفل المخاضة ورجع، وخرج مسعود بن مالك الأسديّ وعاصم بن عمرو وابن ذي البُرْدَين الهلالي وابن ذي السهمَين وقيس بن هُبَيرة الأسديّ وأشباههم فطاردوا القوم، فإذا هم لا يشدّون ولا يريدون غير الزحف، فقدموا صفوفهم وزاحفهم النّاس بغير إذن سعد، وكان أوّل مَنْ زاحفهم القعقاع، وقال سعد: اللهمّ اغفرْها له وانصرْه فقد أذنتُ له إن لم يستأذني. ثمّ قال: أرى الأمرَ ما فيه هذا، فإذا كبّرت ثلاثاً فاحملوا، وكبّر واحدةً فلحقهم أسد، فقال: اللهمّ اغفرْها لهم وانصرْهم. ثمّ حملت النَّخَع فقال: اللهمّ اغفرْها لهم وانصرهم. ثمّ حملت بَجيلة فقال اللهمّ اغفرْها لهم وانصرهم. ثمّ حملت كندة فقال: اللهمّ اغفرْها لهم وانصرهم. ثمّ زحف الرؤساء ورحا الحرب تدور على القعقاع، وتقدّم حنظلة بن الربيع وأمراء الأعشار وطليحة وغالب وحمّال وأهل النجدات، ولما كبّر الثالثة لحق النّاس بعضهم بعضاً وخالطوا القوم واستقبلوا اللّيل استقبالاً بعدما صلّوا العشاء، وكان صليل الحديد فيها كصوت القُيُون ليلتهم إلى الصباح، وأفرغ اللّه الصبر عليهم إفراغاً، وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها، ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله قطّ، وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد ورستم، وأقبل سعد على الدعاء، فلمّا كان عند الصبح انتمى النّاس فاستدلّ بذلك على أنّهم الأعلون، وكان أوّل شيء سمعه نصف اللّيل الباقي صوت القعقاع بن عمرو وهو يقول:

نحنُ قَتَلنا مَعشراً وزائدا ... أربَعةً وخَمسةً وواحِداً
نُحْسَبُ فوقَ اللّبد الأساوِدا ... حتى إذا ماتوا دعَوْتُ جاهدا
اللّه ربّي واحتَرَزْتُ عامِدا

وقتلت كندة تُرْكاً الطبريّ، وكان مقدّماً فيهم.(٤٨١/٢)

وأصبح النّاس ليلة الهرير -وتسمّى ليلة القادسيّة من بين تلك اللّيالي- وهم حسرى لم يُغمّضوا ليلتهم كلّها. فسار القعقاع في النّاس فقال: إنّ الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم فاصبروا ساعة واحملوا، فإنّ النصر مع الصبر. فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه مع الصبح. فلمّا رأت ذلك القبائل قام فيها رؤساؤهم وقالوا: لا يكوننّ هؤلاء أجدّ في أمر اللّه منكم، ولا هؤلاء، يعني الفرس أجرأ على الموت منكم. فحملوا فيما يليهم وخالطوا مَنْ بإزائهم فاقتتلوا حتى قام قائم الظهيرة، فكان أوّل مَنْ زال الفيرزان والهُرْمُزان فتأخّرا وثبتا حيث انتهيا، وانفرج القلبُ وركد عليهم النقعُ وهبّت ريح عاصف فقلعت طيارة رستم عن سريره فهوت في العتيق، وهي دَبور، ومال الغبار عليهم، وانتهى القعقاع ومَنْ معه إلى السرير فعثروا به وقد قام رستم عنه حين أطارت الريحُ الطيارة إلى بغال قد قدمت عليه بمال فهي واقفة، فاستظلّ في ظلّ بغل وحمله، وضرب هلال بن عُلَّفة الحمل الذي تحته رستم فقطع حباله ووقع عليه أحد العِدلَين، ولا يراه هلال ولا يشعر به، فأزال عن ظهره فقاراً، وضربه هلال ضربة فنفحت مسكاً. ومضى [رستم] نحو العتيق فرمى بنفسه فيه، واقتحمه هلال عليه وأخذ برجلَيْه ثمّ خرج به فضرب به جبينه بالسيف حتى قتله، ثمّ ألقاه بين أرجل البغال ثمّ صعد السرير وقال: قتلتُ رستم وربّ الكعبة! إليّ إليّ! فأطافوا به وكبّروا، فنفّله سعد سَلَبه، وكان قد أصابه الماء ولم يظفر بقلنسوته، ولو ظفر بها لكانت قيمتها مائة ألف.

وقيل: إنّ هلالاً لما قصد رستم رماه رستم بنشّابة أثبت قدمه بالركاب، فحمل عليه هلال فضربه فقتله ثمّ احتزّ رأسه وعلّقه ونادى: قتلتُ رستم! (٤٨٢/٢) فانهزم قلب المشركين.

وقام الجالينوس على الردم ونادى الفرسَ إلى العبور، وأمّا المقترنون فإنّهم جشعوا فتهافتوا في العتيق، فوخزهم المسلمون برماحهم فما أفلت منهم مُخْبر، وهم ثلاثون ألفاً. وأخذ ضِرار بن الخطّاب دِرَفْش كابيان، وهو العلم الأكبر الذي كان للفرس، فعُوّض منه ثلاثين ألفاً، وكانت قيمته ألف ألف ومائتَيْ ألف. وقتلوا في المعركة عشرة آلاف سوى مَنْ قتلوا في الأيّام قبله، وقُتل من المسلمين قبل ليلة الهرير ألفان وخمسمائة، وقُتل ليلة الهرير ويوم القادسيّة ستّة آلاف فدُفنوا في الخندق حيال مُشرّق، ودُفن ما كان قبل ليلة الهرير على مشرّق، وجُمعت الأسلاب والأموال فجُمع منها شيء لم يُجْمَع قبله ولا بعده مثله.

وأرسل سعد إلى هِلال فسأله عن رستم، فأحضره، فقال: جَرّدْه إلاّ ما شئتَ. فأخذ سلبه فلم يَدَعْ عليه شيئاً. وأمر القعقاعَ وشُرَحْبيل باتباعهم حتى بلغا مقدار الخرّارة من القادسيّة، وخرج زُهْرة بن الحَوِيّة التميميّ في آثارهم في ثلاثمائة فارس، ثمّ أدركه النّاس فلحق المنهزمين والجالينوس يجمعهم، فقتله زُهْرة وأخذ سلبه، وقتلوا ما بين الحرّارة إلى السّيلحين إلى النّجَف، وعادوا من أثر المنهزمين ومعهم الأسرى، فرؤي شابّ من النَّخَع وهو يسوق ثمانين رجلاً أسرى من الفرس.

واستكثر سعدٌ سلب الجالينوس فكتب فيه إلى عمر. فكتب عمر إلى سعد: تعمد إلى مثل زُهرة وقد صَلي بمثل ما صلى به وقد بقي عليك من حربك ما بقي (٤٨٣/٢) تُفْسد قلبه، امضِ له سلبه وفضّله على أصحابه عند عطائه بخمسمائة.

ولما اتبع المسلمون الفرس كان الرجل يشير إلى الفارسيّ فيأتيه فيقتله، وربّما أخذ سلاحه فقتله به، وربّما أمر رجلَين فيقتل أحدهما صاحبه.

ولحق سلمان بن ربيعة الباهليّ وعبد الرحمن بن ربيعة طائفة منهم قد نصبوا راية وقالوا: لا نبرح حتى نموت، فقتلهم سلمان ومَنْ معه. وكان قد ثبت بعد الهزيمة بضع وثلاثون كتيبة استحيوا من الفرار، وقصدهم بضعة وثلاثون من رؤساء المسلمين لكلّ كتيبة منها رئيس. وكان قتال أهل الكتائب من الفرس على وجهين، منهم من هرب ومنهم مَنْ ثبت حتى قُتل، وكان ممّن هرب من أُمراء الكتائب الهُرْمُزان، وكان بإزاء عُطارد، ومنهم أهوذ، وكان بإزاء حنظلة بن الربيع، وهو كاتب النبيّ ﷺ، ومنهم زاد بن بُهَيْش، وكان بإزاء عاصم بن عمرو، ومنهم قارن، وكان بإزاء القعقاع؛ وكان ممّن ثبت وقُتل شهريار بن كُنارا، وكان بإزاء سلمان بن ربيعة، وابن الهِرْبِذ، وكان بإزاء عبد الرحمن بن ربيعة، والفرُّخان الأهوازيّ، وكان بإزاء بُسْر بن أبي رُهْم الجُهَنيّ، ومنهم خُشْنَسوم الهمذانيّ، وكان بإزاء ابن الهُذَيْل الكاهليّ.

وتراجع النّاس من طلب المنهزمين وقد قُتل مؤذنهم، فتشاجّ المسلمون في الأذان حتى كادوا يقتتلون، وأقرع سعد بينهم فخرج سهمُ رجل، فأذّن. وفُضّل أهل البلاء من أهل القادسيّة عند العطاء بخمس مئة، وهم خمس مئة، وهم خمسة وعشرون رجلاً، منهم: زُهْرة وعصمة الضَّبّيّ والكلَج؛ وأمّا أهل (٤٨٤/٢) الأيّام قبلها فإنّهم فُرض لهم على ثلاثة آلاف فُضّلوا على أهل القادسيّة، فقيل لعمر: لو ألحقتَ بهم أهل القادسيّة. فقال: لم أكن لأُلحق بهم مَنْ لم يدركهم. وقيل له: لو فضّلتَ مَن بَعُدت دارهُ على مَنْ قاتلهم بفِنائه. قال: كيف أفضّل عليهم وهم شجن العدوّ! فهلاّ فعل المهاجرون بالأنصار هذا!

وكانت العرب تتوقّع وقعة العرب وأهل فارس بالقادسيّة فيما بين العُذَيْب إلى عدن أبْيَنَ وفيما بين الأُبُلّة وأيلة، يرون أن ثبات مُلكهم وزواله بها؛ وكانت في كلّ بلد مُصيخة إليها، تنظر ما يكون من أمرها. فلمّا كانت وقعة القادسيّة سارت بها الجنّ فأتت بها أُناساً من الإنس فسبقت أخبار الإنس [إليهم].

وكتب سعد إلى عمر بالفتح وبعدّة من قُتلوا وبعدّة مَن أُصيب من المسلمين، وسمّى من يعرف مع سعد بن عُمَيْلة الفزاريّ. وكان عمر يسأل الركبان من حين يصبح إلى انتصاف النهار عن أهل القادسيّة ثمّ يرجع إلى أهله ومنزله، قال: فلمّا لقي البشير سأله من أين؟ فأخبره، قال: يا عبد اللّه حدّثني. قال: هزم اللّه المشركين. وعمر يخبّ معه يسأله والآخر يسير على ناقته لا يعرفه حتى دخل المدينة وإذا النّاسُ يسلّمون عليه بإمرة المؤمنين، قال البشير: هلاّ أخبرتني، رحمك اللّه، أنّك أمير المؤمنين! فقال عمر: لا بأسَ عليك يا أخي.

وأقام المسلمون بالقادسيّة في انتظار قدوم البشير، وأمر عمر النّاس أن يقوموا على أقباضهم ويصلحوا أحوالهم ويتابع إليهم أهل الشام ممّن شهد (٤٨٥/٢) اليرموك ودمشق ممدّين لهم، وجاء أوّلهم يوم أغواث وآخرهم بعد الغد يوم الفتح فكتبوا فيهم إلى عمر يسألونه عمّا ينبغي أن يشار فيه مع نَذير بن عمرو.

وقيل: كانت وقعة القادسيّة سنة ستّ عشرة، قال: وكان بعض أهل الكوفة يقول: إنّها كانت سنة خمس عشرة، وقد تقدّم أنّها كانت سنة أربع عشرة.

(حُمَيْضة بن النعمان بضمّ الحاء المهملة، وفتح الميم، وبالضاد المعجمة. بُسْر بن أبي رُهْم بضمّ الباء الموحّدة، وسكون السين المهملة. والحَوِيّة بفتح الحاء المهملة، وكسر الواو، وقيل

بالجيم المضمومة، وفتح الواو والأوّل أصحّ. وحَمّال بفتح الحاء المهملة، وتشديد الميم. والمُعَنّى بضمّ الميم، وفتح العين المهملة، والنون المشدّدة. وحُصَين بن نمير بضمّ الحاء، وفتح الصاد. ومعاوية بن حُدَيْج بضمّ الحاء، وفتح الدال المهملتَين، وآخره جيم. والمُعْتَمّ بضمّ الميم، وسكون العين المهملة، وفتح التاء فوقها نقطتان، وآخره ميم مشدّدة. وصِرار بكسر الصاد المهملة، وبالرائين المهملتين بينهما ألف: موضع عند المدينة. وصِنّين بكسر الصاد المهملة، والنون المشدّدة بعدها ياء ساكنة معجمة باثنتين من تحتها، وآخره نون: موضع من ناحية الكوفة).

انتهى خبر القادسيّة.

ذكر ولاية عُتْبَة بن غَزْوان البصرة

قيل: في هذه السنة بعث عمر عُتبة بن غزوان إلى البصرة، وكان بها قُطْبة بن قَتادة السَّدوسيّ يغير بتلك الناحية كما كان يغير المثنّى بناحية الحيرة، (٤٨٦/٢) فكتب إلى عمر يعلمه مكانه وأنّه لو كان معه عددٌ يسيرٌ ظفر بمن كان قِبَلَه من العجم فنفاهم عن بلادهم. فكتب إليه عمر يأمره بالمقام والحذر، ووجّه إليه شُرَيْح بن عامر أحد بني سعد بن بكر، فأقبل إلى البصرة وترك بها قُطْبة ومضى إلى الأهواز حتى انتهى إلى دارس، وفيها مسلحة الأعاجم، فقتلوه، فبعث عمر عُتْبة بن غَزْوان، قال له حين وجّهه:

يا عتبة، إنّي قد استعملتك على أرض الهند، وهي حومة من العدوّ، وأرجو أن يكفيك اللّه ما حولها ويعينك عليها، وقد كتبتُ إلى العلاء بن الحضرميّ أن يمدّك بعَرْفجة بن هرثمة، وهو ذو مجاهدة ومكايدة للعدوّ، فإذا قدم عليك فاستشرْه وادعُ إلى اللّه، فمن أجابك فاقبلْ منه ومَنْ أبى فالجزية وإلاّ فالسيف، واتّقِ اللّه فيما وُلّيتَ، وإيّاك أن تنازعك نفسُك إلى كبر ممّا يُفسد عليك إخوتك، وقد صحبتَ رسول اللّه، ﷺ، فعُزّزتَ به بعد الذلّة، وقويتَ به بعد الضعف، حتى صرتَ أميراً مسلّطاً وملكاً مطاعاً، تقول فيُسْمَع منك، وتأمر فيُطاع أمرك، فيا لها نعمة إن لم ترفعك فوق قدرك وتُبطرك على مَنْ دونك، واحتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية، ولهي أخوفهما عندي عليك أن تستدرجك وتخدعك فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنّم، أُعيذك باللّه ونفسي من ذلك. إنّ النّاس أسرعوا إلى اللّه حتى رُفعت لهم الدنيا فأرادوها، فأرِدِ اللّه ولا تُرِدِ الدنيا، واتّقِ مصارع الظالمين. انطلقْ أنت ومَنْ معك حتى إذا كنتم في أقصى أرض العرب وأدنى أرض العجم فأقيموا.

فسار عُتبة ومَنْ معه حتى إذا كانوا بالمِرْبد تقدّموا حتى بلغوا حِيال (٤٨٧/٢) الجسر الصغير فنزلوا. فبلغ صاحبَ الفرات خبرهم فأقبل في أربعة آلاف فالتقوا، فقاتلهم عُتبة بعد الزوال، وكان في خمسمائة، فقتلهم أجمعين ولم يبقَ إلاّ صاحب الفرات فأخذه أسيراً، ثمّ خطب عتبةُ أصحابه وقال: إنّ الدنيا قد تصرّمت وولّت حَذّاءَ ولم يبقَ منها إلاّ صُبابة كصُبابة الإناء، ألا وإنّكم منتقلون منها إلى دار القرار، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، وقد ذُكر لي: لو أنّ صخرة أُلقيت من شفير جهنّم لهوت سبعين خريفاً ولتملأنّه؛ وَعجبتم! ولقد ذُكر لي أنّ ما بين مصراعين من مصاريع الجنّة مسيرة أربعين خريفاً وليأتينّ عليه يومٌ وهو كظيظ، ولقد رأيتني وأنا سابع سبعة مع النبيّ، ﷺ، ما لنا طعام إلاّ ورق السَّمُر حتى تقرّحت أشداقُنا، والتقطت بُردة فشققتها بيني وبين سعد، فما منّا أولئك السبعة من أحد إلاّ وهو أمير مصر من الأمصار، وسيُجرِّبون النّاسَ بعدنا.

وكان نزوله البصرة في ربيع الأوّل أو الآخر سنة أربع عشرة. وقيل: إنّ البصرة مُصّرت سنة ستّ عشرة بعد جلولاء وتكريت، أرسله سعد إليها بأمر عمر. وإنّ عتبة لما نزل البصرة أقام نحو شهر فخرج إليه أهلُ الأُبُلّة، وكان بها خمسمائة أُسوار يحمونها، وكانت مرفأ السفن من الصّين، فقاتلهم عُتبة فهزمهم حتى دخلوا المدينة، ورجع عتبة إلى عسكره، وألقى اللّه الرعبَ في قلوب الفرس فخرجوا عن المدينة وحملوا ما خفّ وعبروا الماء وأخلوا المدينة ودخلها المسلمون فأصابوا متاعاً وسلاحاً وسبياً فاقتسموه وأخرج الخمس (٤٨٨/٢) منه، وكان المسلمون ثلاثمائة. وكان فتحها في رجب أو في شعبان. ثمّ نزل موضع مدينة الرزق وخطّ موضع المسجد وبناه بالقصب.

وكان أوّل مولود بها عبد الرحمن بن أبي بكرة، فلمّا وُلد ذبح أبوه جزوراً فكفتهم لقلّة النّاس. وجمع لهم أهل دَسْتُميسان فلقيهم عتبة فهزمهم وأخذ مرزبانها أسيراً وأخذ قَتادة منطقته فبعث بها مع أنَس بن حجنة إلى عمر، فقال له عمر: كيف النّاس؟ فقال: انثالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضّة. فرغب النّاس في البصرة فأتوها.

واستعمل عُتبةُ مُجاشعَ بن مسعود على جماعة وسيّرهم إلى الفرات، واستخلف المُغيرةَ بن شُعبة على الصلاة إلى أن يقدم مجاشع بن مسعود، فإذا قدم فهو الأمير، وسار عتبة إلى عمر. فظفر مجاشع بأهل الفرات وجمع الفليكان، عظيم من الفرس، للمسلمين، فخرج إليه المغيرة بن شعبة فلقيهم بالمرغاب فاقتتلوا. فقال نساء المسلمين: لو لحقنا بهم فكنّا معهم، فاتّخذن من خمرهنّ رايات وسرن إلى المسلمين. فلمّا رأى المشركون الرايات ظنّوا أنّ مدداً للمسلمين قد أقبل فانهزموا وظفر بهم المسلمون. وكتب إلى عمر بالفتح، فقال عمر لعتبة: مَن استعملتَ على البصرة؟ فقال: مجاشع بن مسعود. قال: أتستعمل رجلاً من أهل الوبر على أهل المَدَر؟ وأخبره بما كان من المغيرة، وأمره أن يرجع إلى عمله، فمات في الطريق، وقيل في موته غير ذلك، وسيرد ذكره

سنة سبع عشرة.

وكان مِنْ سَبْي مَيْسان يَسار أبو الحسنِ البصريّ، وأرطبان جدّ عبد اللّه بن عَوْن بن أرطبان.

وقيل: إن إمارة عتبة البصرة كانت سنة خمس عشرة، وقيل: ستّ (٤٨٩/٢) عشرة، والأوّل أصحّ، فكانت إمارته عليها ستّة أشهر.

واستعمل عمر على البصرة المغيرة بن شعبة، فبقي سنتين ثمّ رُمي، واستعمل أبا موسى، وقيل: استعمل بعد عتبة أبا موسى وبعده المغيرة.

وفيها، أعني سنة أربع عشرة، ضرب عمر ابنه عبيد اللّه وأصحابه في شراب شربوه وأبا مِحْجن. وفيها أمر عمر بالقيام في شهر رمضان في المساجد بالمدينة وجمعهم على أُبيّ بن كعب وكتب إلى الأمصار بذلك. وحجّ بالنّاس في هذه السنة عمر بن الخطّاب. وكان على مكّة عتّاب بن أسيد في قول، وعلى اليمن يعلى بن مُنْية، وعلى الكوفة سعد، وعلى الشام أبو عبيدة بن الجرّاح، وعلى البحرين عثمان بن أبي العاص، وقيل العلاء بن الحضرميّ، وعلى عُمان حُذَيْفة بن مِحْصَن.

وفي هذه السنة مات أبو قُحافة والد أبي بكر الصدّيق بعد موت ابنه. وفيها مات سعد بن عُبادة الأنصاريّ، وقيل: سنة إحدى عشرة، وقيل: سنة خمس عشرة. وفيها قُتل سَليط بن عمرو بن عامر بن لُؤيّ. وفيها ماتت هند بنت عُتْبة بن ربيعة أمّ معاوية، وكان إسلامُها يوم الفتح.(٤٩٠/٢)

سنة خمس عشرة

وقيل: إنّ الكوفة مصّرها سعد بن أبي وقّاص في هذه السنة، دلّهم على موضعها ابن بُقَيْلة، قال لسعد: أدلّك على أرض للّه ارتفعت من البقّ وانحدرت عن الفلاة! فدلّه على موضعها، وقيل غير ذلك، ويأتي ذكره.

ذكر الوقعة بمرج الروم

في هذه السنة كانت الوقعة بمرج الروم، وكان من ذلك أنّ أبا عبيدة وخالد بن الوليد سارا بمن معهما من فِحْل قاصدين حِمص، فنزلا على ذي الكَلاع، وبلغ الخبرُ هرقلَ فبعث توذر البطريق حتى نزل بمرج الروم غرب دمشق، ونزل أبو عبيدة بمرج الروم أيضاً، ونازله يوم نزوله شَنَش الروميّ في مثل خيل توذر إمداداً لتوذر وردْءاً لأهل حمص. فلمّا نزل أصبحت الأرض من توذر بلاقع، وكان خالد بإزائه وأبو عبيدة بإزاء شَنَش، وسار توذر يطلب دمشق، فسار خالد وراءه في جريدة، وبلغ يزيد بن أبي سفيان فعل توذر فاستقبله فاقتتلوا، ولحق بهم خالد وهم يقتتلون فأخذهم من خلفهم ولم يفلت منهم إلاّ الشريد، وغنم المسلمون ما معهم، فقسمه يزيد في أصحابه وأصحاب خالد، وعاد يزيد إلى دمشق ورجع خالد إلى أبي عبيدة وقد قُتل توذر. وقاتل (٤٩١/٢) أبو عبيدة بعد مسير خالد شنش فاقتتلوا بمرج الروم، فقُتلت الروم مقتلة عظيمة، وقُتل شنش، وتبعهم المسلمون إلى حمص، فلمّا بلغ هرقلَ ذلك أمر بطريق حمص بالمسير إليها، وسار هو إلى الرهاء، وسار أبو عبيدة إلى حمص.

ذكر فتح حِمْص وبعلبك وغيرهما

فلمّا فرغ أبو عبيدة من دمشق سار إلى حمص فسلك طريق بعلبك فحصرها، فطلب أهلُها الأمان فآمنهم وصالحهم وسار عنهم فنزل على حمص ومعه خالد، وقيل: إنّما سار المسلمون إلى حمص من مرج الروم، وقد تقدّم ذكره. فلمّا نزلوها قاتلوا أهلها فكانوا يغادونهم القتال ويراوحونهم في كلّ يوم بارد، ولقي المسلمون برداً شديداً والروم حصاراً طويلاً، فصبر المسلمون والروم، وكان هرقل قد أرسل إلى أهل حمص يعدهم المدد وأمر أهل الجزيرة جميعها بالتجهّز إلى حمص، فساروا نحو الشام ليمنعوا حمص عن المسلمين. فسيّر سعد بن أبي وقاص السرايا من العراق إلى هيت وحصروها، وسار بعضهم إلى قرقيسيا، فتفرّق أهل الجزيرة وعادوا عن نجدة أهل حمص، فكان أهلها يقولون: تمسّكوا بمدينتكم فإنّهم حفاة، فإذا أصابهم البردُ تقطّعت أقدامهم. فكانت أقدام الروم تسقط ولا يسقط للمسلمين إصبع. فلمّا خرج الشتاء قام شيخ من الروم فدعاهم إلى مصالحة المسلمين فلم يجيبوه، وقام آخر فلم يجيبوه، فناهدهم المسلمون فكبّروا تكبيرة فانهدم كثير من دور حمص وزلزلت حيطانهم فتصدّعت، فكبّروا ثانية فأصابهم أعظم من ذلك، فخرج أهلها إليهم يطلبون الصلح ولا يعلم المسلمون بما حدث (٤٩٢/٢) فيهم، فأجابوهم وصالحوهم على صلح دمشق، وأنزلها أبو عبيدة السَّمْطَ بن الأسود الكندي في بني معاوية، والأشعث بن ميناس في السَّكون، والمِقْدادَ في بليّ، وأنزلها غيرهم، وبعث بالأخماس إلى عمر مع عبد اللّه بن مسعود، وكتب عمر إلى أبي عبيدة: أن أقمْ بمدينتك وادعُ أهل القوّة من عرب الشام فإنّي غير تارك البعثة إليك.

ثمّ استخلف أبو عبيدة على حمص عُبادةَ بن الصامت، وسار إلى حماة، فتلقّاه أهلُها مذعنين، فصالحهم أبو عبيدة على الجزية لرؤوسهم والخراج على أرضهم، ومضى نحو شَيْزر، فخرجوا إليه يسألون الصلح على ما صالح عليه أهل حماة، وسار أبو عبيدة إلى معرّة حمص، وهي معرّة النعمان، نُسبت بعدُ إلى النعمان بن بَشير الأنصاريّ، فأذعنوا له بالصلح على ما صالح عليه أهل حمص. ثمّ أتى اللاذقيّة فقاتله أهلُها، وكان لها باب عظيم يفتحه جمعٌ من

النّاس، فعسكر المسلمون على بُعْد منها، ثمّ أمر فحُفر حفائر عظيمة تستر الحُفْرةُ منها الفارسَ راكباً، ثمّ أظهروا أنّهم عائدون عنها ورحلوا، فلمّا جنّهم اللّيل عادوا واستتروا في تلك الحفائر وأصبح أهل اللاذقيّة وهم يرون أنّ المسلمين قد انصرفوا عنهم فأخرجوا سرحهم وانتشروا بظاهر البلد، فلم يَرُعْهم إلاّ والمسلمون يصيحون بهم ودخلوا معهم المدينة ومُلكت عنوةً وهرب قوم من النصارى ثمّ طلبوا الأمان على أن يرجعوا إلى أرضهم، فقوطعوا على خراج يؤدّونه قلّوا أو كثروا وتُركت لهم كنيستهم، وبنى المسلمون بها مسجداً جامعاً، بناه عُبادة بن الصامت، ثمّ وُسّع فيه بعدُ.

ولما فتح المسلمون اللاذقيّة جلا أهلُ جَبَلة من الروم عنها، فلمّا كان زمن معاوية بنى حصناً خارج الحصن الروميّ وشحنه بالرجال.

وفتح المسلمون مع عُبادة بن الصامت أنطرطوس، وكان حصيناً، فجلا (٤٩٣/٢) عنه أهله، فبنى معاوية مدينة أنطرطوس ومصّرها وأقطع بها القطائع للمقاتلة، وكذلك فعل ببانياس. وفُتحت سَلَمْيَة أيضاً، وقيل: إنّما سُمّيت سلمية لأنّه كان بقربها مدينة تُدْعى المؤتفكة انقلبت بأهلها ولم يسلم منهم غير مائة نفس فبنوا لهم مائة منزل وسُميت سلم مائة، ثمّ حرّف النّاس فقالوا سلمية: وهذا يتمشى لقائله لو كان أهلها عرباً ولسانهم عربيّاً، وأما إذا كان لسانهم أعجميّاً فلا يسوغ هذا القول. ثمّ إنّ صالح بن عليّ بن عبد اللّه بن عبّاس اتّخذها داراً وبنى ولده فيها ومصّروها ونزلها مَنْ نزلها من ولده، فهي وأرضوها لهم.

ذكر فتح قِنّسرين ودخول هرقل القسطنطينيّة

ثمّ أرسل أبو عبيدة خالدَ بن الوليد إلى قِنّسرين. فلمّا نزل الحاضر زحف إليهم الرومُ وعليهم ميناس، وكان من أعظم الروم بعد هرقل، فاقتتلوا فقُتل ميناس ومَنْ معه مقتلة عظيمة لم يُقتلوا مثلها، فماتوا على دم واحد. وسار خالد حتى نزل على قنّسرين فتحصّنوا منه، فقالوا: لو كنتم في السحاب لحملنا اللّه إليكم أو لأنزلكم إلينا. فنظروا في أمرهم ورأوا ما لقي أهلُ حمص فصالحوهم على صلح حمص، فأبى خالد إلاّ على إخراب المدينة فأخربها. فعند ذلك دخل هرقل القسطنطينيّة؛ وسببه: أنّ خالداً وعياضاً أدربا إلى هرقل من الشام، وأدرب عمرو بن مالك من الكوفة، فخرج من ناحية قَرْقيسيا، وأدرب عبد اللّه بن المُعْتَمّ من ناحية الموصل ثمّ رجعوا، فعندها دخل هرقل القسطنطينيّة، وكانت هذه أوّل مدربة في الإسلام سنة خمس (٤٩٤/٢) عشرة، وقيل ستّ عشرة.

فلمّا بلغ عمرَ صنيعُ خالد قال: أمّر خالد نفسه، يرحم اللّه أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني! وقد كان عزله والمثنّى بن حارثة وقال: إنّي لم أعزلهما عن ريبة ولكنّ النّاس عظّموهما فخشيتُ أن يوكلوا إليهما.

فأمّا المثنّى فإنّه رجع عن رأيه فيه لما قام بعد أبي عُبَيْد ورجع عن خالد بعد قنّسرين. وأمّا هرقل فإنّه خرج من الرّهاء؛ وكان أوّل مَنْ أنبح كلابها ونفّر دجاجها من المسلمين زياد بن حنظلة، وكان من الصحابة، وسار هرقل فنزل بشِمْشاط، ثمّ أدرب منها نحو القسطنطينيّة. فلمّا أراد المسير منها علا على نشز ثمّ التفت إلى الشام فقال: السلام عليكِ يا سورية، سلام لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك روميّ أبداً إلاّ خائفاً حتى يولد المولود المشؤوم، ويا ليته لا يولد! فما أحلى فعله وأمرّ فتنته على الروم. ثمّ سار فدخل القسطنطينيّة، وأخذ أهلَ الحصون التي بين إسكندريّة وطرسوس معه لئلاّ يسير المسلمون في عمارة ما بين أنطاكيّة وبلاد الروم، وشعّث الحصون، فكان المسلمون لا يجدون بها أحداً، وربّما كمّن عندها الروم فأصابوا غرّة المتخلّفين، فاحتاط المسلمون لذلك.

ذكر فتح حلب وأنطاكية وغيرهما من العواصم

لما فرغ أبو عبيدة من قِنّسرين سار إلى حلب، فبلغه أنّ أهلَ قِنّسرين نقضوا وغدروا، فوجّه إليهم السِّمْط الكنديّ فحصرهم وفتحها وأصاب (٤٩٥/٢) فيها بقراً وغنماً فقسم بعضه في جيشه وجعل بقيّته في المغنم. ووصل أبو عبيدة إلى حاضر حلب وهو قريب منها فجمع أصنافاً من العرب، فصالحهم أبو عبيدة على الجزية ثمّ أسلموا بعد ذلك، وأتى حلب وعلى مقدّمته عِياض بن غَنم الفهريّ، فتحصّن أهلُها وحصرهم المسلمون فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وكنائسهم وحصنهم، فأُعطوا ذلك واستُثْني عليهم موضع المسجد، وكان الذي صالحهم عِياض، فأجاز أبو عبيدة ذلك. وقيل: صولحوا على أن يقاسموا منازلهم وكنائسهم. وقيل: إنّ أبا عبيدة لم يصادف بحلب أحداً لأنّ أهلها انتقلوا إلى أنطاكية وراسلوا في الصلح، فلمّا تمّ ذلك رجعوا إليها.

وسار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكية وقد تحصّن بها كثير من الخلق من قِنّسرين وغيرها. فلمّا فارقها لقيه جمعُ العدوّ فهزمهم فألجأهم إلى المدينة وحاصرها من جميع نواحيها، ثمّ إنّهم صالحوه على الجلاء أو الجزية، فجلا بعض وأقام بعض فآمنهم، ثمّ نقضوا فوجّه أبو عبيدة إليهم عياضَ بن غَنْم وحَبيبَ بن مَسْلمة، ففتحاها على الصلح الأوّل.

وكانت أنطاكية عظيمة الذكر عند المسلمين، فلمّا فُتحت كتب عمرُ إلى أبي عبيدة أن رتّبْ بأنطاكية جماعة من المسلمين واجعلهم بها مرابطة ولا تحبسْ عنهم العطاء.

وبلغ أبا عبيدة أنّ جمعاً من الروم بين معرّة مَصْرين وحلب، فسار إليهم فلقيهم فهزمهم وقتل عدّة بطارقة وسبى وغنم وفتح معرّة مَصْرين على مثل صلح حلب وجالت خيوله فبلغت بُوقا وفتحت قرى الجُومة وسَرْمين وتِيزين وغلبوا على جميع أرض قِنّسرين وأنطاكية، ثمّ أتى أبو عبيدة حلبَ (٤٩٦/٢) وقد التاث أهلها، فلم يزل بهم حتى أذعنوا وفتحوا المدينة. وسار أبو عبيدة يريد قورس وعلى مقدّمته عِياض، فلقيه راهب من رهبانها يسأله الصلح، فبعث به إلى أبي عبيدة فصالحه على صلح أنطاكية، وبثّ خيله فغلب على جميع أرض قورس وفتح تلّ عزاز، وكان سلمان بن ربيعة الباهليّ في جيش أبي عبيدة فنزل في حصن بقورس فنُسب إليه فهو يُعرف بحصن سلمان.

ثمّ سار أبو عبيدة إلى مَنْبج وعلى مقدّمته عياض، فلحقه وقد صالح أهلها على مثل صُلح أنطاكية، وسيّر عياضاً إلى ناحية دُلُوك ورَعْبان فصالحه أهلها على مثل [صُلح] منبج، واشترط عليهم أن يخبروا المسلمين بخبر الروم. وولّى أبو عبيدة كلّ كورة فتحها عاملاً وضمّ إليه جماعة وشحن النواحي المخوفة، وسار إلى بالس، وبعث جيشاً مع حَبيب بن مَسلمة إلى قاصرين فصالحهم أهلُها على الجزية أو الجلاء، فجلا أكثرهم إلى بلد الروم وأرض الجزيرة وقرية جسر منبج، ولم يكن الجسر يومئذٍ، وإنّما اتُخذ في خلافة عثمان للصوائف، وقيل: بل كان له رسم قديم. واستولى المسلمون على الشام من هذه الناحية إلى الفرات، وعاد أبو عبيدة إلى فلسطين.

وكان بجبل اللُّكّام مدينة يقال لها جرجرومة وأهلها يقال لهم الجراجمة، فسار حبيب بن مسلمة إليها من أنطاكية فافتتحها صلحاً على أن يكونوا أعواناً للمسلمين.

وفيها سيّر أبو عبيدة بن الجرّاح جيشاً مع مَيْسرة بن مسروق العبسيّ، فسلكوا درب بَغْرَاس من أعمال أنطاكيّة إلى بلاد الروم، وهو أوّل مَنْ سلك ذلك الدرب، فلقي جمعاً للروم معهم عرب من غسّان وتنوخ وإياد يريدون اللّحاق بهرقل، فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، ثمّ لحق به مالك الأشتر (٤٩٧/٢) النَّخَعيّ مدداً من قبل أبي عبيدة وهو بأنطاكية، فسلموا وعادوا. وسيّر جيشاً آخر إلى مَرْعَش مع خالد بن الوليد ففتحها على إجلاء أهلها بالأمان وأخربها. وسيّر جيشاً آخر مع حَبيب بن مسلمة إلى حصن الحَدَث، وإنّما سُمّي الحدث لأن المسلمين لقوا عليه غلاماً حدثاً فقاتلهم في أصحابه، فقيل درب الحدث، وقيل: لأنّ المسلمين أُصيبوا به فقيل درب الحدث، وكان بنو أميّة يسمّونه درب السلامة لهذا المعنى.

ذكر فتح قيساريّة وحصر غَزّة

في هذه السنة فُتحت قيساريّة، وقيل: سنة تسع عشرة، وقيل: سنة عشرين. وكان سببها: أنّ عمر كتب إلى يزيد بن أبي سفيان أن يرسل معاوية إلى قيساريّة، وكتب عمر إلى معاويةُ يأمره بذلك فسار معاوية إليها فحصر أهلها فجعلوا يزاحفونه وهو يهزمهم ويردّهم إلى حصنهم. ثمّ زاحفوه آخر ذلك مستميتين، وبلغت قتلاهم في المعركة ثمانين ألفاً وكملها في هزيمتهم مائة ألف وفتحها، وكان علقمة بن مُجَزِّز قد حصر القيقار بغزّة وجعل يراسله، فلم يشفه أحد بما يريد، فأتاه كأنّه رسول علقمة، فأمر القيقار رجلاً أن يقعد له في الطريق فإذا مرّ به قتله، ففطن علقمة فقال: إنّ معي نفراً يشركونني في الرأي فانطلق فآتيك بهم، فبعث القيقار إلى ذلك الرجل أن لا يعرض له، فخرج علقمة من عنده فلم يعُدْ وفعل كما فعل عمرو بالأرطبون.

(مُجزِّز بجيم وزايين الأولى مكسورة [مشدّدة]).(٤٩٨/٢)

ذكر فتح بَيْسان ووقعة أجنادين

ولما انصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص نزل عمرو وشُرَحْبيل على أهل بَيْسان فافتتحاها وصالحا أهل الأردنّ، واجتمع عسكر الروم بغزّة وأجنادين وبَيْسان، وسار عمرو وشرحبيل إلى الأرطبون ومَنْ معه وهو بأجنادين، واستخلف على الأردنّ أبا الأعور، فنزل بالأرطبون ومعه الروم. وكان الأرطبون أدهى الروم وأبعدها غوراً، وكان قد وضع بالرملة جنداً عظيماً، وبإيلياء جنداً عظيماً. فلمّا بلغ عمر بن الخطّاب الخبر قال: قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عمّ تنفرج.

وكان معاوية قد شغل أهلَ قيساريّة عن عمرو، وكان عمرو قد جعل علقمة بن حَكيم الفراسي ومسروق بن فلان العكّيّ على قتال إيلياء، فشغلوا من به عنه، وجعل أيضاً أبا أيّوب المالكيّ على مَنْ بالرملة من الروم فشغلهم عنه، وتتابعت الأمداد من عند عمر إلى عمرو، وأقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطبون على شيء ولا تشفيه الرسل، فسار إليه بنفسه فدخل عليه كأنّه رسول، ففطن به الأرطبون وقال: لا شكّ أنّ هذا هو الأمير أو من يأخذ الأميرُ برأيه، فأمر إنساناً أن يقعد على طريقه ليقتله إذا مرّ به، وفطن عمرو لفعله فقال له: قد سمعتَ مني وسمعتُ منك، وقد وقع قولك مني موقعاً وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر إلى هذا الوالي لنكانفه فارجع فآتيك بهم الآن، فإن رأوا الذي عرضتَ عليّ الآن فقد رآه الأمير وأهل العسكر، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم. فقال: نعم، وردّ الرجل الذي أمر بقتله. (٤٩٩/٢) فخرج عمرو من عنده وعلم الروميّ أنّها خدعة اختدعه بها فقال: هذا أدهى الخلق!

وبلغت خديعته عمرَ بن الخطّاب فقال: للّه درّ عمرو! وعرف

عمرو مأخذه فلقيه فاقتتلوا بأجنادين قتالاً شديداً كقتال اليرموك حتى كثرت القتلى بينهم، وانهزم أرطبون إلى إيلياء، ونزل عمرو أجنادين، وأفرج المسلمون الذين يحصرون بيت المَقْدِس لأرطبون، فدخل إيلياء وأزاح المسلمين عنه إلى عمرو.

وقد تقدّم ذكر وقعة أجنادين على قول من يجعلها قبل اليرموك، وسياقها على غير هذه السياقة، فلهذا ذكرناها هنالك وهاهنا.

ذكر فتح بيت المَقْدِس وهو إيلياء

في هذه السنة فُتح بيت المقدس، وقيل: سنة ستّ عشرة في ربيع الأوّل.

وسبب ذلك أنّه لما دخل أرطبون إيلياء فتح عمرو غزّة، وقيل: كان فتحها في خلافة أبي بكر، ثمّ فتح سَبَسْطِيَة، وفيها قبر يحيَى بن زكريّاء، عليه السلام، وفتح نابلس بأمان على الجزية، وفتح مدينة لُدّ، ثمّ فتح يُبْنى وعَمَواس وبيت جبرين، وفتح يافا، وقيل: فتحها معاوية، وفتح عمرو مرج [عيون]، فلمّا تمّ له ذلك أرسل إلى أرطبون رجلاً يتكلّم بالروميّة وقال له: اسمع ما يقول، وكتب معه كتاباً، فوصل الرسول ودفع الكتاب إلى أرطبون وعنده وزراؤه، فقال أرطبون: لا يفتح والله عمرو شيئاً من (٥٠٠/٢) فلسطين بعد أجنادين. فقالوا له: من أين علمتَ هذا؟ فقال: صاحبها رجل صفته كذا وكذا، وذكر صفة عمر. فرجع الرسول إلى عمرو فأخبره الخبر، فكتب إلى عمر بن الخطّاب يقول: إنّي أعالج عدوّاً شديداً وبلاداً قد ادّخرت لك، فرأيك. فعلم عمر أن عَمراً لم يقلْ ذلك إلاّ بشيء سمعه، فسار عمر عن المدينة.

وقيل: كان سبب قدوم عمر إلى الشام أنّ أبا عبيدة حصر بيت المقدس، فطلب أهله منه أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام وأن يكون المتوليّ للعقد عمر بن الخطّاب، فكتب إليه بذلك فسار عن المدينة واستخلف عليها عليّ بن أبي طالب، فقال له عليّ: أين تخرج بنفسك؟ إنّك تريد عدوّاً كلباً. فقال عمر: أبادر بالجهاد قبل موت العبّاس، إنّكم لو فقدتم العبّاس لانتقض بكم الشرّ كما ينتقض الحبل. فمات العبّاس لستّ سنين من خلافة عثمان، فانتقض بالنّاس الشرّ.

وسار عمر فقدم الجابية على فرس، وجميع ما قدم الشام أربع مرّات: الأولى على فرس، الثانية على بعير، والثالثة على بغل، رجع لأجل الطاعون، والرابعة على حمار. وكتب إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بالجابية ليوم سمّاه لهم في المجرّدة ويستخلفوا على أعمالهم، فلقوه حيث رُفعت لهم الجابية، فكان أوّل مَن لقيه يزيد وأبو عبيدة ثمّ خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير، فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها وقال: ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم! إيّاي تستقبلون في هذا الزيّ وإنّما شبعتم مذ سنتان! وبالله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلتُ بكم غيركم. فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنّها يلامقة، (٥٠١/٢) وإنّ علينا السّلاح. قال: فنعم إذَنْ، وركب حتى دخل الجابية وعمرو وشُرَحْبيل كأنّهما لم يتحرّكا.

فلمّا قدم عمر الجابيةَ قال له رجل من اليهود: يا أمير المؤمنين، إنّك لا ترجع إلى بلادك حتى يفتح الله عليك إيلياء، وكانوا قد شجوا عَمراً وأشجاهم ولم يقدر عليها ولا على الرملة. فبينما عمر معسكر بالجابية فزع النّاسُ إلى السلاح، فقال: ما شأنكم؟ فقالوا: ألا ترى إلى الخيل والسيوف؟ فنظر فإذا كردوس يلمعون بالسيوف. فقال عمر: مستأمنة فلا تراعوا، فأمنوهم، وإذا أهل إيلياء وحيزها، فصالحهم على الجزية وفتحوها له؛ وكان الذي صالحه العوامّ لأنّ أرطبون والتذارق دخلا مصر لما وصل عمر إلى الشام وأخذا كتابه على إيلياء وحيزها والرملة وحيزها، فشهد ذلك اليهوديّ الصلح. فسأله عمر عن الدجّال، وكان كثير السؤال عنه. فقال له: وما مسألتك عنه يا أمير المؤمنين؟ أنتم والله تقتلونه دون باب لُدّ ببضع عشرة ذراعاً. وأرسل عمر إليهم بالأمان وجعل علقمة بن حَكيم على نصف فلسطين وأسكنه الرملة، وجعل علقمة بن مُجَزِّز على نصفها الآخر وأسكنه إيلياء. وضمّ عَمراً وشرحبيل إليه بالجابية، فلقياه راكباً فقبّلا ركبتيه، وضمّ [عُمَرُ] كلّ واحد منهما محتضنهما.

ثمّ سار إلى بيت المقدس من الجابية فركب فرسه فرأى به عرجاً، فنزل عنه وأُتي ببرذون فركبه، فجعل يتجلجل به، فنزل وضرب وجهه وقال: لا أعلم من علّمك هذه الخيلاء! ثمّ لم يركب برذوناً قبله ولا بعده.

وفُتحت إيلياءُ وأهلها على يديه. وقيل: كان فتحها سنة ستّ عشرة، ولحق أرطبون ومَنْ أبى الصلح من الروم بمصر، فلمّا ملك المسلمون مصر (٥٠٢/٢) قُتل، وقيل: بل لحق بالروم، فكان يكون على صوائفهم، والتقى هو وصاحب صائفة المسلمين، ومع المسلمين رجل من قيس يقال له ضُرَيْس، فقطع يد القيسيّ وقتله القيسيّ، فقال فيه:

فإنْ يكن أرطبون الرّوم أفسدَها ... فإنّ فيها بحَمدِ اللّه مُتّفَقا
وإنْ يكنْ أرْطبون الرّوم قطّعها ... فقد تركتُ بها أوْصالَهُ قِطَعا

ذكر فرض العطاء وعمل الديوان

وفي سنة خمس عشرة فرض عمر للمسلمين الفروض، ودوّن الدواوين، وأعطى العطايا على السابقة، وأعطى صفوان بن أميّة والحارث بن هشام وسُهَيْل بن عمرو في أهل الفتح أقلّ ما أخذ مَنْ قبلهم، فامتنعوا من أخذه وقالوا: لا نعترف أن يكون أحد أكرم منّا. فقال: إنّي إنّما أعطيتكم على السابقة في الإسلام لا على

الأحساب. قالوا: فنعم إذاً، وأخذوا، وخرج الحارث وسهيل بأهليهما نحو الشام فلم يزالا مجاهدَين حتى أُصيبا في بعض تلك الدروب، وقيل: ماتا في طاعون عمواس.

ولما أراد عمر وضع الديوان قال له عليّ وعبد الرحمن بن عَوْف: ابدأ بنفسك. قال: لا بل أبدأ بعمّ رسول اللّه، ﷺ، ثمّ الأقرب فالأقرب؛ ففرض للعبّاس وبدأ به، ثمّ فرض لأهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف، ثمّ فرض لمن بعد بدر إلى الحُدَيْبية أربعة آلاف أربعة آلاف، ثمّ فرض لمن بعد الحديبية إلى أن أقلع أبو بكر عن أهل الردّة ثلاثة آلاف ثلاثة (٥٠٣/٢) آلاف؛ في ذلك مَنْ شهد الفتح وقاتل عن أبي بكر ومَنْ ولي الأيّام قبل القادسيّة، كلّ هؤلاء ثلاثة آلاف، ثمّ فرض لأهل القادسيّة وأهل الشام ألفَين ألفَين، وفرض لأهل البلاء النازع منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة.

فقيل له: لو ألحقتَ أهل القادسيّة بأهل الأيّام، فقال: لم أكن لألحقهم بدرجة مَنْ لم يدركوا. وقيل له: قد سوّيتَ مَنْ بعُدت داره بمن قربت داره وقاتلهم عن فِنائه. فقال: مَنْ قرُبَتْ دارُه أحقُّ بالزيادة لأنّهم كانوا ردْءاً للحتوف وشجىً للعدوّ، فهلاّ قال المهاجرون مثل قولكم حين سوّينا بين السابقين منهم والأنصار! فقد كانت نصرة الأنصار بفِنائهم وهاجر إليهم المهاجرون من بعدُ.

وفرض لمَنْ بعد القادسيّة واليرموك ألفاً ألفاً، ثمّ فرض للروادف المثنّى خمسمائة خمسمائة، ثمّ للروادف الثّليث بعدهم ثلاثمائة ثلاثمائة، سوّى كلّ طبقة في العطاء قويّهم وضعيفهم، عربهم وعجمهم، وفرض للروادف الربيع على مائتَين وخمسين، وفرض لمن بعدهم، وهم أهل هَجَر والعِباد، على مائتين، وألحق بأهل بدر أربعة من غير أهلها: الحسن والحسين وأبا ذرّ وسلمان. وكان فرض للعبّاس خمسة وعشرين ألفاً، وقيل: اثني عشر ألفاً، وأعطى نساء النبيّ، ﷺ، عشرة آلاف عشرة آلاف، إلاّ مَنْ جرى عليها الملك. فقال نسوة رسول اللّه، ﷺ: ما كان رسول اللّه، ﷺ، يفضّلنا عليهنّ في القسمة، فسوّ بيننا؛ ففعل وفضّل عائشة بألفَين لمحبّة رسول اللّه، ﷺ، إيّاها، (٥٠٤/٢) فلم تأخذْ. وجعل نساء أهل بدر في خمسمائة خمسمائة، ونساء مَنْ بعدهم إلى الحديبية على أربعمائة أربعمائة، ونساء مَنْ بعد ذلك إلى الأيّام ثلاثمائة ثلاثمائة، ونساء أهل القادسيّة مائتَين مائتَين، ثمّ سوّى بين النساء بعد ذلك وجعل الصبيان سواء على مائة مائة، ثمّ جمع ستّين مسكيناً وأطعمهم الخبز، فأحصوا ما أكلوا فوجدوه يخرج من جريبتَين، ففرض لكلّ إنسان منهم ولعياله جريبتَين، ففرض لكلّ إنسان منهم ولعياله جريبتَين في الشهر.

وقال عمر قبل موته: لقد هممتُ أن أجعل العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف، ألفاً يجعلها الرجل في أهله، وألفاً يزوّدها معه، وألفاً يتجهّز بها، وألفاً يترفّق بها. فمات قبل أن يفعل.

وقال له قائل عند فرض العطاء: يا أمير المؤمنين لو شركتَ في بيوت الأموال عدّة لكون إن كان. فقال: كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقاني اللّه شرّها، وهي فتنة لمن بعدي، بل أعدّ لهم ما أعدّ اللّه ورسوله طاعة للّه ورسوله، هما عدّتنا التي بها أفضينا إلى ما ترون، فإذا كان المال ثمن دين أحدكم هلكتم.

وقال عمر للمسلمين: إنّي كنت امرأ تاجراً يغني اللّه عيالي بتجارتي، وقد شغلتموني بأمركم هذا، فما ترون أنّه يحلّ لي في هذا المال؟ وعليٌّ ساكت. فأكثر القوم، فقال: ما تقول يا عليّ؟ فقال: ما أصلحك وعيالك بالمعروف ليس لك غيره. فقال القوم: القول ما قال عليّ. فأخذ قوته واشتدّت حاجة عمر، فاجتمع نفر من الصحابة منهم عثمان وعليّ وطلحة والزّبير فقالوا: لو قلنا لعمر في زيادة نزيده إيّاها في رزقه. فقال عثمان: هلمّوا فلنستبرئ ما عنده (٥٠٥/٢) من وراء وراء، فأتوا حفصة ابنته فأعلموها الحال واستكتموها أن لا تخبر بهم عمرَ. فلقيت عمر في ذلك، فغضب وقال: مَنْ هؤلاء لأسوءهم؟ قالت: لا سبيل إلى علمهم. قال: أنت بيني وبينهم، ما أفضل ما اقتنى رسول اللّه، ﷺ، في بيتك من الملبس؟ قالت: ثوبَين ممشّقَين كان يلبسهما للوفد والجُمَع. قال: فأيّ الطعام ناله عندك أرفع؟ قالت: حرفاً من خبز شعير فصببنا عليه وهو حارّ أسفل عُكّة لنا فجعلتُها دسمة حلوة فأكل منها. قال: وأيّ مُبْسَط كان يبسط عندك كان أوطأ؟ قالت: كساء ثخين كنّا نربّعه في الصيف، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثّرنا بنصفه. قال: يا حفصة فأبلغيهم أنّ رسول اللّه، ﷺ، قدّر فوضع الفضول مواضعها وتبلّغ بالتزجية، فواللّه لأضعنّ الفضول مواضعها ولأتبلّغنّ بالتزجية، وإنّما مثلي ومثل صاحبيّ كثلاثة سلكوا طريقاً، فمضى الأوّل وقد تزوّد فبلغ المنزل، ثمّ اتّبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليه، ثمّ اتبعه الثالث فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما ألحق بهما، وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما.

ذكر الحروب إلى آخر السنة

فمن ذلك يوم بُرْس وبابل وكُوثَى

لما فرغ سعد من أمر القادسيّة أقام بها بعد الفتح شهرَين وكاتب عمرَ فيما يفعل، فكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى المدائن وأن يخلّف النساء والعيال بالعتيق وأن يجعل معهم جنداً كثيفاً وأن يشركهم في كلّ مغنم ما داموا يخلفون (٥٠٦/٢) المسلمين في عيالاتهم. ففعل ذلك وسار من القادسيّة لأيّام بقين من شوّال، وكلّ النّاس مؤدٍ مذ نقل اللّه إليهم ما كان في عسكر الفرس. فلمّا وصلت مقدّمة المسلمين بُرْسَ وعليهم عبدُ اللّه بن المعتَمّ وزُهْرة

بن حَوِيّة وشُرَحْبيل بن السمط لقيهم بها بَصْبَهْرا في جمع من الفرس، فهزمه المسلمون ومَنْ معه إلى بابل وبها فالّة القادسيّة وبقايا رؤسائهم النخيرخان ومهران الرازي والهُرْمزان وأشباههم وقد استعملوا عليهم الفيرزان، وقدم بَصْبَهْرا منهزماً من بُرْس فوقع في النّهر ومات من طعنة كان طعنه زُهْرة، ولما هُزم بَصْبَهْرا أقبل بِسْطام دهقان بُرْس فصالح زُهْرة وعقد له الجسور وأخبره بمن اجتمع ببابل، فأرسل زُهْرة إلى سعد يُعَرِّفه ذلك. فقدم عليه سعد ببرس وسيّره في المقدّمة وأتبعه عبدَ اللّه وشُرَحْبيلَ وهاشماً المِرْقال واتبعهم فنزلوا على الفيرزان ببابل وقد قالوا: نقاتلهم قبل أن نفترق، فاقتتلوا فهزمهم المسلمون، فانطلقوا على وجهَين، فسار الهرمزان نحو الأهواز فأخذها فأكلها، وخرج الفيرزان نحو نهاوند فأخذها فأكلها وبها كنوز كسرى، وأكل الماهَين، وسار النخيرخان ومهران إلى المدائن وقطعا الجسر.

وأقام سعد ببابل، فقدّم زُهْرة بين يديه بُكَيْرَ بن عبد اللّه اللّيثيّ وكَثيرَ ابن شِهاب السّعديّ حتى عبرا الصراة فلحقا بأخريات القوم وفيهم فيومان والفرُّخان، فقتل بُكير الفرُّخان وقتل كثير فيومان بسوراء، وجاء زهرة فجاز سوراء ونزل، وجاء سعد وهاشم والنّاس ونزلوا عليه، وتقدّم زهرة نحو الفرس، وكانوا قد نزلوا بين الدير وكُوثَى، وقد استخلف النخيرخان ومهران على جنودهما شهريار، فنازلهم زهرة، فبرزوا إلى قتاله، وخرج شهريار يطلب (٥٠٧/٢) المبارزة، فأخرج زُهرة إليه أبا نُباتة نايل بن جَشْعم الأعرجيّ، وكان من شجعان بني تميم، وكلاهما وثيق الخَلق. فلمّا رأى شهريار نايلاً ألقى الرمح ليعتنقه، وألقى أبو نُباتة ليعتنقه أيضاً، وانتضيا سيفيهما فاجتلدا ثمّ اعتنقا فسقطا عن دابّتهما، فوقع شهريار عليه كأنّه جمل، فضغطه بفخذه وأخذ الخنجر وأراد حلّ أزرار دِرْعه، فوقعت إصبعه في نايل فكسر عظمها، ورأى منه فتوراً فبادر وجلد به الأرض ثمّ قعد على صدره وأخذ خنجره وكشف درعه عن بطنه وطعن به بطنه وجنبه حتى مات، وأخذ فرسه وسوارَيْه وسلبه، وانهزم أصحابُه فذهبوا في البلاد، وأقام زهرة بكُوثَى حتى قدم عليه سعد، فقدّم إليه نايلاً وألبسه سلاح شهريار وسوارَيْه وأركبه برذونه وغنّمه الجميع، فكان أوّل أعرجيّ سُوِّر بالعراق، وقام بها سعد أيّاماً وزار مجلس إبراهيم الخليل، عليه السلام.

وقيل: كانت هذه الوقعات سنة ستّ عشرة.

(نَايل بالنون، وبعد الألف ياء تحتها نقطتان، وآخره لام).(٥٠٨/٢)

ذكر بَهْرَسير وهي المدينة العتيقة وهي المدائن الدنيا من الغرب

ثمّ إنّ سعداً قدّم زُهرة إلى بَهْرَسير فمضى في المقدّمات، فتلقّاه شيرازاد دهقان ساباط بالصلح فأرسله إلى سعد، فصالحه على تأدية الجزية، ولقي زهرة كتيبة بنت كسرى التي تُدْعى بوران، وكانوا يحلفون كلّ يوم أن لا يزول مُلك فارس ما عشنا، فهزمهم وقتل هاشمُ بن عُتبة، وهو ابن أخي سعد، المقرَّطَ، وهو أسد كان لكسرى قد ألفه، فقبّل سعد رأس هاشم، وقبّل هاشم قدم سعد، وأرسله سعد في المقدّمة إلى بهرسير، فنزل إلى المُظْلم، وقرأ: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]؛ ثمّ ارتحل فنزل على بهرسير، ووصلها سعد والمسلمون فرأوا الإيوان، فقال ضِرار بن الخطّاب: اللّه أكبر! أبيض كسرى! هذا ما وعد اللّه ورسولُه. وكبّر وكبّر النّاسُ معه، فكانوا كلّما وصلت طائفة كبّروا ثمّ نزلوا على المدينة، وكان نزولهم عليها في ذي الحجّة.

وحجّ بالنّاس في هذه السنة عمر بن الخطّاب. وكان عامله فيها على مكّة عتّاب بن أسيد في قول، وعلى الطائف يعلى بن مُنْية، وعلى اليمامة والبحرين عثمان بن أبي العاص، وعلى عُمان حُذَيْفة بن مِحْصن، وعلى الشام أبو عبيدة بن الجرّاح، وعلى الكوفة وأرضها سعد بن أبي وقّاص، وعلى البصرة المُغيرة بن شُعْبة.

وفيها مات سعد بن عُبادة الأنصاريّ، وقيل: توفيّ في خلافة أبي بكر. ونَوفل بن الحارث بن عبد المطّلب، وكان أسَنّ مَنْ أسلم من بني هاشم. (٥٠٩/٢)

سنة سِت عشرة

ذكر فتح المدائن الغربيّة وهي بَهُرَسير

في هذه السنة في صفر دخل المسلمون بهرسير، وكان سعد محاصراً لها، وأرسل الخيول فأغارت على مَنْ ليس له عهد، فأصابوا مائة ألف فلاّح، فأصاب كلّ واحد منهم فلاّحاً لأنّ كلّ المسلمين كان فارساً، فأرسل سعد إلى عمر يستأذنه، فأجابه: إنّ مَنْ جاءكم من الفلاّحين ممّن لم يعينوا عليكم فهو أمانهم، ومَنْ هرب فأدركتموه فشأنكم به. فخلّى سعد عنهم وأرسل إلى الدهاقين ودعاهم إلى الإسلام أو الجزية ولهم الذمّة، فتراجعوا ولم يدخل في ذلك ما كان لآل كسرى، فلم يبقَ [في] غربيّ دجلة إلى أرض العرب سواديّ إلاّ أمن واغتبط بملك الإسلام.

وأقاموا على بهرسير شهرَين يرمونهم بالمجانيق ويدبُّون إليهم بالدبابات ويقاتلونهم بكلّ عُدّة، ونصبوا عليها عشرين منجنيقاً فشغلوهم بها، وربّما خرج العجم فقاتلوهم فلا يقومون لهم، وكان آخر ما خرجوا متجرّدين للحرب وتبايعوا على الصبر، فقاتلهم المسلمون. وكان على زُهْرة بن الحَوِيّة درع (٥١٠/٢) مفصومة، فقيل له: لو أمرتَ بهذا الفصم فسُرد. فقال لهم: إنّي على اللّه لكريم أن ترك سهمُ فارسَ الجندَ كلّهم ثمّ أتاني من هذا الفصم

حتى يثبت فيّ! فكان أوّل رجل أصيب من المسلمين يومئذٍ هو بنشّابة من ذلك الفصم. فقال بعضهم: انزعوها. فقال: دعوني فإنّ نفسي معي ما دامت فيّ، لعليّ أن أُصيب منهم بطعنة أو ضربة. فمضى نحو العدوّ فضرب بسيفه شهريار من أهل إصطخر فقتله، وأُحيط به فقُتل وما انكشفوا.

وقيل: إنّ زُهرة عاش إلى أيّام الحجّاج فقتله شبيب الخارجيّ، وسيرد ذكره.

واشتدّ الحصار بأهل المدائن الغربيّة حتى أكلوا السنانير والكلاب وصبروا من شدّة الحصار على أمر عظيم، فبينا هم يحاصرونهم إذ أشرف عليهم رسول الملك، فقال: الملك يقول لكم: هل لكم إلى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة إلى جبلنا ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم؟ أما شبعتم لا أشبع اللّه بطونكم! فقال لهم أبو مُفَزِّر الأسود بن قُطبة، وقد أنطقه اللّه تعالى بما لا يدري ما هو ولا من معه. فرجع الرَّجُل فقطعوا دجلة إلى المدائن الشرقيّة التي فيها الإيوان، فقال له مَن معه: يا أبا مُفَزِّر ما قلت له؟ قال: والذي بعث محمّداً بالحقّ ما أدري وأنا أرجو أن أكون قد نطقتُ بالذي هو خيرٌ. وسأله سعد والنّاس عمّا قال فلم يعلم. فنادى سعد في النّاس، فنهدوا إليهم فما ظهر على المدينة أحد ولا خرج رجل إلاّ رجل ينادي بالأمان، فآمنوه، فقال لهم: ما بقي بالمدينة مَنْ يمنعكم. فدخلوا فما وجدوا فيها شيئاً ولا أحداً إلاّ أسارى (٥١١/٢) وذلك الرجل، فسألوه لأيّ شيء هربوا؟ فقال: بعث الملك إليكم يعرض عليكم الصلح فأجبتموه أنّه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبداً حتى نأكل عسل أفريدون بأُترجّ كوثى. فقال الملك: يا ويلتيه! إنّ الملائكة تتكلّم على ألسنتهم تردُّ علينا.

فساروا إلى المدينة القصوى. فلمّا دخلها المسلمون أنزلهم سعد المنازل، وأرادوا العبور إلى المدائن فوجدوا المعابر قد أخذوها ما بين المدائن وتكريت.

ذكر فتح المدائن التي فيها إيوان كسرى

وكان فتحها في صفر أيضاً سنة ستّ عشرة، قيل: وأقام سعد بَهُرَسير أيّاماً من صفر، فأتاه عِلجٌ فدلّه على مخاضة تخاض إلى صلب الفرس، فأبى وتردّد عن ذلك، وقحمهم المدّ، وكانت السنة كثيرة المدود ودجلة تقذف بالزبد، فأتاه علجٌ فقال: ما يقيمك؟ لا يأتي عليك ثلاثة حتى يذهب يزدجرد بكلّ شيء في المدائن. فهيّجه ذلك على العبور، ورأوا رؤيا أنّ خيول المسلمين اقتحمت دجلة فعبرت، فعزم سعد لتأويل الرؤيا، فجمع النّاسَ فحمد اللّه وأثنى عليه ثمّ قال: إنّ عدوّكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليه معه ويخلصون إليكم إذا شاؤوا في سفنهم فيناوشونكم وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتَوا منه، قد كفاكم أهل الأيّام وعطّلوا ثغورهم، وقد رأيت من الرأي أن تجاهدوا العدوّ قبل أن تحصدكم الدنيا، ألا إنّي قد (٥١٢/٢) عزمتُ على قطع هذا البحر إليهم.

فقالوا جميعاً: عزم اللّه لنا ولك على الرشد فافعلْ. فندب النّاس إلى العبور وقال: من يبدأ ويحمي لنا الفِراض حتى تتلاحق به النّاس لكيلا يمنعوهم من العبور؟ فانتدب له عاصم بن عمرو ذو البأس في ستّمائة من أهل النجدات، فاستعمل عليهم عاصماً، فقدمهم عاصم في ستّين فارساً وجعلهم على خيل ذكور وإناث ليكون أسلس لسباحة الخيل، ثمّ اقتحموا دجلة. فلمّا رآهم الأعاجم وما صنعوا أخرجوا للخيل التي تقدّمت مثلها فاقتحموا عليهم دجلة، فلقوا عاصماً وقد دنا من الفِراض. فقال عاصم: الرماح الرماح! أشرعوها وتوخّوا العيون. فالتقوا فاطّعنوا، وتوخّى المسلمون عيونهم فولّوا، ولحقهم المسلمون فقتلوا أكثرهم، ومن نجا منهم صار أعور من الطعن، وتلاحق الستّمائة بالستّين غير متعبين.

ولما رأى سعد عاصماً على الفراض قد منعها أذن للنّاس في الاقتحام وقال: قولوا نستعين باللّه ونتوكّل عليه، حسبنا اللّه ونعم الوكيل، واللّه لينصرنّ اللّه وليّه وليُظهرنّ دينه وليهزمنّ عدوّه، [لا حول] ولا قوّة إلاّ باللّه العليّ العظيم. وتلاحق النّاسُ في دجلة وإنّهم يتحدّثون كما يتحدّثون في البرّ، وطبّقوا دجلة حتى ما يُرى من الشاطئ شيء. وكان الذي يساير سعداً سلمان الفارسيّ، فعامت بهم خيولهم، وسعد يقول: حسبنا اللّه ونعمَ الوكيل، واللّه لينصرنّ اللّه وليّه وليُظهرنّ دينه وليهزمنّ عدوّه إن لم يكن في الجيش بغيٌ أو ذنوب تغلب الحسنات. فقال له سلمان: الإسلام جديد، ذُلّلت لهم البحور كما ذُلّل لهم البرّ، أمَا والذي نفس سلمان بيده ليخرجُنّ منه أفواجاً كما دخلوا فيه أفواجاً. فخرجوا منه كما قال سلمان لم يفقدوا شيئاً، (٥١٣/٢) إلاّ أنّ مالك بن عامر العنبريّ سقط منه قدح فذهبت به جرية الماء فقال له الذي يسايره مُعيّراً له: أصابه القدر فطاح. فقال: واللّه إنّي لعلى حالة ما كان اللّه ليسلبني قدحي من بين العسكرين. فلمّا عبروا ألقته الريح إلى الشاطئ فتناوله بعضُ النّاس وعرفه صاحبه فأخذه. ولم يغرق منهم أحد غير أنّ رجلاً من بارق يُدْعى غرقدة زال عن ظهر فرس له أشقر، فثنى القعقاع عنان فرسه إليه فأخذ بيده فأخرجه سالماً. وخرج النّاس سالمين وخيلهم تنفض أعرافها.

فلمّا رأى الفرس ذلك وأتاهم أمر لم يكن في حسابهم خرجوا هاربين نحو حُلوان، وكان يزدجرد قد قدّم عياله إلى حُلوان قبل ذلك وخلّف مهران الرازي والنخيرخان، وكان على بيت المال بالنهروان، وخرجوا معهم بما قدروا عليه من خير متاعهم وخفيفه وما قدروا عليه من بيت المال وبالنساء والذراري وتركوا في

الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والفصوص والألطاف ما لا يُدرى قيمته، وخلّفوا ما كانوا أعدّوا للحصار من البقر والغنم والأطعمة. وكان في بيت المال ثلاثة آلاف ألف ألف ألف، ثلاث مرّات، أخذ منها رستم عند مسيره إلى القادسيّة النصف وبقي النصف. وكان أوّل من دخل المدائن كتيبة الأهوال، وهي كتيبة عاصم بن عمرو، ثمّ كتيبة الخرساء، وهي كتيبة القعقاع بن عمرو، فأخذوا في سككها لا يلقون فيها أحداً يخشونه إلاّ مَنْ كان في القصر الأبيض، فأحاطوا بهم ودعوهم فاستجابوا على تأدية (٥١٤/٢) الجزية والذمّة، فتراجع إليهم أهل المدائن على مثل عهدهم ليس في ذلك ما كان لآل كسرى.

ونزل سعد القصر الأبيض، وسرّح سعد زُهْرَة في آثارهم إلى النهروان، ومقدار ذلك من كلّ جهة. وكان سلمان الفارسيّ رائد المسلمين وداعيتهم، دعا أهل بَهُرَسير ثلاثاً وأهل القصر الأبيض ثلاثاً، واتّخذ سعد إيوان كسرى مصلّى ولم يغيّر ما فيه من التماثيل. ولم يكن بالمدائن أعجب من عبور الماء، وكان يُدعَى يوم الجراثيم، لا يبغي أحد إلاّ اشمخرّت له جرثومة من الأرض يستريح عليها ما يبلغ الماء حزام فرسه، ولذلك يقول أبو بُجَيْد نافع بن الأسود:

وَاَسَلْنا على المَدائنِ خَيلاً ... بحرُها مثلُ برّهنّ أريضَا
فانتثلنا خزائنَ المَرْءِ كِسرَى ... يومَ وَلّوا وخاض منها جريضَا

ولما دخل سعد الإيوان قرأ: ﴿كَم تَرَكُوا مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ﴾ [الدّخان:٢٥] إلى قوله: ﴿قَوْماً آخَرِينَ﴾ [الدّخان:٢٨]؛ وصلّى فيه صلاة الفتح ثماني ركعات لا يفصل بينهنّ ولا يصلّي جماعة، وأتمّ الصلاة لأنّه نوى الإقامة، وكانت أوّل جُمعة بالعراق، وجُمّعت بالمدائن في صفر سنة ستّ عشرة.

ولما سار المسلمون وراءهم أدرك رجل من المسلمين فارسيّاً يحمي أصحابه فضرب فرسه ليقدم على المسلم، فأحجم وأراد الفرار فتقاعس، فأدركه المسلم (٥١٥/٢) فقتله وأخذ سَلَبه؛ وأدرك رجلٌ آخر من المسلمين جماعةً من الفرس يتلاومون وقد نصبوا لأحدهم كرةً وهو يرميها لا يخطئها، فرجعوا فلقيهم المسلم، فتقدّم إليه ذلك الفارسيّ فرماه بأقرب ممّا كانت الكرة فلم يصبْه، فوصل المسلم إليه فقتله وهرب أصحابه.

(أبو بُجَيْد بضمّ الباء الموحّدة، وفتح الجيم، وبعدها ياء تحتها نقطتان، ودال مهملة).

ذكر ما جُمع من غنائم أهل المدائن وقسمتها

كان سعد قد جعل على الأقباض عمرو بن عمرو بن مُقرّن، وعلى القسمة سلمان بن ربيعة الباهليّ، فجمع ما في القصور والإيوان والدُّور وأحصى ما يأتيه به الطلب، وكان أهل المدائن قد نهبوا عند الهزيمة وهربوا في كلّ وجه، فما أفلت أحد منهم بشيء إلا أدركهم الطلب فأخذوا ما معهم، ورأوا بالمدائن قباباً تركيّة مملوّة سلالاً مختومة برصاص فحسبوها طعاماً، فإذا فيها آنية الذهب والفضّة، وكان الرجل يطوف ليبيع الذهب بالفضّة متماثلين. ورأوا كافوراً كثيراً فحسبوه ملحاً، فعجنوا به فوجدوه مرّاً.

وأدرك الطلب مع زُهْرة جماعة من الفرس على جسر النهروان فازدحموا عليه، فوقع منهم بغل في الماء فعجلوا وكبّوا عليه، فقال بعض المسلمين: (٥١٦/٢) إنّ لهذا البغل لشأناً، فجالدهم المسلمون عليه حتى أخذوه وفيه حلية كسرى، ثيابه وخرزاته ووشاحه ودرعه التي فيها الجوهر، وكان يجلس فيها للمباهاة. ولحق الكَلَجُ بغلَين معهما فارسيّان فقتلهما وأخذ البغلين فأبلغهما صاحب الأقباض، وهو يكتب ما يأتيه به الرجال، فقال له: قفْ حتى ننظر ما معك. فحطّ عنهما فإذا سَفَطان فيهما تاج كسرى مرصّعاً، وكان لا يحمله إلاّ أُسطوانتان وفيه الجوهر، وعلى البغل الآخر سَفَطان فيهما ثياب كسرى التي كان يلبس من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر وغير الديباج منسوجاً منظوماً.

وأدرك القعقاعُ بن عمرو فارسيّاً فقتله وأخذ منه عيبتَين في إحداهما خمسة أسياف وفي الأخرى ستّة أسياف وأدراع، منها درع كسرى ومغافره ودرع هِرقْل ودرع خاقان ملك الترك ودرع داهر ملك الهند ودرع بهرام جوبين ودرع سياوُخْش ودرع النعمان استلبها الفرس أيّام غزاهم خاقان وهرقل وداهر، وأمّا النعمان وجوبين فحين هربا من كسرى، والسيوف من سيوف كسرى وهرمز وقُباذ وفيروز وهرقل وخاقان وداهر وبهرام وسياوُخْش والنعمان؛ فأحضر القعقاعُ الجميع عند سعد، فخيّره بين الأسياف فاختار سيف هرقل، وأعطاه درع بهرام ونفّل سائرها في الخرساء، إلاّ سيف كسرى والنعمان، بعث بهما إلى عمر بن الخطّاب لتسمع العرب بذلك (٥١٧/٢) وحسبوهما في الأخماس، وبعثوا بتاج كسرى وحليته وثيابه إلى عمر ليراه المسلمون.

وأدرك عِصْمةُ بن خالد الضّبّيّ رجلَين معهما حماران فقتل أحدهما وهرب الآخر، وأخذ الحمارَين فأتى بهما صاحب الأقباض فإذا على أحدهما سَفَطان في أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضّة وعلى ثفره ولَبّبه الياقوت والزمرّد المنظوم على الفضّة، ولجام كذلك، وفارس من فضّة مكلّل بالجوهر، وفي الآخر ناقة من فضّة عليها شليل من ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من ذهب، وكلّ ذلك منظوم بالياقوت، وعليها رجل من ذهب مكلّل بالجواهر، كان كسرى يضعهما على أسطوانتي التاج.

وأقبل رجل بحُقّ إلى صاحب الأقباض فقال هو والذين معه: ما رأينا مثل هذا [قطُّ]، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه. فقالوا: هل

أخذتَ منه شيئاً؟ فقال: واللّه لولا اللّه ما أتيتُكم به. فقالوا: من أنت؟ فقال: واللّه لا أخبركم فتحمدوني ولكني أحمد اللّه وأرضى بثوابه. فأتبعوه رجلاً، فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس. وقال سعد: واللّه إنّ الجيش لذو أمانة، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلتُ إنّهم على فضل أهل بدر، لقد تتبّعتُ منهم هناتٍ ما أحسبها من هؤلاء.

وقال جابر بن عبد اللّه: والذي لا إله إلاّ هو ما اطّلعنا على أحد من أهل القادسيّة أنّه يريد الدنيا مع الآخرة، فلقد اتّهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كأمانتهم وزهدهم، وهم: طُلَيْحة، وعمرو بن معدي كرب، وقيس بن المكشوح. وقال عمر لما قُدِم عليه بسيف كسرى ومنطقته وبزبُرجه: إنّ قوماً (٥١٨/٢) أدّوا هذا لذوو أمانة. فقال عليّ: إنّك عففتَ فعفّت الرعيّة.

فلمّا جُمعت الغنائم قسم سعد الفيء بين النّاس بعدما خمسه، وكانوا ستّين ألفاً، فأصاب الفارسَ اثنا عشر ألفاً، وكلّهم كان فارساً ليس فيهم راجل، ونفّل من الأخماس في أهل البلاء، وقسم المنازل بين النّاس، وأحضر العيالات فأنزلهم الدُّور، فأقاموا بالمدائن حتى فرغوا من جلولاء وحُلْوان وتكريت والموصل ثمّ تحوّلوا إلى الكوفة. وأرسل سعد في الخميس كلّ شيء أراد أن يعجب منه العرب، وما كان يعجبهم أن يقع، وأراد إخراج خمس القِطف فلم تعتدل قسمته، وهو بهار كسرى، فقال المسلمين: هل تطيب أنفسكم عن أربعة أخماسه ينبعث به إلى عمر يضعه حيث يشاء فإنّا لا نراه ينقسم وهو بيننا قليل وهو يقع من أهل المدينة موقعاً؟ فقالوا: نعم. فبعثه إلى عمر. والقِطف بساط واحد طوله ستّون ذراعاً، وعرضه ستّون ذراعاً مقدار جريب، كانت الأكاسرة تُعدّه للشتاء إذا ذهبت الرياحين شربوا عليه، فكأنّهم في رياض، فيه طرق كالصور وفيه فصوص كالأنهار أرضها مذهبة وخلال ذلك فصوص كالدُّرّ وفي حافاته كالأرض المزروعة والأرض المبقلة بالنبات في الربيع والورق من الحرير على قضبان الذهب، وزهره الذهب والفضّة، وثمره الجوهر وأشباه ذلك، وكانت العرب تسمّيه القِطف.

فلمّا قدمت الأخماس على عمر نفّل منها مَنْ غاب ومن شهد من أهل البلاء، ثمّ قسم الخمس في مواضعه، ثمّ قال: أشيروا عليّ في هذا القِطف؛ فمن بين مشير بقبضه وآخر مفوّض إليه. فقال له عليّ: لم يجعل اللّه علمك جهلاً ويقينك شكّاً، إنّه ليس لك من الدنيا إلاّ ما أعطيتَ فأمضيتَ أو لبستَ فأبليتَ أو أكلتَ فأفنيتَ، وإنّك إن تبقِه على هذا اليومَ لم تعدم في غدٍ من يستحقّ به ما ليس له. فقال: صدقتني ونصحتني، فقطعه بينهم، فأصاب (٥١٩/٢) عليّاً قطعةٌ منه فباعها بعشرين ألفاً، وما هي بأجود تلك القطع.

وكان الذي سار بالأخماس بشير بن الخصاصيّة، وأثنى النّاس على أهل القادسيّة، فقال عمر: أولئك أعيان العرب.

ولما رأى عمر سيف النعمان سأل جُبَير بن مُطعم عن نسب النعمان، فقال جبير: كانت العرب تنسبه إلى أشلاء قنص، وكان أحد بني عجم بن قنص، فجهل النّاس عجم فقالوا لخم، فنفّله سيفه.

وولّى عمرُ بن الخطّاب سعدَ بن أبي وقّاص صلاة ما غلب عليه وحربه، وولّى الخراجَ النعمانَ وسُوَيْداً ابنَيْ مُقرّن، سويداً على ما سقت الفرات، والنعمان على ما سقت دجلة، ثمّ استعفيا، فولّى عملها حُذَيْفة بن أَسِيد وجابر بن عمرو المزنيّ، ثمّ ولّى عملها بعدُ حُذيفةَ بن اليمان وعثمان ابن حُنَيْف.

(حُذيفة بن أَسِيد بفتح الهمزة، وكسر السين).

ذكر وقعة جلولاء وفتح حُلْوان

وفي هذه السنة كانت وقعة جلولاء.

وسببها أنّ الفرس لما انتهوا بعد الهرب من المدائن إلى جلولاء وافترقت (٥٢٠/٢) الطرق بأهل أذربيجان والباب وأهل الجبال وفارس قالوا: لو افترقتم لم تجتمعوا أبداً، وهذا مكان يفرق بيننا، فهلموا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم، فإن كانت لنا فهو الذي نحبّ، وإن كانت الأخرى كنّا قد قضينا الذي علينا وأبلينا عذراً. فاحتفروا خندقاً واجتمعوا فيه على مِهران الرازي، وتقدّم يزدجرد إلى حُلوان وأحاطوا خندقهم بحسك الحديد إلاّ طرقهم. فبلغ ذلك سعداً فأرسل إلى عمر، فكتب إليه عمر: أن سرّحْ هاشم بن عُتْبة إلى جلولاء واجعلْ على مقدّمته القعقاعَ بن عمرو، وإن هزم اللّه الفرس فاجعل القعقاع بين السواد والجبل، وليكن الجند اثني عشر ألفاً.

ففعل سعدٌ ذلك، وسار هاشم من المدائن بعد قسمة الغنيمة في اثني عشر ألفاً، منهم وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب ممّن كان ارتدّ ومن لم يرتدّ، فسار من المدائن فمرّ ببابل مهرُوذ، فصالحه دهقانُها على أن يفرش له جريب الأرض دراهمَ، ففعل وصالحه، ثمّ مضى حتى قدم جلولاء فحاصرهم في خنادقهم وأحاط بهم، وطاولهم الفرس وجعلوا لا يخرجون إلاّ إذا أرادوا، وزاحفهم المسلمون نحو ثمانين يوماً، كلّ ذلك يُنصر المسلمون عليهم، وجعلت الأمداد ترد من يزدجرد إلى مِهران، وأمدّ سعد المسلمين، وخرجت الفرس وقد احتفلوا، فاقتتلوا، فأرسل اللّه عليهم الريح حتى أظلمت عليهم البلاد فتحاجزوا فسقط فرسانهم في الخندق، فجعلوا فيه طرقاً ممّا يليهم يصعد منه خيلهم فأفسدوا حصنهم. وبلغ ذلك المسلمين فنهضوا إليهم، وقاتلوهم قتالاً

شديداً لم يقتتلوا مثله ولا ليلةَ الهرير إلاّ أنّه كان أعجل. وانتهى القعقاع بن عمرو من الوجه الذي زحف فيه إلى باب خندقهم فأخذ به وأمر منادياً فنادى: يا معاشر المسلمين، هذا أميركم قد دخل الخندق وأُخذ به (٥٢١/٢) فأقبلوا إليه ولا يمنعكم مَنْ بينكم وبينه من دخوله. وإنّما أمر بذلك ليقوّي المسلمين. فحملوا ولا يشكّون بأنّ هاشماً في الخندق، فإذا هم بالقعقاع بن عمرو وقد أُخذ به، فانهزم المشركون عن المجال يمنة ويسرة فهلكوا فيما أعدّوا من الحسك، فعُقرت دوابّهم وعادوا رَجّالة واتبعهم المسلمون فلم يفلت منهم إلاّ مَنْ لا يُعَدُّ، وقُتل يومئذٍ منهم مائة ألف، فجلّلت القتلى المجال وما بين يديه وما خلفه فسُمّيتْ جلولاء بما جلّلها من قتلاهم، فهي جلولاء الوقيعة. فسار القعقاع بن عمرو في الطلب حتى بلغ خانقين.

ولما بلغت الهزيمة يزدجرد سار من حُلوان نحو الريّ، وقدم القعقاع حُلوان فنزلها في جند من الأفناء والحمراء، وكان فتح جلولاء في ذي القعدة سنة ستّ عشرة. ولما سار يزدجرد عن حُلوان استخلف عليها خشرشنوم، فلمّا وصل القعقاع قصر شيرين خرج عليه خشرشنوم وقدم إليه الزينبي دهقان حُلوان، فلقيه القعقاع، فقُتل الزينبي وهرب خشرشنوم واستولى المسلمون على حُلوان وبقي القعقاع بها إلى أن تحوّل سعد إلى الكوفة فلحقه القعقاع واستخلف على حُلوان قباذ، وكان أصله خراسانياً.

وكتبوا إلى عمر بالفتح وبنزول القعقاع حُلوان واستأذنوهُ في اتباعهم، فأبى وقال: لوددتُ أنّ بين السواد وبين الجبل سدّاً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم، حسبنا من الريف السواد، إنّي آثرتُ سلامة المسلمين على الأنفال. وأدرك القعقاع في اتباعه الفرس مِهران بخانقين فقتله، وأدرك الفيرزان فنزل وتوغّل في الجبل فتحامى، وأصاب القعقاعُ سبايا فأرسلهنّ إلى هاشم (٥٢٢/٢) فقسمهنّ، فاتُّخذن فولدن، وممّن يُنسب إلى ذلك السبي أُمُّ الشعبيّ.

وقُسمت الغنيمة وأصاب كلّ واحد من الفوارس تسعة آلاف وتسعة من الدوابّ، وقيل: إنّ الغنيمة كانت ثلاثين ألف ألف، فقسمها سلمان بن ربيعة، وبعث سعدٌ بالأخماس إلى عمر، وبعث الحساب مع زياد بن أبيه، فكلّم عمرَ فيما جاء له ووصف له، فقال عمر: هل تستطيع أن تقوم في النّاس بمثل ما كلّمتني به؟ فقال: والله ما على الأرض أهيب في صدري منك، فكيف لا أقوى على هذا من غيرك! فقام في النّاس بما أصابوا وما صنعوا وبما يستأنفون من الانسياح في البلاد. فقال عمر: هذا الخطيب المِصْقع. فقال: إنّ جندنا أطلقوا ألسنتنا.

فلمّا قدم الخمس على عمر قال: واللّه لا يُجنّه سقف حتى أقسمه. فبات عبد الرحمن بن عوف وعبد اللّه بن الأرقم يحرسانه في المسجد، فلمّا أصبح جاء في النّاس فكشف عنه، فلمّا نظر إلى ياقوته وزبرجده وجوهره بكى، فقال له عبد الرحمن بن عوف: ما يُبْكيك يا أمير المؤمنين؟ فواللّه إنّ هذا لموطن شكر. فقال عمر: واللّه ما ذلك يُبكيني، وباللّه ما أعطى اللّه هذا قوماً إلاّ تحاسدوا وتباغضوا، ولا تحاسدوا إلاّ ألقى اللّه بأسَهم بينهم. ومنع عمرُ من قسمة السواد لتعذّر ذلك بسبب الآجام والغياض ومغيض المياه، وما كان لبيوت النّار ولسكك البُرُد، وما كان لكسرى ومن جامعه، وما كان لمن قُتل، والأرحاء؛ وخاف أيضاً الفتنة بين المسلمين، فلم يقسمه ومنع من بيعه لأنّه لم يُقسم، وأقرّوها حبيساً يولونها مَنْ أجمعوا عليه بالرضا، (٥٢٣/٢) وكانوا لا يُجمعون إلاّ على الأمراء، فلا يحلّ بيع شيء من أرض السواد ما بين حُلوان والقادسيّة، واشترى جرير أرضاً على شاطئ الفرات، فردّ عمر ذلك الشراء وكرهه.

ذكر فتح تكريت والموصل

وفي هذه السنة فُتحت تَكْريت في جمادى.

وسبب ذلك أنّ الأنطاق سار من الموصل إلى تكريت وخندق عليه ليحمي أرضه ومعه الروم وإياد وتغلب والنمر والشهارجة، فبلغ ذلك سعداً فكتب إلى عمر، فكتب إليه عمر: أن سَرّحْ إليه عبدَ اللّه بن المُعْتَمّ واستعمل على مقدّمته ربْعيّ بن الأفكل، وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة. فسار عبد اللّه إلى تكريت ونزل على الأنطاق فحصره ومَنْ معه أربعين يوماً، فتزاحفوا أربعة وعشرين زحفاً، وكانوا أهون شوكة من أهل جلولاء، وأرسل عبدُ اللّه بن المعتمّ إلى العرب الذين مع الأنطاق يدعوهم إلى نصرته، وكانوا لا يخفون عليه شيئاً. ولما رأت الروم المسلمين ظاهرين عليهم تركوا أمراءهم ونقلوا متاعهم إلى السفن، فأرسلت تغلب وإياد والنمر إلى عبد اللّه بالخبر وسألوه الأمان وأعلموه أنّهم معه، فأرسل إليهم: إن كنتم صادقين فأسلِموا. فأجابوه وأسلموا. فأرسل إليهم عبدُ اللّه: إذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أنّا أخذنا أبواب الخندق فخذوا الأبواب التي تلي دجلة وكبّروا واقتلوا مَنْ قدرتم عليه.

ونهد عبدُ اللّه والمسلمون وكبّروا وكبّرت تغلب وإياد والنمر وأخذوا الأبواب، فظنّ الروم أنّ المسلمين قد أتوهم من خلفهم ممّا يلي دجلة، فقصدوا (٥٢٤/٢) الأبواب التي عليها المسلمون، فأخذتهم سيوف المسلمين وسيوف الربعيّين الذين أسلموا تلك اللّيلة، فلم يفلت من أهل الخندق إلاّ مَنْ أسلم من تغلب وإياد والنمر. وأرسل عبدُ اللّه بن المعتم ربعيّ بن الأفكل إلى الحصنين، وهما نينوى والموصل، تسمّى نينوى الحصن الشرقيّ وتسمّى الموصل الحصن الغربيّ، وقال: اسبقِ الخبر، وسرّح معه تغلب

وإياد والنمر. فقدمهم ابن الأفكل إلى الحصنين، فسبقوا الخبر وأظهروا الظفر والغنيمة وبشّروهم ووقفوا بالأبواب، وأقبل ابنُ الأفكل فاقتحم عليهم الحصنَين وكلبوا أبوابهما، فنادوا بالإجابة إلى الصلح وصاروا ذمّة. وقسموا الغنيمة فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف درهم، وسهم الراجل ألف درهم، وبعثوا بالأخماس إلى عمر؛ وولّى حربَ الموصل ربعيَّ بن الأفكل، والخراجَ عَرْفجةَ بن هرثمة.

وقيل: إنّ عمر بن الخطّاب استعمل عُتْبة بن فَرْقَد على قصد الموصل، وفتحها سنة عشرين، فأتاها فقاتله أهل نينوى، فأخذ حصنها، وهو الشرقيّ، عنوةً، وعبر دجلة، فصالحه أهل الحصن الغربيّ، وهو الموصل، على الجزية، ثمّ فتح المرج وبانهذرا وباعذرا وجِبْتُون وداسن وجميع معاقل الأكراد وقَرْدى وبازْبدى وجميع أعمال الموصل فصارت للمسلمين.

وقيل: إنّ عياض بن غنم لما فتح بَلَداً، على ما نذكره، أتى الموصل ففتح أحد الحصنين وبعث عتبة بن فرقد إلى الحصن الآخر ففتحه على الجزية والخراج، والله أعلم.

(المُغْتمّ بضمّ الميم، وسكون العين المهملة، وآخره ميم مشدّدة). (٥٢٥/٢)

ذكر فتح ماسَبَذان

ولما رجع هاشم من جلولاء إلى المدائن بلغ سعداً أنّ آذين بن الهُرْمزان قد جمع جمعاً وخرج بهم إلى السهل، فأرسل إليهم ضرار بن الخطّاب في جيش، فالتقوا بسهل ماسبذان فاقتتلوا، فأسرع المسلمون في المشركين، وأخذ ضرار آذينَ أسيراً فضرب رقبته. ثمّ خرج في الطلب حتى انتهى إلى السيروان، فأخذ ما سبذان عنوةً، فهرب أهلها في الجبال، فدعاهم فاستجابوا له، وأقام بها حتى تحوّل سعد إلى الكوفة، فأرسل إليه فنزل الكوفة واستخلف على ماسبذان ابنَ الهُذَيْل الأسديّ، فكانت أحد فروج الكوفة.

وقيل: إنّ فتحها كان بعد وقعة نهاوند.

ذكر فتح قرقيسيا

ولما رجع هاشم من جلولاء إلى المدائن وقد اجتمعت جموع أهل الجزيرة فأمدّوا هِرَقْل على أهل حمص وبعثوا جنداً إلى أهل هيت، أرسل سعد عمرَ بن مالك بن عُتْبة بن نَوفل بن عبد مناف في جند وجعل على مقدّمته الحارث بن يزيد العامريّ، فخرج عمر بن مالك في جنده نحو هيت فنازل مَنْ بها وقد خندقوا عليهم، فلمّا رأى عمرُ بن مالك اعتصامهم بخندقهم ترك الأخبية على حالها وخلّف عليهم الحارث بن يزيد يحاصرهم وخرج في نصف النّاس فجاء قَرْقِيسيا على غرّة فأخذها عنوةً، فأجابوا إلى الجزية، وكتب إلى الحارث (٥٢٦/٢) ابن يزيد: إن هم استجابوا فخلّ عنهم فليخرجوا وإلاّ فخندقْ على خندقهم خندقاً بأبوابه ممّا يليك حتى أرى رأيي. فراسلهم الحارثُ، فأجابوا إلى العود إلى بلادهم، فتركهم وسار الحارث إلى عمر بن مالك.

وفيها غرّب عمر بن الخطّاب أبا محجن الثقفيّ إلى ناصع. وفيها تزوّج ابنُ عمر صفيّة بنت أبي عبيد أخت المختار. وفيها حمى عمر الرَّبَذة لخيل المسلمين. وفيها ماتت مارية أمّ إبراهيم ابن رسول الله، ﷺ، وصلّى عليها عمر ودفنها بالبَقيع في المحرّم. وفيها كتب عمر التاريخ بمشورة عليّ بن أبي طالب.

وحجّ بالنّاس في هذه السنة عمر بن الخطّاب، واستخلف على المدينة زيد بن ثابت. وكان عُماله على البلاد الذين كانوا في السنة قبلها، وكان على حرب الموصل رِبْعيّ بن الأفكل، وعلى خراجها عرفجة بن هرثمة، وقيل: كان على الحرب والخراج بها عُتْبة بن فرقد، وقيل: كان ذلك كلّه إلى عبد الله بن المعتمّ. وعلى الجزيرة عِياض بن غنم. (٥٢٧/٢)

سنة سبع عشرة

ذكر بناء الكوفة والبصرة

في هذه السنة اختُطّت الكوفة وتحوّل سعد إليها من المدائن.

وكان سبب ذلك أنّ سعداً أرسل وفداً إلى عمر بهذه الفتوح المذكورة، فلمّا رآهم عمر سألهم عن تغيّر ألوانهم وحالهم، فقالوا: وخومة البلاد غيّرتنا. فأمرهم عمر أن يرتادوا منزلاً ينزله النّاس، وكان قد حضر مع الوفد نفر من بني تغلب ليعاقدوا عمرَ على قومهم، فقال لهم عمر: أعاقدهم على أنّ مَنْ أسلم منكم كان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، ومَنْ أبى فعليه الجزية. فقالوا: إذنْ يهربون ويصيرون عجماً، وبذلوا له الصدقة، فأبى، فجعلوا جزيتهم مثل صدقة المسلم، فأجابهم على أن لا ينصّروا وليداً، فهاجر هؤلاء التغلبيّون ومَنْ أطاعهم من النمر وإياد إلى سعد بالمدائن ونزلوا بالمدائن ونزلوا معه بعدُ بالكوفة.

وقيل: بل كتب حذيفة إلى عمر: إنّ العرب قد رقّت بطونها وجفّت أعضادها وتغيّرت ألوانها. وكان مع سعد فكتب عمر إلى سعد: أخبرْني ما الذي غيّر ألوان العرب ولحومهم؟ فكتب إليه سعد: إنّ الذي غيّرهم وخومة البلاد، وإنّ العرب لا يوافقها إلاّ ما وافق إبلها من البلدان. فكتب إليه عمر: أن ابعثْ سلمان وحُذَيْفة رائدَين فليرتادا منزلاً بريّاً بحريّاً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر. فأرسلهما سعد، فخرج سلمان حتى يأتي الأنبار فسار في (٥٢٨/٢) غربي الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة، وسار

حذيفة في شرقيّ الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة، وكلّ رمل وحصباء مختلطين فهو كوفة، فأتيا عليها وفيها ديرات ثلاثة: دير حرمة، ودير أمّ عمرو، ودير سلسلة، وخصاص خلال ذلك، فأعجبتهما البقعة فنزلا فصلّيا ودعوا اللّه تعالى أن يجعلها منزل الثبات. فلمّا رجعا إلى سعد بالخبر وقدم كتاب عمر إليه أيضاً كتب سعد إلى القعقاع بن عمرو وعبد اللّه بن المعتم أن يستخلفا على جندهما ويحضرا عنده، ففعلا. فارتحل سعد من المدائن حتى نزل الكوفة في المحرّم سنة سبع عشرة؛ وكان بين نزول الكوفة ووقعة القادسيّة سنة وشهران، وكان فيما بين قيام عمر واختطاط الكوفة ثلاث سنين وثمانية أشهر؛ ولما نزلها سعد كتب إلى عمر: إنّي قد نزلتُ بالكوفة منزلاً فيما بين الحيرة والفرات بريّاً وبحريّاً ينبت الحلفاء والنّصيّ، وخيّرتُ المسلمين بينها وبين المدائن فمَن أعجبه المقام بالمدائن تركته فيها كالمسلحة. ولما استقرّوا بها عرفوا أنفسهم ورجع إليهم ما كانوا فقدوا من قوّتهم، واستأذن أهل الكوفة بنيان في القصب، واستأذن فيه أهل البصرة أيضاً، واستقرّ منزلهم فيها في الشهر الذي نزل أهل الكوفة بعد ثلاث نزلات قبلها.

فكتب إليهم: إنّ العسكر أشدّ لحربكم وأذكر لكم، وما أحبّ أن أخالفكم.

فابتنى أهل المصرَين بالقصب، ثمّ إنّ الحريق وقع في الكوفة والبصرة، وكانت الكوفة أشدّ حريقاً في شوّال، فبعث سعد نفراً منهم إلى عمر يستأذنونه (٥٢٩/٢) في البنيان باللّبن، فقدموا عليه بخبر الحريق واستئذانه أيضاً، فقال: افعلوا ولا يزيدنّ أحدكم على ثلاثة أبيات، ولا تَطاولوا في البنيان، والزموا السنّة تلزمكم الدّولة. فرجع القوم إلى الكوفة بذلك، وكتب عمر إلى البصرة بمثل ذلك.

وكان على تنزيل الكوفة أبو هيّاج بن مالك، وعلى تنزيل البصرة عاصم بن دُلَف أبو الجرباء، وقدّر المناهج أربعين ذراعاً، وما بين ذلك عشرين ذراعاً، والأزقّة سبع أذرع، والقطائع ستّين ذراعاً، وأوّل شيء خُطّ فيهما وبني مسجداهما، وقام في وسطهما رجل شديد النزع، فرمى في كلّ جهة بسهم وأمر أن يبنى ما وراء ذلك، وبنى ظلّة في مقدّمة مسجد الكوفة على أساطين رخام من بناء الأكاسرة في الحيرة، وجعلوا على الصحن خندقاً لئلاّ يقتحمه أحد ببنيان، وبنوا لسعد داراً بحياله، وهي قصر الكوفة اليوم، بناه روزبه من آجرّ بنيان الأكاسرة بالحيرة، وجعل الأسواق على شبه المساجد من سبق إلى مقعدٍ فهو له حتى يقوم منه إلى بيته أو يفرغ من بيعه.

وبلغ عمرَ أنّ سعداً قال وقد سمع أصوات النّاس من الأسواق: سكّنوا عنّي الصُّويت؛ وأنّ النّاس يسمّونه قصر سعدٍ، فبعث محمّدَ بن مَسْلمة إلى الكوفة وأمره أن يخرق باب القصر ثمّ يرجع، ففعل، فبلغ سعداً ذلك فقال: هذا رسول أُرسل لهذا، فاستدعاه سعد، فأبى أن يدخل إليه، فخرج إليه سعد وعرض عليه نفقة، فلم يأخذ وأبلغه كتاب عمر إليه: بلغني أنّك (٥٣٠/٢) اتخذتَ قصراً جعلتَهُ حصناً، ويسمّى قصر سعد، بينك وبين النّاس باب، فليس بقصرك ولكنّه قصر الخَبال، انزل منه [منزلاً] ممّا يلي بيوت الأموال وأغلقه وإلاّ نجعل على القصر باباً يمنع النّاس من دخوله. فحلف له سعد ما قال الذي قالوا، فرجع محمّد فأبلغ عمرَ قول سعدٍ، فصدّقه.

وكانت ثغور الكوفة أربعة: حُلوان وعليها القعقاع، وما سَبَذان وعليها ضِرار ابن الخطّاب، وقَرْقِيسيا وعليها عمر بن مالك، أو عمرو بن عُتبة بن نَوفل، والموصل وعليها عبد اللّه بن المعتمّ، وكان بها خلفاؤهم إذا غابوا عنها؛ وولي سعد الكوفة بعدما اختُطّت ثلاث سنين ونصفاً سوى ما كان بالمدائن قبلها.

ذكر خبر حِمْص حين قصد هرَقْل مَنْ بها من المسلمين

وفي هذه السنة قصد الروم أبا عبيدة بن الجرّاح ومَنْ معه من المسلمين بحمص، وكان المهيّجَ للروم أهلُ الجزيرة، فإنّهم أرسلوا إلى ملكهم وبعثوه على إرسال الجنود إلى الشام ووعدوا من أنفسهم المعاونة، ففعل ذلك. فلمّا سمع المسلمون باجتماعهم ضمّ أبو عبيدة إليه مسالحهم وعسكر بفِناء مدينة حِمص، وأقبل خالد من قنّسرين إليهم، فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة أو التحصين إلى مجيء الغِياث، فأشار خالد بالمناجزة، وأشار سائرهم بالتحصين ومكاتبة عمر، فأطاعهم وكتب إلى عمر بذلك، وكان عمر قد اتخذ في كلّ مصر خيولاً على قدره من فضول أموال المسلمين عُدّة لكون إن كان، فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس، وكان القيّم عليها سلمان بن ربيعة الباهليّ ونفر من أهل الكوفة، وفي كلّ مصر من الأمصار الثمانية على قدره، فإن (٥٣١/٢) تأتهم آتية ركبها النّاس وساروا إلى أن يتجهّز النّاس.

فلمّا سمع عمر الخبر كتب إلى سعد: أن اندبِ النّاس مع القعقاع بن عمرو وسرّحهم من يومهم، فإنّ أبا عبيدة قد أُحيط به. وكتب إليه أيضاً: سرّحْ سُهَيْل بن عديّ إلى الرَّقّة فإنّ أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الرومَ على أهل حمص، وأمره أن يسرّح عبد اللّه بن عِتبان إلى نصيبين، ثمّ ليقصد حرّان والرّهاء، وأن يسرّح الوليد بن عُقْبَة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ، وأن يسرّح عِياض بن غنم، فإن كان قتال فأمرُهم إلى عياض.

فمضى القعقاع في أربعة آلاف من يومهم إلى حمص، وخرج عياض بن غنم وأمراء الجزيرة وأخذوا طريق الجزيرة، وتوجّه كلّ أمير إلى الكورة التي أُمّر عليها، وخرج عمر من المدينة فأتى

الجابية لأبي عبيدة مغيثاً يريد حمص.

ولما بلغ أهلَ الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص، وهم معهم، خبرُ الجنود الإسلاميّة تفرّقوا إلى بلادهم وفارقوا الروم، فلمّا فارقوهم استشار أبو عبيدة خالداً في الخروج إلى الروم، فأشار به، فخرج إليهم فقاتلهم، ففتح اللّه عليه، وقدم القعقاع بن عمرو بعد الوقعة بثلاثة أيّام، فكتبوا إلى عمر بالفتح وبقدوم المدد عليهم والحكم في ذلك، فكتب إليهم: أن اشركوهم فإنّهم نفروا إليكم وانفرق لهم عدوّكم، وقال: جزى اللّه أهل الكوفة خيراً، يكفون حوزتهم ويُمدّون أهل الأمصار. فلمّا فرغوا رجعوا. (٥٣٢/٢)

ذكر فتح الجزيرة وأرمينية

وفي هذه السنة فُتحت الجزيرة.

قد ذكرنا إرسال سعد العساكر إلى الجزيرة، فخرج عياض بن غنم ومَنْ معه فأرسل سُهَيْلَ بن عديّ إلى الرَّقّة وقد ارفضّ أهل الجزيرة عن حمص إلى كورهم حين سمعوا بأهل الكوفة، فنزل عليهم فأقام يحاصرهم حتى صالحوه، فبعثوا في ذلك إلى عِياض وهو في منزل وسط بين الجزيرة، فقبل منهم وصالحهم، وصاروا ذمّةً، وخرج عبد اللّه بن عِتبان على الموصل إلى نَصِيبين، فلقوه بالصلح وصنعوا كصنع أهل الرَّقّة، فكتبوا إلى عِياض فقبل منهم وعقد لهم. وخرج الوليد بن عُقبة فقدم على عرب الجزيرة، فنهض معه مسلمهم وكافرهم إلاّ إياد بن نزار فإنّهم دخلوا أرض الروم، فكتب الوليدُ بذلك إلى عمر.

ولما أخذوا الرقّة ونصيبين ضمّ عياض إليه سُهيلاً وعبد اللّه وسار بالنّاس إلى حرّان، فلمّا وصل أجابه أهلُها إلى الجزية فقبل منهم. ثمّ إنّ عياضاً سرّح سُهيلاً وعبد اللّه إلى الرهاء فأجابوهما إلى الجزية وأجروا كلّ ما أخذوه من الجزيرة عنوةً مجرى الذمّة، فكانت الجزيرة أسهل البلدان فتحاً. ورجع سُهيل وعبد اللّه إلى الكوفة. وكتب أبو عبيدة إلى عمر بعد انصرافه من الجابية يسأله أن يضمّ إليه عِياض بن غنم إذا أخذ خالداً إلى المدينة، فصرفه إليه، فاستعمل حَبيب بن مَسلمة على عجم الجزيرة وحربها، والوليد بن عُقبة على عربها. (٥٣٣/٢)

فلمّا قدم كتاب الوليد على عمر بمن دخل الرومَ من العرب كتب عمر إلى ملك الروم: بلغني أنّ حيّا من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك، فواللّه لتُخرجنّه إلينا أو لنُخرجنّ النصارى إليك. فأخرجهم ملك الروم، فخرج منهم أربعة آلاف وتفرّق بقيّتهم في ما يلي الشام والجزيرة من بلاد الروم، فكلّ إياديّ في أرض العرب من أولئك الأربعة آلاف. وأبى الوليدُ ابنُ عقبة أن يقبل من تغلب إلاّ الإسلام، فكتب فيهم إلى عمر، فكتب إليه عمر: إنّما ذلك بجزيرة العرب لا يُقبل منهم [فيها] إلاّ الإسلام، فدَعْهم على أن لا ينصّروا وليداً ولا يمنعوا أحداً منهم من الإسلام. وكان في تغلب عزّ وامتناع، فهمّ بهم الوليدُ فخاف عمرُ أن يسطوا عليهم فعزله وأمّر عليهم فُرات بن حيّان وهند بن عمرو الجمليّ.

وقال ابن إسحاق: إنّ فتح الجزيرة كان سنة تسع عشرة، وقال: إنّ عمر كتب إلى سعد بن أبي وقّاص: إذا فتح اللّه الشام والعراق فابعثْ جنداً إلى الجزيرة وأمّرْ عليه خالد بن عُرْفُطة أو هاشم بن عُتْبة أو عِياض بن غَنْم. قال سعد: ما أخر أمير المؤمنين عياضاً إلاّ لأنّ له فيه هوىً وأنا موليه؛ فبعثه وبعث معه جيشاً فيه أبو موسى الأشعريّ وابنه عمر بن سعد ليس له من الأمر شيء، فسار عياض ونزل بجنده على الرهاء، فصالحه أهله مصالحة حرّان، وبعث أبا موسى إلى نَصِيبين فافتتحها، وسار عياض بنفسه إلى دارا فافتتحها، ووجّه عثمانَ بن أبي العاص إلى أرمينية الرابعة فقاتل أهلها، فاستُشهد صفوان بن المُعطّل، وصالح أهلُها عثمانَ على الجزية. ثمّ كان فتح قيساريّة من فلسطين وهرب هرقل.

فعلى هذا القول تكون الجزيرة من فتوح أهل العراق، والأكثر على أنّها (٥٣٤/٢) من فتوح أهل الشام، فإنّ أبا عبيدة سيّر عِياضَ بن غَنْم إلى الجزيرة.

وقيل: إنّ أبا عبيدة لما توفيّ استخلف عياضاً فورد عليه كتاب عمر بولايته حمص وقِنّسرين والجزيرة، فسار إلى الجزيرة سنة ثماني عشرة للنصف من شعبان في خمسة آلاف وعلى ميمنته سعيد بن عامر بن حِذْيَم الجُمَحيّ، وعلى ميسرته صفوان بن المعطّل، وعلى مقدّمته هُبَيرة بن مسروق، فانتهت طليعة عياض إلى الرَّقّة فأغاروا على الفلاّحين وحصروا المدينة، وبثّ عياض السرايا فأتوه بالأسرى والأطعمة، وكان حصرها ستّة أيّام، فطلب أهلها الصلح، على أنفسهم وذراريهم وأموالهم ومدينتهم، وقال عياض: الأرض لنا قد وطئناها وملكناها، فأقرّها في أيديهم على الخراج ووضع الجزية. ثمّ سار إلى حرّان فجعل عليها عسكراً يحصرها عليهم صفوان بن المعطّل وحَبيب بن مَسْلمة وسار هو إلى الرهاء، فقاتله أهلها ثمّ انهزموا وحصرهم المسلمون في مدينتهم، فطلب أهلها الصلح فصالحهم، وعاد إلى حرّان فوجد صفوان وحبيباً قد غلبا على حصون وقُرى من أعمال حرّان فصالحه أهلُها على مثل صلح الرّهاء.

وكان عياض يغزو ويعود إلى الرهاء، وفتح سُمَيساط وأتى سَروج ورأس كيفا والأرض البيضاء فصالحه أهلُها على صلح الرهاء. ثمّ إنّ أهل سميساط غدروا، فرجع إليهم عياض فحاصرهم حتى فتحها، ثمّ أتى قُريّات على الفرات، وهي جسر منبج وما يليها، ففتحها وسار إلى رأس عين، وهي عين الوردة، فامتنعت عليه

وتركها وسار إلى تلّ مَوزن، ففتحها على صلح الرهاء سنة تسع عشرة، وسار إلى آمدِ فحصرها، فقاتله أهلها ثمّ صالحوه على صلح الرهاء، وفتح مَيّافارقين على مثل ذلك، وكفر تُوثا، فسار إلى نَصيبين فقاتله أهلُها ثمّ صالحوه على مثل صلح الرهاء، وفتح طور عَبْدين وحصن ماردين، وقصد الموصل ففتح أحد الحصنَين، وقيل: لم يصل إليها، وأتاه بطريق (٥٣٥/٢) الزَّوْزان فصالحه، ثمّ سار إلى أرْزن ففتحها، ودخل الدربَ فأجازه إلى بَذْليس وبلغ خِلاط فصالحه بطريقُها، وانتهى إلى العين الحامضة من أرمينية، ثمّ عاد إلى الرَّقّة ومضى إلى حمص فمات سنة عشرين.

واستعمل عمر سعيد بن عامر بن حِذْيَم، فلم يلبث إلاّ قليلاً حتى مات، فاستعمل عُمَير بن سعد الأنصاريّ، ففتح رأس عين بعد قتال شديد.

وقيل: إنّ عِياضاً أرسل عُمَير بن سعد إلى رأس عين ففتحها بعد أن اشتدّ قتاله عليها. وقيل: إنّ عمر أرسل أبا موسى الأشعريّ إلى رأس عين بعد وفاة عياض. وقيل: إنّ خالد بن الوليد حضر فتح الجزيرة مع عياض ودخل حمّاماً بآمِد فاطّلى بشيء فيه خمر فعزله عمر. وقيل: إنّ خالداً لم يسرْ تحت لواء أحد غير أبي عبيدة. والله أعلم.

ولما فتح عياض سُمَيْساط بعث حَبيب بن مَسْلمة إلى مَلَطْية ففتحها عنوةً، ثمّ نقض أهلُها الصلح، فلمّا ولي معاوية الشام والجزيرة وجّه إليها حَبيبَ بن مسلمة أيضاً ففتحها عنوةً ورتّب فيها جنداً من المسلمين مع عاملها.

ذكر عزل خالد بن الوليد

في هذه السنة، وهي سنة سبع عشرة، عُزل خالد بن الوليد عمّا كان عليه من التقدّم على الجيوش والسرايا.

وسبب ذلك أنّه كان أدرب هو وعياض بن غنم فأصاب أموالاً عظيمة، وكانا توجّها من الجابية مرجعَ عمر إلى المدينة، وعلى حمص أبو عبيدة وخالد تحت يده على قِنّسرين، وعلى دمشق يزيد، وعلى الأردن معاوية، وعلى (٥٣٦/٢) فلسطين علقمة بن مُجزِّز، وعلى الساحل عبد الله بن قيس، فبلغ النّاس ما أصاب خالد فانتجعه رجال، وكان منهم الأشعث بن قيس، فأجازه بعشرة آلاف.

ودخل خالد الحمّام فتدلّك بغسل فيه خمر، فكتب إليه عمر: بلغني أنّك تدلّكت بخمر، وإن الله قد حرّم ظاهر الخمر وباطنه ومسّه فلا تُمِسّوها أجسادكم. فكتب إليه خالد: إنّا قتلناها فعادت غسولاً غير خمر. فكتب إليه عمر: إنّ آل المُغيرة ابتُلوا بالجفاء فلا أماتكم الله عليه.

فلمّا فرّق خالد في الذين انتجعوه الأموالَ سمع بذلك عمر بن الخطاب، وكان لا يخفى عليه شيء من عمله، فدعا عمرُ البريدَ فكتب معه إلى أبي عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يُعلمكم من أين أجاز الأشعث، أمن ماله أم من مال إصابة أصابها ، فإن زعم أنّه فرّقه من إصابة أصابها فقد أقرّ بخيانة، وإن زعم أنّه من ماله فقد أسرف، واعزلْه على كل حال واضمِمْ إليك عمله. فكتب أبو عبيدة إلى خالد، فقدم عليه، ثمّ جمع النّاس وجلس لهم على المنبر، فقام البريد فسأل خالداً من أين أجاز الأشعث، فلم يجبه، وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً، فقام بلال فقال: إنّ أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا، ونزع عمامته، فلم يمنعه سمعاً وطاعة، ووضع قلنسوته، ثمّ أقامه فعقله بعمامته وقال: من أين أجزَت الأشعث، من مالك أجزتَ أم من إصابة أصبتَها؟ فقال: بل من مالي؛ فأطلقه وأعاد قلنسوته ثمّ عمّمه بيده ثمّ قال: نسمع ونُطيع لوُلاتنا ونفخّم ونخدم موالينا.

قال: وأقام خالد متحيّراً لا يدري أمعزول أم غير معزول، ولا يُعلمه أبو عبيدة بذلك تكرمة وتفخمة. فلمّا تأخر قدومه على عمر ظنّ الذي كان، فكتب إلى خالد بالإقبال إليه، فرجع إلى قِنّسرين فخطب النّاس وودّعهم (٥٣٧/٢) ورجع إلى حمص فخطبهم ثمّ سار إلى المدينة، فلمّا قدم على عمر شكاه وقال: قد شكوتُك إلى المسلمين فبالله إنّك في أمري لغير مجمِل. فقال له عمر: من أين هذا الثراء؟ قال: من الأنفال والسهمان، ما زاد على ستّين ألفاً فلك، فقوّم عمر ماله فزاد عشرين ألفاً فجعلها في بيت المال ثمّ قال: يا خالد والله إنّك عليّ لكريم وإنّك إليّ لحبيب. وكتب إلى الأمصار: إنّي لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكنّ النّاس فخّموه وفُتنوا به فخفتُ أن يوكّلوا إليه، فأحببتُ أن يعلموا أنّ الله هو الصانع وأن لا يكونوا بعرض فتنة. وعوّضه عمّا أخذ منه.

ذكر بناء المسجد الحرام والتوسعة فيه

وفيها، أعني سنة سبع عشرة، اعتمر عمر بن الخطّاب وبنى المسجد الحرام ووسّع فيه وأقام بمكّة عشرين ليلة، وهدم على قوم أبوا أن يبيعوا، ووضع أثمان دورهم في بيت المال حتى أخذوها، وكانت عمرته في رجب، واستخلف على المدينة زيدَ بن ثابت، وأمر بتجديد أنصاب الحرم، فأمر بذلك مَخْرمةَ بن نوفل والأزهر بن عبد عوف وحُوَيْطب بن عبد العُزّى وسعيد بن يربوع، واستأذنه أهلُ المياه أن يبنوا منازل بين مكّة والمدينة، فأذن لهم وشرط عليهم أنّ ابن السبيل أحقّ بالظلّ والماء.

وفيها تزوّج عمر أمّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب، وهي ابنة فاطمة بنت رسول الله، ﷺ، ودخل بها في ذي القعدة. (٥٣٨/٢)

ذكر غزوة فارس من البحرين

قيل: كان عمر يقول لما أخذت الأهواز وما يليها: وددتُ أنّ

بيننا وبين فارس حبلاً من نار لا نصل إليهم منه ولا يصلون إلينا.

وقد كان العلاء بن الحضرميّ على البحرين أيّام أبي بكر فعزله عمر وجعل موضعه قُدامة بن مَظْعون، ثمّ عزل قُدامةَ وأعاد العلاء يناوئ سعد بن أبي وقّاص، ففاز العلاء في قتال أهل الرِّدّة بالفضل، فلمّا ظفر سعد بأهل القادسية وأزاح الأكاسرة جاء بأعظم ممّا فعله العلاء، فأراد العلاء أن يصنع في الفرس شيئاً ولم ينظر في الطاعة والمعصية، وقد كان عمر نهاه عن الغزو في البحر ونهى غيره أيضاً اتباعاً لرسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلم، وأبي بكر وخوف الغرر فندب العلاء النّاسَ إلى فارس فأجابوه، وفرّقهم أجناداً، على أحدها الجارود بن المُعلّى، وعلى الآخر سوار بن همّام، وعلى الآخر خُلَيْد بن المنذر بن ساوى، وخُليد على جميع النّاس، وحملهم في البحر إلى فارس بغير إذن عمر، فعبرت الجنود من البحرين إلى فارس، فخرجوا إلى إصطخر وبإزائهم أهل فارس وعليهم الهربذ، فجالت الفرس بين المسلمين وبين سفنهم، فقام خُليد في النّاس فخطبهم ثمّ قال: أمّا بعدُ فإنّ القوم لم يدعوكم إلى حربهم وإنّما جئتم لمحاربتهم والسفن والأرض لمن غلب، فـ﴿اسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاَةِ وانها لَكَبِيرَةٌ إلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٢ الاية ٤٥] فأجابوه إلى ذلك ثمّ صلّوا الظهر ثمّ ناهدوهم فاقتتلوا قتالاً شديداً بمكان (٥٣٩/٢) يُدْعى طاووس فقُتل سوار والجارود.

وكان خُليد قد أمر أصحابه أن يقاتلوا رجّالةً ففعلوا فقُتل من أهل فارس مقتلة عظيمة، ثمّ خرجوا يريدون البصرة ولم يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلاً، وأخذت الفرس منهم طرقهم فعسكروا وامتنعوا.

ولما بلغ عمرَ صنيعُ العلاء أرسل إلى عُتْبة بن غزوان يأمره بإنفاذ جند كثيف إلى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا، وقال فإنّي قد أُلقي في رُوعي كذا وكذا نحو الذي كان، وأمر العلاء بأثقل الأشياء عليه، تأمير سعد عليه.

فشخص العلاء إلى سعد بمن معه، وأرسل عُتبة جيشاً كثيفاً في اثني عشر ألف مقاتل فيهم عاصم بن عمرو وعَرْفجة بن هرثمة والأحنف بن قيس وغيرهم، فخرجوا على البغال يجنبون الخيل وعليهم أبو سَبْرة بن أبي رُهْم أحد بني عامر بن لُؤيّ، فسار بالنّاس وساحل بهم لا يعرض له أحد حتى التقى أبو سبرة وخُلَيْد بحيث أخذ عليهم الطريق عُقَيب وقعة طاووس، وإنّما كان ولي قتالهم أهل إصطخر وحدهم ومن شذّ من غيرهم، وكان أهل إصطخر حيث أخذوا الطريق على المسلمين، فجمعوا أهل فارس عليهم فجاؤوا من كلّ جهة فالتقوا هم وأبو سبرة بعد طاووس وقد توافت إلى المسلمين أمدادهم، وعلى المشركين سهرك، فاقتتلوا ففتح اللّه على المسلمين وقتل المشركين وأصاب المسلمون منهم ما شاؤوا، وهي الغزوة التي شرفت فيها نابتة البصرة، وكانوا أفضل نوابت الأمصار، ثمّ انكفأوا بما أصابوا، وكان عُتبة كتب إليهم بالحثّ وقلة العُرجة، فرجعوا إلى البصرة سالمين.

ولما أحرز عتبة الأهواز وأوطأ فارس استأذن عمرَ في الحجّ فأذن له، فلمّا قضى حجّه استعفاه فأبى أن يُعْفيه وعزم عليه ليرجعنّ إلى عمله، فدعا اللّه ثمّ انصرف، فمات في بطن نخلة فدُفن، وبلغ عمرَ موتُه فمرّ به زائراً لقبره وقال: أنا قتلتُك لولا أنّه أجل معلوم. وأثنى عليه خيراً ولم يختط فيمن (٥٤٠/٢) اختطّ من المهاجرين، وإنّما ورث ولدُه منزلهم من فاختة بنت غزوان وكان تحت عثمان بن عفّان، وكان حُباب مولاه قد لزم شيمته فلم يختطّ، ومات عتبة بن غزوان على رأس ثلاث سنين من مفارقه سعد، وذلك بعد أن استنفذ الجند الذين بفارس ونزولهم البصرة، واستخلف على النّاس أبا سبرة ابن أبي رُهْم بالبصرة، فأقرّه عمر بقيّة السنة، ثمّ استعمل المُغيرة بن شُعْبة عليها، فلم ينتقض عليه أحد ولم يُحْدث شيئاً إلاّ ما كان بينه وبين أبي بكرة، ثمّ استعمل أبا موسى على البصرة، ثمّ صُرف إلى الكوفة ثم استعمل عمر بن سراقة، ثم صرف ابن سراقة إلى الكوفة من البصرة، وصُرف أبو موسى من الكوفة إلى البصرة، فعمل عليها ثانية. وقد تقدّم ذكر ولاية عُتبة بن غزوان البصرة والاختلاف فيها سنة أربع عشرة.

ذكر عزل المغيرة عن البصرة وولاية أبي موسى

في هذه السنة عزل عمرُ المغيرةَ بن شُعْبة عن البصرة واستعمل عليها أبا موسى وأمره أن يُشخص إليه المغيرة بن شعبة في ربيع الأوّل؛ قاله الواقديّ.

وكان سبب عزله أنّه كان بين أبي بَكرة والمغيرة بن شُعبة منافرة، وكانا متجاورين بينهما طريق، وكانا في مشربتَين في كلّ واحدة منهما كّوة مقابلة الأخرى، فاجتمع إلى أبي بكرة نفر يتحدّثون في مشربته، فهبّت الريح ففتحت باب الكّوة، فقام أبو بكَرة ليسدّه فبصر بالمغيرة وقد (٥٤١/٢) فتحت الريح باب كوّة مشربته وهو بين رجلي امرأة، فقال للنفر: قوموا فانظروا. فقاموا فنظروا، وهم أبو بَكرة ونافع بن كَلَدة وزياد بن أبيه، وهو أخو أبي بَكرة لأمّة، وشِبْل بن مَعبد البجليّ، فقال لهم: اشهدوا، قالوا: ومَنْ هذه؟ قال: أمّ جميل بن الأفقم، وكانت من بني عامر بن صَعْصعة، وكانت تُغشي المغيرة والأمراء، وكان بعض النساء يفعلن ذلك في زمانها، فلمّا قامت عرفوها. فلمّا خرج المغيرة إلى الصلاة منعه أبو بكرة وكتب إلى عمر، فبعث عمر أبا موسى أميراً على البصرة وأمره بلزوم السنّة، فقال: أعنّي بعدّة من أصحاب رسول اللّه، ﷺ، فإنّهم في هذه الأمّة كالملح. قال له: خُذْ مَنْ أحببتَ. فأخذ معه

تسعة وعشرين رجلاً، منهم: أنَس بن مالك وعِمران بن حُصَين وهشام بن عامر، وخرج معهم فقدم البصرة فدفع الكتاب بإمارته إلى المغيرة، وهو أوجز كتاب وأبلغه: أمّا بعد فإنّه بلغني نبأ عظيم فبعثتُ أبا موسى أميراً، فسلّمْ إليه ما في يدك والعجل. فأهدى إليه المغيرةُ وليدة تسمّى عقيلة.

ورحل المغيرة ومعه أبو بَكرة والشهود، فقدموا على عمر، فقال له المغيرة: سلْ هؤلاء الأعبُد كيف رأوني أمستقبلهم أم مستدبرهم، وكيف رأوا المرأة أو عرفوها، فإن كانوا مستقبليّ فكيف لم أستتر، أو مستدبريّ فبأيّ شيء استحلّوا النظر إلي في منزلي على امرأتي؟ واللّه ما أتيتُ إلاّ امرأتي! وكانت تشبهها. فشهد أبو بَكرة أنّه رآه على أمّ جميل يدخله كالميل في المكحلة وأنّه رآهما مستدبرين، وشهد شبل ونافع مثل ذلك. وأمّا زياد فإنّه قال: رأيتُه جالساً بين رجلي امرأة فرأيتُ قدمَين مخضوبتَين تخفقان واستين مكشوفتين وسمعتُ حفزاً شديداً. قال: هل رأيت كالميل في المكحلة؟قال: لا. قال: هل تعرف المرأة؟ قال: لا ولكن أشبّهها. قال: فتنحّ. وأمر بالثلاثة فجلدوا (٥٤٢/٢) الحدّ. فقال المغيرة: اشفني من الأعبُد. قال: اسكتْ أسكتَ اللّه نأمتك، أمَا واللّه لو تمّت الشهادة لرجمتُك بأحجارك!

ذكر الخبر عن فتح الأهواز ومناذر ونهر تيرى

وفي هذه السنة فُتحت الأهواز ومَنَاذِر ونهر تِيرى، وقيل: كانت سنة عشرين.

وكان السبب في هذا الفتح أنّه لما انهزم الهُرْمزان يوم القادسيّة، وهو أحد البيوتات السبعة في أهل فارس، وكانت أمته منهم مِهْر جانقَذَق وكور الأهواز، فلمّا انهزم قصد خوزستان فملكها وقاتل بها مَنْ أرادهم، فكان الهرمزان يغير على أهل مَيْسان ودَسْتميسان من مناذر ونهر تيرى. فاستمدّ عُتبة بن غزوان سعداً فأمدّه بنُعَيْم بن مقرِّن ونُعيم بن مسعود وأمرهما أن يأتيا أعلى ميسان ودستميسان حتى يكونا بينهم وبين نهر تيرى، ووجّه عتبةُ ابن غزوان سُلمى بن القين وحرملة بن مُرَيْطَة، وكانا من المهاجرين مع رسول اللّه، ﷺ، وهما من بني العدويّة من بني حنظلة، فنزلا على حدود ميسان ودستميسان بينهم وبين مناذر، ودعوَا بني العم، فخرج إليهم غالب الوائليّ وكُلَيْب بن وائل الكليبي فتركا نُعيماً [ونُعيماً] وأتيا سُلمى وحرملة وقالا: أنتما من العشيرة وليس لكما منزل، فإذا كان يوم كذا وكذا فانهدا للهرمزان، فإن أحدنا يثور بمناذر والآخر بنهر تيرى فنقتل المقاتلة ثمّ يكون وجهنا إليكم، فليس دون الهرمزان شيء إن شاء اللّه، ورجعا وقد استجابا واستجاب قومهما بنو العم بن مالك، وكانوا ينزلون خوزستان قبل الإسلام، فأهل البلاد (٥٤٣/٢) يأمنونهم. فلمّا كان تلك اللّيلة ليلة الموعد بين سُلمى وحرملة وغالب وكُلَيب، وكان الهرمزان يومئذ بين نهر تيرى وبين دُلُث وخرج سلمى وحرملة صبيحتهما في تعبئة وأنهضا نُعيماً ومَنْ معه فالتقوا هم والهرمزان بين دُلُث ونهر تيرى، وسُلمى بن القين على أهل البصرة، ونُعيم بن مقرّن على أهل الكوفة، فاقتتلوا.

فبينا هم على ذلك أقبل مدد من قبل غالب وكليب، وأتى الهرمزانَ الخبرُ بأنّ مناذر ونهر تيرى قد أخذا، فكسر ذلك قلب الهرمزان ومَنْ معه وهزمه اللّه وإيّاهم، فقتل المسلمون منهم ما شاؤوا وأصابوا ما شاؤوا واتّبعوهم حتى وقفوا على شاطئ دُجَيْل وأخذوا ما دونه وعسكروا بحيال سوق الأهواز، وعبر الهرمزان جسر سوق الأهواز وأقام، وصار دجيل بين الهرمزان والمسلمين. فلمّا رأى الهرمزان ما لا طاقة [له] به طلب الصلح، فاستأمروا عُتبةَ، فأجاب إلى ذلك على الأهواز كلّها ومِهْر جانقَذَق ما خلا نهر تيرى ومناذر وما غلبوا عليه من سوق الأهواز فإنّه لا يُرَدّ عليهم، وجعل سُلمى على مناذر مسلحةً وأمْرَها إلى غالب، وحرملةَ على نهر تيرى وأمْرها إلى كليب، فكانا على مسالح البصرة. وهاجرت طوائف من بني العمِ فنزلوا البصرة.

ووفّد عتبة وفداً إلى عمر، منهم: سُلمى وجماعة من أهل البصرة، فأمرهم عمر أن يرفعوا حوائجهم، فكلمّهم قال: أمّا العامّة فأنت صاحبها، وطلبوا لأنفسهم، [إلاّ ما كان من] الأحنف بن قيس فإنّه قال: يا أمير المؤمنين إنّك كما ذكروا، ولقد يعزب عنك ما يحقّ علينا إنهاؤه إليك ممّا فيه صلاح العامّة، وإنّما ينظر الوالي فيما غاب عنه بأعين أهل الخبر (٥٤٤/٢) ويسمع بآذانهم، فإنّ إخواننا من أهل الكوفة نزلوا في مثل حدقة البعير الغاسقة ومن العيون العذاب والجنان الخصاب فتأتيهم ثمارهم ولم يحصدوا. وإنّا معشرَ أهل البصرة نزلنا سبخة هشاشة وعقّة نشاشة، طرفٌ لها في الفلاة وطرف لها في البحر الأُجاج، يجري إليها ما جرى في مثل مريء النعامة، دارنا فَعْمَة، ووظيفتنا ضيِّقة، وعددنا كثير، وأشرافنا قليل، وأهل البلاء فينا كثير، درهمنا كبير، وقفيزنا صغير، وقد وسّع اللّه علينا وزادنا في أرضنا فوسع علينا يا أمير المؤمنين وزدنا وظيفة توظف علينا ونعيش بها. فلمّا سمع عمر قوله أحسن إليهم وأقطعهم ممّا ما كان فيئاً لأهل كسرى وزادهم، ثمّ قال: هذا الفتى سيّد أهل البصرة، وكتب إلى عتبة فيه بأن يسمع منه ويرجع إلى رأيه، وردّهم إلى بلدهم.

وبينا النّاس على ذلك من ذمّتهم مع الهرمزان وقع بين الهرمزان وغالب وكليب في حدود الأرضين اختلاف، فحضر سُلمى وحرملة لينظرا فيما بينهم فوجدا غالباً وكليباً محقّين والهرمزان مبطلاً فحالا بينهما وبينه، فكفر الهرمزان ومنع ما قبله واستعان بالأكراد وكفّ جنده، وكتب سُلمى ومَنْ معه إلى عتبة

بذلك، فكتب عتبة إلى عمر، فكتب إليه عمر يـأمره بقصـده، وأمـدّ المسلمين بحُرْقوص بن زُهَير السعديّ، كانت له صحبة من رسـول اللّه، ﷺ، وأمّره على القتال وعلى ما غلب عليـه. وسـار الهرمـزان ومن معه وسار المسلمون إلى جسر سوق الأهـواز وأرسـلوا إليـه: إمّا أن تعبر إلينا أو نعبر إليكـم. فقـال: اعـبروا إلينـا. فعـبروا فـوق الجسر فاقتتلوا ممّا يلي سوق (٥٤٥/٢) الأهواز. فـانهزم الهرمـزان وسـار إلـى رامَهُرْمـز، وفتـح حرقـوص سـوق الأهـواز ونـزل بهـا واتّسعتْ له بلادها إلى تُستر، ووضـع الجزيـة، وكتـب بـالفتح إلـى عمر وأرسل إليه الأخماس.

ذكر صلح الهرمزان وأهل تستر مع المسلمين

وفي هذه السنة فُتحت تُستْر، وقيل: سـنة سـتّ عشـرة، وقيـل: سنة تسع عشرة.

قيـل: ولمـا انهـزم الهرمـزان يـوم سـوق الأهـواز وافتتحهـا المسلمون بعث حرقوص جَزءَ بن معاوية في أثـره بـأمر عمـر إلـى سوق الأهواز، فما زال يقتلهم حتى انتهى إلى قرية الشعر وأعجـزه الهرمزان، فمال جَزء إلى دَوْرق، وهي مدينة سُرَّق، فأخذهـا صافيـةً ودعا مَنْ هرب إلى الجزية، فأجابوه، وكتب إلى عمر وعُتْبة بذلـك، فكتب عمر إلى حُرْقوص وإليه بالمقام فيما غلبا عليه حتى يأمرهمـا بأمره، فعمر جزء البـلاد وشـقّ الأنهـار وأحيـا المـوات. وراسـلهم الهرمزان يطلب الصلح، فأجاب عمر إلى ذلك وأن يكون ما أخـذه المسـلمون بـأيديهم، ثـمّ اصطلحـوا علـى ذلـك، وأقـام الهرمـزان والمسـلمون يمنعونـه إذا قصـده الأكـراد ويجـيء إليهـم. ونـزل حرقوص جبل الأهواز، وكان يشقّ على النّاس الاختلاف إليه، فبلغ ذلك عمر فكتب إليه يأمره بنزول السهل وأن لا يشـقّ علـى مسـلم ولا معـاهد ولا تدركـك فـترة ولا عجلـة فتكـدر دنيـاك وتذهـب آخرتك. وبقي حرقوص إلـى يـوم صِفّيـن، وصـار حَروريّـاً وشـهد النهروان مع الخوارج. (٥٤٦/٢)

ذكر فتح رامهرمز وتُستر وأسر الهرمزان

قيل: كان فتح رامَهُرْمز وتُستر والسُّوس في سـنة سـبع عشـرة، وقيل: سنة تسع عشرة، وقيل: سنة عشرين.

وكان سبب فتحها أنّ يزدجرد لـم يـزل وهـو بمـرو يُثير أهـل فارس أسفاً على ما خرج من ملكهم، فتحرّكوا وتكاتبوا هـم وأهـل الأهواز وتعاقدوا على النُصرة، فجاءت الأخبارُ حرقوصَ بـن زُهـيَر وجَزءاً وسُلمى وحرملة، فكتبوا إلى عمر بالخبر، فكتـب عمـر إلـى سعد: أن ابعثْ إلى الأهواز جنداً كثيفاً مع النعمان بن مقرّن وعجّلْ فلينزلوا بإزاء الهرمزان ويتحقّقوا أمره. وكتب إلـى أبـي موسـى: أن ابعثْ إلى الأهواز جنداً كثيفاً وأمّرْ عليهم سهل ابن عديّ أخا سُهَيْل وابعثْ معه البَراء بن مالك ومجـزأة بـن ثَـوْر وعرفجـة بـن هرثمـة وغيرهم، وعلى أهل الكوفة والبصرة جميعاً أبو سبرة بن أبي رُهْم.

فخرج النعمان بن مقرّن في أهل الكوفة فسار إلى الأهواز على البغال يجنبون الخيل، فخلّف حُرقوصاً وسُلمى وحرملة وسار نحو الهرمزان وهو برامهرمز. فلمّا سمع الهرمـزان بمسـير النعمـان إليـه بادره الشدّة ورجا أن يقتطعـه ومعـه أهـل فـارس، فـالتقى النعمـان والهرمزان بأرّبُك فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثمّ إنّ اللّه، عـزّ وجـلّ، هـزم الهرمزان فترك رامهرمز ولحق بتُستر، وسار النعمـان إلـى رامهرمـز ونزلها وصعد إلـى إيـذَج، فصالحـه تيروَيْـه (٥٤٧/٢) علـى إيـذج ورجع إلى رامهرمز فأقام بها. ووصـل أهـل البصـرة فـنزلوا سـوق الأهواز وهم يريدون رامهرمـز، فأتـاهم خبـر الوقعـة وهـم بسـوق الأهواز، وأتاهم الخبر أنّ الهرمزان قد لحق بتُستر، فسـاروا نحـوه وسـار النعمـان أيضـاً وسـار حرقـوص وسُـلمى وحرملـة وجَـزء فاجتمعوا على تُستر وبها الهرمزان وجنوده من أهل فارس والجبال والأهواز في الخنادق وأمدهم عمر بأبي موسى وجعلـه علـى أهـل البصرة، وعلى الجميع أبو سبرة، فحاصروهم أشهراً وأكـثروا فيهـم القتل، وقتل البَراءُ بن مالك، وهو أخو أنـس بـن مـالك، فـي ذلـك الحصار إلى الفتح مائةً مبارزةً سوى مَن قتل في غـير ذلـك، وقتـل مثله مجزأة بن ثَوْر وكعب بن ثَوْر وعـدّة مـن أهـل البصـرة وأهـل الكوفة، وزاحفهم المشركون أيّام تُستر ثمانين زحفاً يكون لهم مـرّة ومرّة عليهم. فلمّا كـان فـي آخـر زحـفٍ منهـا واشتدّ القتـال قـال المسلمون: يا بَراء أقسم علـى ربّـك ليهزمنّهـم [لنـا]. قـال: اللهـمّ اهزمهم لنا واستشـهدْني، وكـان مجـاب الدعـوة، فهزموهـم حتـى أدخلوهم خنادقهم ثمّ اقتحموها عليهم ثمّ دخلوا مدينتهـم وأحـاط بها المسلمون.

فبينما هم على ذلك وقد ضاقت المدينة بهـم وطـالت حربهـم خرج رجل إلى النعمان يستأمنه عل أن يدلّه علـى مدخـل يدخلـون منه، ورمى في ناحية أبي موسى بسهم: إن آمنتمونـي دللْتكـم علـى مكان تأتون المدينة منه. فآمنوه في نشّابة. فرمى إليهم بأخرى وقال: انهدوا من قبل مخرج الماء فإنّكم تقتحمونها. فنـدب النّـاس إليـه، فانتدب له عامر بن عبد قيس وبشرٌ كثير ونهدوا لذلك المكان ليـلاً، وقد ندب النعمان أصحابه ليسيروا مـع الرجـل الـذي يدلّهـم علـى المدخل إلى المدينة، فانتدب له بشَرٌ كثير، فالتقوا هم وأهل البصرة على ذلك المخرج، فدخلوا في السرب والنّـاس مـن خـارج. فلمّـا دخلوا المدينة كبّروا (٥٤٨/٢) فيهـا وكبّر المسـلمون مـن خـارج وفُتحت الأبواب فاجتلدوا فيها فأناموا كلّ مقاتل، وقصـد الهرمـزانُ القلعة فتحصّن بها وأطاف به الذين دخلوا، فنزل إليهم علـى حكـم عمر، فأوثقوه واقتسموا ما أفاء اللّـه عليهـم، فكـان سـهم الفـارس ثلاثة آلاف، وسهم الراجل ألفاً. وجاء صاحب الرمية والرجل الذي خرج بنفسه فآمنوهما ومَنْ أغلق بابه معهما.

وقُتل من المسلمين تلك اللّيلة بَشرٌ كثير، وممّن قتل الهرمزان بنفسه مجزأةُ بن ثَوْر والبَراءُ بن مالك. وخرج أبو سبرة بنفسه في أثر المنهزمين إلى السوس ونزل عليها ومعه النعمان بن مقرّن وأبو موسى، وكتبوا إلى عمر فكتب إلى أبي موسى بردّه إلى البصرة، وهي المرّة الثالثة، فانصرف إليها من على السُّوس.

وسار زرّ بن عبد اللّه بن كُلَيْب الفُقَيْميّ إلى جُنْدَ يسابور فنزل عليها، وهو من الصحابة، وأمّر عمرُ على جند البصرة المُقْترب، وهو الأسود بن ربيعة أحد بني ربيعة بن مالك، وهو صحابيّ أيضاً، وكانا مهاجرَين، وكان الأسود قد وفد على رسول اللّه، ﷺ، وقال : جئتُ لأقترب إلى اللّه بصحبتك، فسمّاه المقترب.

وأرسل أبو سبرة وفداً إلى عمر بن الخطّاب فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس ومعهم الهرمزان، فقدموا به المدينة وألبسوه كسوته من الديباج الذي فيه الذهب وتاجه، وكان مكلّلاً بالياقوت، وحليته ليراه عمر والمسلمون، فطلبوا عمر فلم يجدوه، فسألوا عنه فقيل: جلس في المسجد لوفد من الكوفة، فوجدوه في المسجد متوسّداً بُرنسه، وكان قد لبسه للوفد، فلمّا قاموا عنه توسّده ونام، فجلسوا دونه وهو نائم والدِّرّة في يده، فقال الهرمزان: أين عمر؟ قالوا: هو ذا. فقال: أين حرسه وحجّابه ؟ قالوا: ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب. قال: فينبغي أن يكون نبيّاً. قالوا: بل يعمل بعمل الأنبياء. (٥٤٩/٢) فاستيقظ عمر بجلبة النّاس فاستوى جالساً ثمّ نظر إلى الهرمزان، فقال: الهرمزان؟ قالوا: نعم. فقال: الحمد للّه الذي أذّل بالإسلام هذا وغيره أشباهه! فأمر بنزع ما عليه، فنزعوه وألبسوه ثوباً صفيقاً، فقال له عمر: يا هرمزان، كيف رأيتَ عاقبة الغدر وعاقبة أمر اللّه؟ فقال: يا عمر، إنّا وإيّاكم في الجاهليّة كان اللّه قد خلّى بيننا وبينكم فغلبناكم، فلمّا كان الآن معكم غلبتمونا. ثمّ قال له: ما حجّتك وما عذرك في انتقاضك مرّة بعد أخرى؟ فقال: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك. قال: لا تخف ذلك، واستسقى ماء فأُتيَ به في قدح غليظ، فقال: لو متُّ عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا! فأُتي به في إناء يرضاه، فقال: إنّي أخاف أن أُقتل وأنا أشرب. فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه، فأكفأه، فقال عمر: أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه بين القتل والعطش. فقال: لا حاجة لي في الماء إنّما أردتُ أن أستأمن به. فقال عمر له: إنّي قاتلك. فقال: قد آمنتَني. فقال: كذبتَ. قال أنس: صدق يا أمير المؤمنين، قد آمنتَه. قال عمر: يا أنس، أنا أُؤمن قاتل مجزأة بن ثَوْر والبراء بن مالك! واللّه لتأتينّ بمخرج أو لأعاقبنّك. قال: قلتَ له: لا بأسَ عليك حتى تخبرني ولا بأسَ عليك حتى تشربه. وقال له مَنْ حوله مثل ذلك. فأقبل على الهرمزان وقال: خدعتَني، واللّه لا أنخدع إلاّ أن تسلم. فأسلم ، ففرض له في ألفَين وأنزله المدينة؛ وكان المترجم بينهما المُغيرة بن شُعْبة، وكان يفقه [شيئاً من] الفارسيّة، إلى أن جاء المترجم.

وقال عمر للوفد: لعلّ المسلمين يؤذون أهل الذمّة فلهذا ينتقضون بكم؟ قالوا: ما نعلم إلاّ وفاء. قال: فكيف هذا؟ فلم يشفه أحد منهم، إلاّ أنّ (٥٥٠/٢) الأحنف قال له: يا أمير المؤمنين إنّك نهَيْتَنا عن الانسياح في البلاد وإنّ ملك فارس بين أظهرهم ولا يزالون يقاتلوننا ما دام ملكهم فيهم، ولم يجتمع ملكان متّفقان حتى يُخْرج أحدهما صاحبه، وقد رأيتَ أنّا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلاّ بانبعاثهم وغدرهم، وأنّ ملكهم هو الذي يبعثهم، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا بالانسياح فنسيح في بلادهم ونُزيل ملكهم، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس. فقال: صدقتَني واللّه! ونظر في حوائجهم وسرّحهم. وأتى عمر الكتاب باجتماع أهل نِهاوند، فأذن في الانسياح في بلاد الفرس.

وقُتل محمّد بن جعفر بن أبي طالب شهيداً على تُستر في قول بعضهم.

(أرْبُك بفتح الهمزة، وسكون الراء، وضمّ الباء الموحّدة، وفي آخره كاف: موضع عند الأهواز).

ذكر فتح السوس

قيل: ولما نزل أبو سَبْرة على السُّوس وبها شهريار أخو الهرمزان أحاط المسلمون بها وناوشوهم القتال مرّات، كلّ ذلك يصيب أهل السوس في المسلمين، فأشرف عليهم الرهبان والقسيسون فقالوا: يا معشر العرب إنّ ممّا عهد إلينا علماؤنا أنّه لا يفتح السوس إلاّ الدجّال أو قوم فيهم الدجّال، فإن كان فيكم فستفتحونها.

وسار أبو موسى إلى البصرة من السوس وصار مكانَه على أهل البصرة بالسوس المقترب بن ربيعة، واجتمع الأعاجم بنهاوند، والنعمان على أهل (٥٥١/٢) الكوفة محاصراً أهل السوس مع أبي سبرة، وزرٌّ محاصراً أهل جُنْدَ يْسابور. فجاء كتاب عمر بصرف النعمان إلى أهل نهاوند من وجهه ذلك، فناوشهم القتال قبل مسيره، فصاح أهلها بالمسلمين وناوشوهم وغاظوهم، وكان صافي بن صيّاد مع المسلمين في خيل النعمان، فأتى صافي باب السوس فدقّه برجله فقال: انفتح بظار! وهو غضبان، فتقطّعت السلاسل وتكسّرت الأغلاق وتفتّحت الأبواب ودخل المسلمون وألقى المشركون بأيديهم ونادوا: الصلح الصلح. فأجابهم إلى ذلك المسلمون بعدما دخلوها عنوةً، واقتسموا ما أصابوا.

ثمّ افترقوا فسار النعمان حتى أتى نهاوند، وسار المقترب حتى نزل على جنديسابور مع زرّ.

وقيل لأبي سبرة: هذا جسد دانيال في هذه المدينة. قال: وما

عليّ بذلك! فأقرّه في أيديهم.

وكان دانيال قد لزم نواحي فارس بعد بخت نصّر. فلمّا حضرته الوفاة ولم يرَ أحداً على الإسلام أكرم كتاب اللّه عمّنْ لم يجبه فقال لابنه: ائتِ ساحل البحر فاقذفْ بهذا الكتاب فيه، فأخذه الغلام وغاب عنه وعاد وقال له: قد فعلتُ. قال: ما صنع البحر؟ قال: ما صنع شيئاً. فغضب وقال: واللّه ما فعلتَ الذي أمرتُك به! فخرج من عنده وفعل فعلته الأولى. فقال: كيف رأيتَ البحر صنع؟ قال: ماج واصطفق. فغضب أشدّ من الأوّل وقال: واللّه ما فعلتَ الذي أمرتُك به. فعاد إلى البحر وألقاه فيه، فانفلق البحرُ عن الأرض وانفجرت له الأرض عن مثل التنّور، فهوى فيها ثمّ انطبقت عليه واختلط الماء، فلمّا رجع إليه وأخبره بما رأى قال: الآن صدقتَ. ومات (٥٥٢/٢) دانيال بالسوس، وكان هناك يُستسقى بجسده، فاستأذنوا عمر فيه فأمر بدفنه.

وقيل في أمر السُّوس: إنّ يزدجرد سار بعد وقعة جَلولاء فنزل إصطخر ومعه سياه في سبعين من عظماء الفرس فوجّهه إلى السُّوس والهرمزان إلى تُستر، فنزل سياه الكَلْتانيّة، وبلغ أهلَ السوس أمرُ جلولاء ونزول يزدجرد إصطخر، فسألوا أبا موسى الصلح، وكان محاصراً لهم، فصالحهم وسار إلى رامهرمز، ثمّ سار إلى تُستر، ونزل سياه بين رامهرمز وتُستر ودعا مَنْ معه من عظماء الفرس وقال لهم: قد علمتم أنّا كنّا نتحدّث أنّ هؤلاء القوم سيغلبون على هذه المملكة وتروث دوابّهم في إيوانات إصطخر ويشدّون خيولهم في شجرها، وقد غلبوا على ما رأيتم، فانظروا لأنفسكم. قالوا: رأينا رأيك. قال: أرى أن تدخلوا في دينهم. ووجّهوا شيرويْه في عشرة من الأساورة إلى أبي موسى، فشرط عليهم أن يقاتلوا معه العجم ولا يقاتلوا العرب، وإن قاتلهم أحد من العرب منعهم منهم، وينزلوا حيث شاؤوا، ويلحقوا بأشرف العطاء، ويعقد لهم ذلك عمر على أن يُسلموا، فأعطاهم عمر ما سألوا، فأسلموا وشهدوا مع المسلمين حصار تُستر. ومضى سياه إلى حصن قد حاصره المسلمون في زيّ العجم، فألقى نفسه إلى جانب الحصن ونضح ثيابه بالدم، فرآه أهل الحصن صريعاً فظنّوه رجلاً منهم ففتحوا باب الحصن ليُدخلوه إليهم، فوثب وقاتلهم حتى خلّوا عن الحصن وهربوا، فملكه وحده . وقيل: إنّ هذا الفعل كان منه بتستر. (٥٥٣/٢)

ذكر مصالحة جُنْدَ يسابور

وفي هذه السنة سار المسلمون عن السُّوس فنزلوا بجنديسابور، وزرّ بن عبد اللّه محاصرهم، فأقاموا عليها يقاتلونهم، فرُمي إلى مَنْ بها من عسكر المسلمين بالأمان، فلم يفجأ المسلمين إلاّ وقد فُتحت أبوابها وأخرجوا أسواقهم وخرج أهلها، فسألهم المسلمون، فقالوا: رميتم بالأمان فقبلناه وأقررنا بالجزية. فقالوا: ما فعلنا! وسأل المسلمون فإذا عبد يُدْعَى مكثفاً كان أصله منها فعل هذا، فقالوا: هو عبد. فقال أهلها: لا نعرف العبد من الحرّ، وقد قبلنا الجزية وما بدّلنا، فإن شئتم فاغدروا. فكتبوا إلى عمر فأجاز أمانهم فآمنوهم وانصرفوا عنهم.

ذكر مسير المسلمين إلى كرمان وغيرها

قيل: في سنة سبع عشرة أذن عمر للمسلمين في الانسياح في بلاد فارس، وانتهىَ في ذلك إلى رأي الأحنف، فأمر أبا موسى أن يسير من البصرة إلى منقطع ذمّة البصرة فيكون هناك حتى يأتيه أمره، وبعث بألوية مَنْ ولّى مع سهيل بن عديّ، فدفع لواء خراسان إلى الأحنف بن قيس، ولواء أردشير خُرّة وسابور إلى مُجاشع بن مسعود السُّلميّ، ولواء إصطخر إلى عثمان بن أبي العاص الثقفيّ، ولواء فسا ودارابجرد إلى سارية بن زُنَيْم الكنانيّ، ولواء كَرمان إلى سُهَيْل بن عديّ، ولواء سجستان إلى عاصم بن عمرو، وكان من (٥٥٤/٢) الصحابة، ولواء مُكران إلى الحكم بن عُمَير التغلبيّ، فخرجوا ولم يتهيّأ مسيرهم إلى سنة ثماني عشرة، وأمدّهم عمر بنفر من أهل الكوفة، فأمدّ سهيلَ بن عديّ بعبد اللّه بن عِتبان، وأمدّ الاحنف بعلقمة بن النضر وبعبد اللّه بن أبي عقيل وبربعي بن عامر وأمدّ عاصمَ بن عمرو بعبد اللّه بن عمير الأشجعيّ، وأمدّ الحكمَ بن عمير بشهاب بن المخارق في جموع.

وقيل: كان ذلك سنة إحدى وعشرين، وقيل: سنة اثنتين وعشرين، وسنذكر كيفيّة فتحها هناك وذكر أسبابها إن شاء اللّه تعالى.

وكان على مكّة هذه السنة عتّاب بن أُسيد في قول، وعلى اليمن يَعْلى ابن مُنْية، وعلى اليمامة والبحرين عثمان بن أبي العاص، وعلى عُمان حُذَيْفة بن مِحْصن، وعلى الشام مَنْ ذُكر قبلُ، وعلى الكوفة وأرضها سعد بن أبي وقّاص، وعلى قضائها أبو قُرّة، وعلى البصرة وأرضها أبو موسى، وعلى القضاء أبو مريم الحنفيّ، وقد ذُكر مَنْ كان على الجزيرة والموصل قبلُ.

وحجّ بالنّاس في هذه السنة عمر بن الخطّاب. (٥٥٥/٢)

سنة ثمان عشرة

ذكر القحط وعام الرمادة

في سنة ثماني عشرة أصاب النّاسَ مجاعة شديدة، وجدب وقحط، وهو عام الرمادة، وكان الريح تسفي تراباً كالرماد فسُمّي عام الرمادة، واشتدّ الجوع حتى جعلت الوحش تأوي إلى الإنس، وحتى جعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها. وفيه أيضاً كان

طاعون عَمَواس، وفيه ورد كتاب أبي عبيدة على عمر يذكر فيه أنّ نفراً من المسلمين أصابوا الشراب، منهم: ضِرار وأبو جندل، فسألناهم فتابوا، وقالوا: خُيِّرنا فاخترنا. قال: فهل أنتم منتهون؟ ولم يعزم، فكتب إليه عمر: إنّما منعناه، فانتهوا، وقال له: ادعهم على رؤوس النّاس وسلْهم أحلالٌ الخمر أم حرام، فإن قالوا: حرام، فاجلدهم ثمانين ثمانين، وإن قالوا: حلال، فاضرب أعناقهم. فسألهم فقالوا: بل حرامٌ، فجلدهم، وندموا على لجاجتهم، وقال: ليحدثنّ فيكم يا أهل الشام حدث، فحدث عام الرمادة، وأقسم عمر أن لا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يحيَا النّاس. فقدمت السوقَ عُكّةُ سمن ووطب من لبن، فاشتراها غلام لعمر بأربعين درهماً ثمّ أتى عمرَ فقال: يا أمير المؤمنين قد أبرّ اللّه يمينك وعظمَ أجرك، قدم السوقَ وطب من لبن وعُكّة من سمن (٥٥٦/٢) ابتعتهما بأربعين درهماً. فقال عمر: أغليتَ بهما فتصدّقْ بهما فإنّي أكره أن آكل إسرافاً. وقال: كيف يعنيني شأن الرعيّة إذا لم يصبني ما أصابهم!

وكتب عمر إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومَنْ حولها ويستمدّهم، فكان أوّل مَنْ قدم عليه أبو عبيدة بن الجرّاح بأربعة الاف راحلة من طعام، فولاّه قسمتها فيمن حول المدينة، فقسمها وانصرف إلى عمله، وتتابع النّاس واستغنى أهلُ الحجاز، وأصلح عمرو بن العاص بحر القُلزم وأرسل فيه الطعام إلى المدينة، فصار الطعام بالمدينة كسعر مصر، ولم يرَ أهل المدينة بعد الرمادة مثلها حتى حُبس عنهم البحر مع مقتل عثمان، فذلّوا وتقاصروا، وكان النّاس بذلك وعمر كالمحصور عن أهل الأمصار.

فقال أهل بيت من مُزَيْنة لصاحبهم، وهو بلال بن الحارث: قد هلكنا فاذبحْ لنا شاة. قال: ليس فيهنّ شيء. فلم يزالوا به حتى ذبح فسلخ عن عظم أحمر، فنادى: يا محمّداه! فأُري في المنام أنّ رسول اللّه، ﷺ، أتاه فقال: أبشر بالحيا، إيت عمرَ فأقرئه مني السلام وقلْ له إني عهدتُك وأنت وفيُّ العهد شديد العقد، فالكَيس الكَيس يا عمر! فجاء حتى أتى باب عمر فقال لغلامه: استأذن لرسول رسول اللّه، ﷺ، فأتى عمرَ فأخبره، ففزع وقال: رأيتَ به مسّاً؟ قال: لا، فأدخله وأخبره الخبر، فخرج فنادى في النّاس وصعد المنبر فقال: نشدتكم اللّه الذي هداكم هل رأيتم [مني] شيئاً تكرهون؟ قالوا: اللهمّ لا، ولِمَ ذاك فأخبرهم، (٥٥٧/٢) ففطنوا ولم يفطن عمر، فقالوا: إنّما استبطأك في الاستسقاء فاستسق بنا. فنادى في النّاس، وخرج معه العبّاس ماشياً فخطب وأوجز وصلّى ثمّ جثا لركبتَيْه وقال: اللهمّ عجزتْ عنّا أنصارنا وعجز عنّا حولُنا وقوّتنا وعجزت عنّا أنفسنا ولا حول ولا قوّة إلاّ بك، اللهمّ فاسقنا وأحيِ العباد والبلاد! وأخذ بيد العبّاس بن عبد المطلب عم رسول اللّه ﷺ وإن دموع العباس لتتحادر على لحيته، فقال: اللهمّ إنّا نتقرّب إليك بعمّ نبيّك، ﷺ، وبقيّة آبائه وكُبْر رجاله فإنّك تقول وقولك الحقّ: ﴿وَأَمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغلامَيْن يَتِيمَيْنِ في المدينَة﴾[الكهف: ١٨، الآية: ٨٢]. فحفظتَهما بصلاح آبائهما، فاحفظ اللّهم نبيّك، ﷺ، في عمّه، فقد دلونا به إليك مستشفعين مستغفرين. ثمّ أقبل على النّاس فقال: استغفروا ربّكم إنّه كان غفاراً.

وكان العبّاس قد طال عمره وعيناه تذرفان ولحيته تجول على صدره وهو يقول: اللهمّ أنت الراعي فلا تُهمل الضالّة ولا تدع الكسير بدار مضيعة، فقد صرخ الصغير ورقّ الكبير وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السرّ وأخفى، اللهمّ فأغثهم بغناك قبل أن يقنطوا فيهلكوا فإنّه لا ييأس إلاّ القوم الكافرون. فنشأت طريرة من سحاب، فقال النّاس: ترون ترون! ثمّ التأمت ومشت فيها ريح ثمّ هَدَأت ودرّت، فواللّه ما تروّحوا حتى اعتنقوا الجدار وقلّصوا المآزر. فطفق النّاس بالعبّاس يمسحون أركانه ويقولون: هنيئاً لك ساقي الحرمَين! فقال الفضل بن العبّاس بن عُتبة بن أبي لهب:

بعَمّي سقَى اللّهُ الحِجازَ وَأهلَهُ ... غَشيّةَ يَستسقي بشَيْبَتِهِ عُمَرْ

(٥٥٨/٢)

توجّه بالعبّاس في الجدبِ رَاغباً ... إليه فما إن رَام حتى أتى المطَرْ

وَمنّا رَسولُ اللّه فينا تُراثُهُ ... فهَلْ فوقَ هذا للمُفاخرِ مُفتَخَرْ

ذكر طاعون عَمَواس

في هذه السنة كان طاعون عَمَواس بالشام، فمات فيه أبو عبيدة بن الجرّاح، وهو أمير النّاس، ومُعاذ بن جبل، ويزيد بن أبي سفيان، والحارث ابن هشام، وسُهَيْل بن عمرو، وعُتْبة بن سهيل، وعامر بن غَيلان الثقفيّ، مات وأبوه حيّ، وتفانَى النّاس منه.

قال طارق بن شهاب: أتينا أبا موسى في داره بالكوفة نتحدّث عنده فقال: لا عليكم أن تخفُّوا فقد أصيب في الدار إنسان، ولا عليكم أن تَنزّهوا من هذه القرية فتخرجوا في فسح بلادكم ونزهها حتى يُرفع هذا الوباء، وسأخبركم بما يُكرَه ويُتقى، من ذلك أن يظنّ مَن خرج أنّه لو أقام مات، ويظنّ مَن أقام فأصابه لو خرج لم يصبه، فإذا لم يظنّ المسلم هذا فلا عليه أن يخرج؛ إنّي كنتُ مع أبي عبيدة بالشام عام طاعون عَمَواس، فلمّا اشتعل الوجع وبلغ ذلك عمرَ كتب إلى أبي عبيدة ليستخرجه منه: أن سلام عليك، أمّا بعد فقد عرضتْ لي إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها، فعزمتُ عليك إذا أنت نظرتَ في كتابي هذا ألاّ تضعه من يدك حتى تُقْبل. فعرف أبو عبيدة (٥٥٩/٢) ما أراد فكتب إليه: يا أمير المؤمنين، قد عرفتُ حاجتك إليّ وإنّي في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبةً عنه، فلستُ أريد فراقهم حتى يقضي اللّه فيّ وفيهم أمره وقضاءه، فحلّلني من عزيمتك. فلمّا قرأ عمر الكتاب بكى، فقال النّاس: يا أمير المؤمنين، أمات أبو عبيدة؟ فقال: لا، وكأن قد.

وكتب إليه عمر ليرفعنّ بالمسلمين من تلك الأرض، فدعا أبا موسى فقال له: ارتدْ للمسلمين منزلاً. قال: فرجعتُ إلى منزلي لأرتحل فوجدتُ صاحبتي قد أُصيبت. فرجعتُ إليه فقلتُ له: واللّه لقد كان في أهلي حدثٌ فقال: لعلّ صاحبتك أُصيبت؟ قلتُ: نعم. قال: فأمر ببعيره فرُحل له. فلمّا وضع رجله في غرزه طُعن، فقال: واللّه لقد أُصِبْتُ! ثمّ سار بالنّاس حتى نزل الجابية، وكان أبو عبيدة قد قام في النّاس فقال: أيّها النّاس، إنّ هذا الوجع رحمة ربّكم ودعوة نبيّكم وموت الصالحين قبلكم، وإنّ أبا عبيدة سأل اللّه أن يقسم له منه حظّه فطُعن فمات. واستخلف على النّاس مُعاذ بن جبل، فقام خطيباً بعده فقال: أيّها النّاس، إنّ هذا الوجع رحمة ربّكم ودعوة نبيّكم وموت الصالحين قبلكم، وإنّ مُعاذاً يسأل اللّه أن يقسم لآل معاذ حظّهم. فطُعن ابنه عبد الرحمن فمات، ثمّ قام فدعا به لنفسه فطُعن في راحته فلقد كان يقبّلها ثم يقول: ما أُحبّ أنّ لي بما فيك شيئاً من الدنيا. فلمّا مات استخلف على النّاس عمرو بن العاص، فخرج بالنّاس إلى الجبال، ورفعه اللّه عنهم. فلم يكره عمر ذلك من عمرو.

وقد قيل: إنّ عمر بن الخطّاب قدم الشام، فلمّا كان بسَرْغ لقيه أمراء الأجناد فيهم أبو عبيدة بن الجرّاح، فأخبروه بالوباء وشدّته، وكان معه المهاجرون والأنصار، خرج غازياً، فجمع المهاجرين الأوّلين والأنصار فاستشارهم، فاختلفوا عليه، فمنهم القائل: خرجتَ لوجه اللّه فلا يصدّك عنه هذا، ومنهم (٥٦٠/٢) القائل: إنّه بلاء وفناء فلا نرى أن تقدم عليه. فقال لهم: قوموا ثمّ أحضر مهاجرة الفتح من قريش فاستشارهم فلم يختلفوا عليه وأشاروا بالعود، فنادى عمر في النّاس: إنّي مصبح على ظهر. فقال أبو عبيدة: أفراراً من قدر اللّه؟ فقال: نعم نفرّ من قدر اللّه إلى قدر اللّه، أرأيتَ لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان إحداهما مخصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيتَ الخصبة رعيتَها بقدر اللّه وإن رعيتَ الجدبة رعيتَها بقدر اللّه؟ فسمع بهم عبد الرحمن بن عوف فقال: إنّ النبيّ، ﷺ، قال: إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه، وإذا، وقع ببلد وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه فانصرف عمر بالنّاس إلى المدينة.

وهذه الرواية أصحّ، فإن البخاريّ ومسلماً أخرجاها في صحيحيهما، ولأن أبا موسى كان هذه السنة بالبصرة ولم يكن بالشام، لكن هكذا ذكره وإنّما أوردناه لننبه عليه.

(عَمَواس بفتح العين المهملة والميم والواو، وبعد الألف سين مهملة. وسَرْغ بفتح السين المهملة، وسكون الراء المهملة، وآخره غين معجمة).

ومعنى قوله: دعوة نبيّكم، حين جاءه جبرائيل فقال: فناء أمّتك بالطعن أو الطاعون. فقال رسول اللّه، ﷺ، فبالطاعون.

ولما هلك يزيد بن أبي سفيان استعمل عمرُ أخاه معاوية بن أبي سفيان على دمشق واخراجها، واستعمل شُرَحْبيلَ بن حَسَنة على جند الأردنّ وخراجها. وأصاب النّاس من الموت مالم يروا مثله قطّ، وطمع له العدوّ في المسلمين لطول مكثه، مكث شهوراً، وأصاب النّاس بالبصرة مثله، وكان عدّة من مات في طاعون عمواس خمسة وعشرين ألفاً. (٥٦١/٢)

ذكر قدوم عمر إلى الشام بعد الطاعون

لما هلك النّاس في الطاعون كتب أمراء الأجناد إلى عمر بما في أيديهم من المواريث، فجمع النّاس واستشارهم وقال لهم: قد بدا لي أن أطوف على المسلمين في بلدانهم لأنظر في آثارهم، فأشيروا عليّ، وفي القوم كعب الأحبار، وفي تلك السنة أسلم، فقال كعب: يا أمير المؤمنين، بأيّها تريد أن تبدأ؟ قال: بالعراق. قال: فلا تفعلْ فإنّ الشرّ عشرة أجزاء، تسعة منها بالمشرق وجزء بالمغرب، والخير عشرة أجزاء، تسعة بالمغرب وجزء بالمشرق، وبها قرن الشيطان وكلّ داء عُضال. فقال عليّ: يا أمير المؤمنين، إنّ الكوفة للهجرة بعد الهجرة، وإنّها لقبّة الإسلام، ليأتينّها يوم لا يبقى مسلم إلاّ وحن إليها، وليُنصرنّ بأهلها كما انتُصر بالحجارة من قوم لوط. فقال عمر: إنّ مواريث أهل عَمَواس قد ضاعت، أبدأ بالشام فأقسم المواريث وأقيم لهم ما في نفسي ثمّ أرجع فأتقلب في البلاد وأُبدي إليهم أمري.

فسار عن المدينة واستخلف عليها عليّ بن أبي طالب واتخذ أيْلة طريقاً، فلمّا دنا منها ركب بعيره وعلى رحله فرو مقلوب وأعطى غلامَهُ مركبه، فلمّا تلقّاه النّاس قالوا: أين أمير المؤمنين؟ قال: أمامكم، يعني نفسه، فساروا أمامهم، وانتهىَ هو إلى أيْلة فنزلها، وقيل للمتلقين: قد دخل أمير المؤمنين إليها ونزلها، فرجعوا [إليه]. وأعطى عمر الأسقفَ بها قميصه، وقد تخرّق (٥٦٢/٢) ظهره، ليغسله ويرقعه، ففعل وأخذه ولبسه، وخاط له الأسقفُ قميصاً غيره فلم يأخذه. فلمّا قدم الشام قسم الأرزاق، وسمّى الشواتي والصوائف، وسدّ فروج الشام ومسالحها، وأخذ يدورها، واستعمل عبد اللّه بن قيس على السواحل من كلّ كورة، واستعمل معاويةَ، وعزل شُرَحْبيلَ بن حَسَنَة وقام بعذره في النّاس وقال: إنّي لم أعزله عن سخطة ولكنّي أريد رجلاً أقوى من رجل. واستعمل عمرَو بن عُتبة على الأهراء. وقسم مواريث أهل عَمَواس، فورث بعضُ الورثة من بعض، وأخرجها إلى الأحياء من ورثةِ كلّ منهم. وخرج الحارث بن هشام في سبعين من أهل بيته فلم يرجع منهم إلاّ أربعة. ورجع عمر إلى المدينة في ذي القعدة.

ولما كان بالشام وحضرت الصلاة قال له النّاس: لو أمرتَ

بلالاً فأذّن، فأمره فأذّن، فما بقي أحد أدرك النبيّ، ﷺ، وبلال يؤذن إلاّ وبكى حتى بلّ لحيته، وعمر أشدّهم بكاء، وبكى من لم يدركه ببكائهم ولذكرهم رسول اللّه، ﷺ.

قال الواقديّ: إنّ الرهاء وحرّان والرقّة فُتحت هذه السنة على يد عياض بن غنم، وإنّ عين الوردة، وهي رأس عين، فُتحت فيها على يد عُمَير بن سعد، وقد تقدّم شرح فتحها.

في هذه السنة في ذي الحجّة حوّل عمر المقام إلى موضعه اليوم، وكان ملصقاً بالبيت. وفيها استقضى عمرُ شُرَيْحَ بن الحارث الكنديّ على الكوفة، وعلى البصرة كعب بن سور الأزديّ. وكانت الوُلاة على الأمصار الولاة [الذين كانوا عليها] في السنة قبلها. وحجّ بالنّاس عمر بن الخطّاب. (٥٦٣/٢)

سنة تسع عشرة

قال بعضهم: إنّ فتح جَلولاء والمدائن كان [في] هذه السنة [على يد سعد]، وكذلك فتح الجزيرة، وقد تقدّم ذكر فتح الجميع والخلاف فيه. وقيل: فيها كان فتح قيساريّة على يد معاوية، وقيل: سنة عشرين، وقد تقدّم أيضاً ذكر ذلك سنة ستّ عشرة.

وفي هذه السنة سالت حَرّة ليلى، وهي قريب المدينة، ناراً، فأمر عمر بالصدقة، فتصدّق الناس فانطفأت.

وحجّ بالنّاس هذه السنة عمر. وكان عُمّاله فيها مَنْ تقدّم ذكرهم. وفيها قُتل صفوان بن المُعطَّل السُّلميّ، وقيل: بل مات سنة ستّين آخر خلافة معاوية. وفيها مات أبيّ بن كعب، وقيل: بل مات سنة عشرين، وقيل: اثنتين وعشرين، وقيل: اثنتين وثلاثين، واللّه أعلم.(٥٦٤/٢)

سنة عشرين

ذكر فتح مِصْرَ

قيل: في هذه السنة فُتحت مصر في قول بعضهم على يد عمرو بن العاص والإسكندريّة أيضاً، وقيل: فُتحت الإسكندرية سنة خمس وعشرين، وقيل: فُتحت مصر سنة ستّ عشرة في ربيع الأوّل، وبالجملة فينبغي أن يكون فتحها قبل عام الرمادة لأن عمرو بن العاص حمل الطعام في بحر القُلزم من مصر إلى المدينة، واللّه أعلم، وقيل غير ذلك.

وأمّا فتحها فإنّه لما فتح عمرُ بيتَ المقدس وأقام به أياماً وأمضى عمرَو ابن العاص إلى مصر وأتبعه الزبيرَ بن العوّام فأخذ المسلمون باب اليون وساروا إلى مصر فلقيهم هناك أبو مريم، جاثليق مصر، ومعه الأسقفُ بعثه المُقَوْقس لمنع بلادهم، فلمّا نزل بهم عمرو قاتلوه، فأرسل إليهم: لا تعجّلونا حتى نعذر إليكم، وليبرز إليّ أبو مريم وأبو مريام، فكفّوا، وخرجا إليه، فدعاهما إلى الإسلام أو الجزية، وأخبرهما بوصيّة النبيّ، ﷺ، بأهل مصر بسبب هاجر أمّ إسماعيل، عليه السلام، فقالوا: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلاّ الأنبياء آمِناً حتى نرجع إليك. فقال عمرو: مثلي لا يُخدع ولكنّي أؤجّلكما ثلاثاً لتنظر. فقالا: زدْنا، فزادهما يوماً، فرجعا (٥٦٥/٢) إلى المقوقس. فأبى أرطبون أن يجيبهما وأمر بمناهدتهم، فقال لأهل مصر: أمّا نحن فسنجهد أن ندفع عنكم. فلم يفجأ عَمراً إلاّ البيات وهو على عُدّة، فلقوه فقُتل أرطبون وكثير ممّن معه وانهزم الباقون، وسار عمرو والزُّبير إلى عين الشمس وبها جمعهم، وبعث إلى فَرَمَا أبرهةَ بن الصبّاح، وبعث عوفَ بن مالك إلى الإسكندريّة، فنزل عليها. قيل: وكان الإسكندر وفرما أخوَين، ونزل عمرو بعين الشمس، فقال أهل مصر لملكهم: ما تريد إلى قتال قوم هزموا كِسرى وقيصر وغلبوهم على بلادهم! فلا تَعرض لهم ولا تُعرِّضنا [لهم]-وذلك في اليوم الرابع-[فأبى] وناهدوهم وقاتلوهم.

فلمّا التقى المسلمون والمقوقس بعين الشمس واقتتلوا جال المسلمون، فذمرهم عمرو، فقال له رجل من اليمن: إنّا لم نُخْلَق من حديد. فقال له عمرو: اسكت، إنّما أنت كلب. قال: فأنت أمير الكلاب. فنادى عمرو بأصحاب النبيّ، ﷺ، فأجابوه، فقال: تقدّموا فبكم ينصر اللّه، فتقدّموا وفيهم أبو بُردة وأبو بَرْزة وتبعهم النّاس، وفتح اللّه على المسلمين وظفروا وهزموا المشركين، فارتقى الزّبير بن العوّام سورها، فلمّا أحسّوا فتحوا الباب لعمرو وخرجوا إليه مصالحين، فقبل منهم، ونزل الزبير عليهم عنوةً حتى خرج على عمرو من الباب معهم، فاعتقدوا صلحاً بعدما أشرفوا على الهلكة، فأجروا ما أخذوا عنوةً مجرى الصلح فصاروا ذمّة، وأجروا مَنْ دخل في صلحهم من الروم والنُّوبة مجرى أهل مصر، ومن اختار الذهاب فهو آمنٌ حتى يبلغ مأمنه.

واجتمعت خيول المسلمين بمصر وبنوا الفسطاط ونزلوه، وجاء أبو مريم (٥٦٦/٢) وأبو مريام إلى عمرو وطلبا منه السبايا التي أُصيبت بعد المعركة، فطردهما، فقالا: كلّ شيء أصبتموه منذ فارقناكم إلى أن رجعنا إليكم ففي ذمّة، فقال عمرو لهما: أتغيرون علينا وتكونون في ذمّة؟ قالا: نعم. فقسم عمرو بن العاص السبي على النّاس وتفرّق في بلدان العرب. وبعث بالأخماس إلى عمر بن الخطّاب ومعها وفد، فأخبروا عمر بن الخطّاب بحالهم كلّه وبما قال أبو مريم، فردّ عمر عليهم سبي مَنْ لم يقاتلهم في تلك الأيام الأربعة وترك سبي مَنْ قاتلهم فردّوهم.

وحضرت القبطُ باب عمرو، وبلغ عَمراً أنّهم يقولون: ما أرثَ العرب! ما رأينا مثلنا دان لهم. فخاف أن يطمّعهم ذلك فأمر بجُزُر فطُبخت ودعا أمراء الأجناد فأعلموا أصحابهم فحضروا عنده

وأكلوا أكلاً عربيّاً، انتشلوا وحسَوا وهم في العباء بغير سلاح، فازداد طمعهم، وأمر المسلمين[أن] يحضروا الغدّ في ثياب[أهل] مصر وأحذيتهم، ففعلوا، وأذن لأهل مصر فرأوا شيئاً غير ما رأوا بالأمس، وقام عليهم القُوّام بألوان مصر فأكلوا أكل أهل مصر، فارتاب القبط، وبعث أيضاً إلى المسلمين:تسلّحوا للعرض غداً، [وغدا على العرض]، وأذن لهم فعرضهم عليهم وقال لهم: علمتُ حالكم حين رأيتم اقتصاد العرب فخشيتُ أن تهلكوا فأحببت أن أريكم حالهم في أرضهم كيف كانت، ثمّ حالهم في أرضكم، ثمّ حالهم في الحرب، فقد رأيتم ظفرهم بكم وذلك؛ عيشهم وقد كلبوا على بلادكم بما نالوا في اليوم الثاني، فأردتُ أن تعلموا أنّ ما رأيتم في اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثاني وراجعٌ إلى عيش اليوم الأوّل. (٥٦٧/٢) فتفرّقوا وهم يقولون: لقد رمتكم العرب برجلهم. وبلغ عمر ذلك فقال: واللّه إنّ حربه لَلَيِّنة ما لها سطوة ولا سَورة كسورات الحروب من غيره.

ثمّ إنّ عَمراً سار إلى الإسكندريّة، وكان مَن بين الإسكندريّة والفسطاط من الروم والقبط قد تجمّعوا له وقالوا: نغزوه قبل أن يغزونا ويروم الإسكندريّة. فالتقوا واقتتلوا، فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وسار حتى بلغ الإسكندريّة، فوجد أهلها معدّين لقتاله. فأرسل المقوقسُ إلى عمرو يسأله الهدنة إلى مدّة، فلم يجبه إلى ذلك وقال: لقد لقينا ملككم الأكبر هِرقْل فكان منه ما بلغكم. فقال المقوس لأصحابه: صدق فنحن أولى بالإذعان. فأغلظوا له في القوال وامتنعوا، فقاتلهم المسلمون وحصروهم ثلاثة أشهر، وفتحها عمرو عنوةً وغنم ما فيها وجعلهم ذمّةً.

وقيل: إنّ المقوقس صالح عَمراً على اثني عشر ألف دينار على أن يخرج من الإسكندرية من أراد الخروج ويقيم من أراد القيام، وجعل فيها عمرو جنداً.

ولما فُتحت مصر غزوا النُوبة فرجع المسلمون بالجراحات وذهاب الحَدَق لجودة رميهم، فسمّوهم رُماة الحدق.

فلمّا ولي عبد اللّه بن سعد بن أبي سَرْح مصر أيّام عثمان صالحهم على هديّة عدّة رؤوس في كلّ سنة، ويهدي إليهم المسلمون كلّ سنة طعاماً مسمّى وكسوة، وأمضى ذلك الصلحَ عثمانُ ومَن بعده وُلاة الأمور.

وقيل: إنّ المسلمين لما انتهوا إلى بِلْهِيب وقد بلغت سباياهم إلى اليمن أرسل صاحبهم إلى عمرو: إنّي كنتُ أخرج الجزية إلى مَنْ هو أبغض إليّ منكم: فارس والروم، فإن أحببتَ الجزية على أن تردّ ما سبيتم من أرضي (٥٦٨/٢) فعلتُ. فكتب عمرو إلى عمر يستأذنه في ذلك، ورفعوا الحرب إلى أن يرد كتاب عمر. فورد الجواب من عمر: لعمري جزية قائمة أحبّ إلينا من غنيمة تُقسم ثمّ كأنّها لم تكن. وأمّا السبي فإن أعطاك ملكهم الجزية على أن تخيروا مَنْ في أيديكم منهم بين الإسلام ودين قومه فمن اختار الإسلام فهو من المسلمين ومن اختار دين قومه فضعْ عليه الجزية، وأمّا مَنْ تفرّق في البلدان فإنّا لا نقدر على ردّهم. فعرض عمرو ذلك على صاحب الإسكندريّة، فأجاب إليه، فجمعوا السبي واجتمعت النصارى وخيّروهم واحداً واحداً، فمن اختار المسلمين كبّروا، ومن اختار النصارى نخروا وصار عليه جزية، حتى فرغوا.

وكان من السبي أبو مريم عبد اللّه بن عبد الرحمن، فاختار الإسلام وصار عريف زَبيد. وكان ملوك بني أميّة يقولون: إنّ مصر دُخلت عنوةً وأهلها عبيدنا نزيد عليهم شئنا. ولم يكن كذلك.

ذكر عدّة حوادث

وفي هذه السنة، أعني سنة عشرين، غزا أبو بحريّة عبد اللّه بن قيس أرضَ الروم، وهو أوّل مَن دخلها فيما قيل، وقيل أوّل: مَن دخلها مَيْسرة بن (٥٦٩/٢) مسروق العبسي فسبَى وغنم. وقيل: فيها عزل عمر قُدامة بن مَظْعون من البحرين وحدَّه في الخمر واستعمل أبا بَكرة على البحرين واليمامة. وفيها تزّوج عمر فاطمة بنت الوليد أمّ عبد الرحمن بن الحارث بن هشام. وفيها عزل عمر سعد بن أبي وقّاص عن الكوفة لشكايتهم إيّاه وقالوا: لا يُحسن يصلّي. وفيها قسم عمر خَيبر بين المسلمين وأجلى اليهود عنها وقسم وادي القُرى. وفيها أجلى يهود نجران إلى الكوفة. وفيها بعث عمرُ علقمةَ بن مُجزِّز المُدْلجيّ إلى الحبشة، وكانت تطرّقت بلاد الإسلام فأُصيب المسلمون، فجعل عمر على نفسه أن لا يحمل في البحر أحداً أبداً، يعني للغزو، وقيل سنة إحدى وثلاثين.

(مُجزِّز بجيم وزايين الأولى مكسورة مشدّدة).

وفيها مات أُسَيْد بن حُضَير؛ أُسيد تصغير أسد. وحُضَير بالحاء المهملة المضمومة، والضاد المفتوحة، والراء. وفيها مات هرقل وملك ابنه قسطنطين. وفيها ماتت زَيْنب بنت جَحْش ونزل في قبرها أُسامة بن زيد وابن أخيها محمّد بن عبد اللّه بن جحش.

وحجّ بالنّاس عمر. وكان عُمّاله على الأمصار مَنْ كان قبل هذه السنة إلاّ مَنْ ذكرتُ أنّه عزله. وكان قضاته فيها القضاة في السنة قبلها.

وفيها مات عِياض بن غنم، وهو الذي فتح الجزيرة، وهو أوّل مَن أجاز الدرب إلى الروم. وفيها مات بلال بن رباح مؤذّن النبيّ، ﷺ، بدمشق، وقيل بحلب. وفيها مات أُنيس بن مرثد بن أبي مرثد الغنويّ، وله ولأبيه ولجدّه صحبة، وقُتل أبوه في غزوة الرجيع. وفيها مات سعيد بن عامر بن حِذْيَم الجُمَحيّ، شهد فتح خيبر، وكان فاضلاً، وكان على حِمْص حتى مات، وقيل: مات سنة تسع

عشرة، وقيل: سنة إحدى وعشرين وعمره أربعون سنة. وفيها مات أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب. وفيها ماتت صفيّة بنت عبد المطلب عمّة النبيّ، ﷺ. وفيها (٥٧٠/٢) قُتل المُظَهّر بن رافع الأنصاريّ، قدم من الشام ومعه من علوج الشام، فلمّا كان بخيبر أمرهم قومٌ من اليهود فقتلوهم، فأجلاهم عمر.

(المُظَهّر بضمّ الميم، وفتح الظاء المعجمة، وتشديد الهاء، وآخره راء مهملة). (٥/٣)

سنة إحدى وعشرين

ذكر وقعة نهاوند

قيل: فيها كانت وقعة نِهاوَندْ، وقيل: كانت سنة ثماني عشرة، وقيل سنة تسع عشرة.

وكان الذي هيّج أمر نهاوند أنّ المسلمين لما خلصوا جندَ العلاء من بلاد فارس وفتحوا الأهواز كاتبت الفرسُ ملكهم وهو بمرو فحركوه، وكاتب الملوك بين الباب والسِّند وخُراسان وحُلوان، فتحركوا وتكاتبوا واجتمعوا إلى نهاوند، ولمّا وصلها أوائلهم بلغ سعداً الخبر، فكتب إلى عمر، وثار بسعدٍ قومٌ سعوا به وألّبوا عليه، ولم يشغلهم ما نزل بالناس؛ وكان ممّن تحرّك في أمره الجرّاح بن سِنان الأسديُّ في نفر. فقال لهم عمر: واللّه ما يمنعني ما نزل بكم من النظر فيما لديكم. فبعث عمرُ محمدَ بن مسلمة والنّاسُ في الاستعداد للفرس، وكان محمد صاحب العمّال يقتصّ آثار من شكا زمان عمر، فطاف (٦/٣) بسعدٍ على أهل الكوفة يسأل عنه، فما سأل عنه جماعةً إلاّ أثنوا عليه خيراً سوى مَن مالأ الجرّاحَ الأسديّ، فإنّهم سكتوا ولم يقولوا سوءاً ولا يسوغ لهم، حتى انتهى إلى بني عبس فسألهم، فقال أسامة بن قتادة: اللهمّ إنهّ لا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضيّة، ولا يغزو في السرية. فقال سعد: اللهمّ إن كان قالها رياءً وكذباً وسمعة فأعمِ بصره، وأكثِرْ عيالهَ، وعرّضه لمضلاّت الفتن. فعميَ، واجتمع عنده عشر بنات، وكان يسمع بالمرأة فيأتيها حتى يجسها، فإذا عثر عليه قال: دعوة سعْد الرجل المبارك. ثم دعا سعد على أولئك النفر فقال: اللهمّ إن كانوا خرجوا أشراً وبطراً ورياء فاجهدْ بلادهم. فجهدوا، وقُطّع الجرّاح بالسيوف يوم بادر الحسنَ بن عليّ، عليه السّلام، ليغتاله بساباط، وشُدخ قبيصة بالحجارة، وقتل أَرْبَد بالوَجِء ونعال السيوف.

وقال سعد: إنّي أوّلُ رجلٍ أهراقَ دماً من المشركين، ولقد جمع لي رسول اللّه، ﷺ، أبويه وما جمعهما لأحدٍ قبلي، ولقد رأيتني خُمس الإسلام، وبنو أسد تزعم أنّي لا أُحسن أصلي وأن الصيد يلهيني.

وخرج محمد بسعد وبهم معه إلى المدينة فقدموا على عمر فأخبروه الخبر فقال: كيف تصلّي يا سعد؟ قال: أُطيل الأولين وأحذف الأُخريين.فقال: (٧/٣) هكذا الظنُّ بك يا أبا إسحق ولولا الاحتياط لكان سبيلهم بيّناً. وقال: من خليفتك يا سعد على الكوفة؟ فقال: عبد اللّه [بن عبد اللّه] بن عِتْبان. فأقرّه. فكان سبب نهاوند وبعثها زمن سعد.

وأما الوقعةُ فهي زمن عبد اللّه، فنفرت الأعاجم بكتاب يزدجرد فاجتمعوا بنهاوند على الفيرزان في خمسين ألفاً ومائة ألف مقاتل، وكان سعد كتب إلى عمر بالخبر ثمّ شافهه به لماً قدم عليه وقال له: إنّ أهل الكوفة يستأذنوك في الانسياح وأن يبدؤوهم بالشدة ليكون أهيب لهم على عدوّهم.

فجمع عمرُ النّاسَ واستشارهم، وقال لهم: هذا يوم له ما بعده، وقد هممتُ أن أسير فيمن قِبلَي ومن قدرت عليه فأنزل منزلاً وسطاً بين هذين المصرين ثمّ أستنفرهم وأكون لهم رِدءاً حتى يفتح اللّه عليهم ويقضي ما أحبّ، فان فتح اللّه عليهم صببتهم في بلدانهم.

فقال طلحة بن عبيد اللّه: يا أميرَ المؤمنين قد أحكمتك الأمورُ، وعجمتك البلابلُ، واحتنكتك التجاربُ، وأنت وشأنك ورأيك، لا ننبو في يديك ولا نكل عليك، إليك هذا الأمر، فمُرْنا نُطِعْ وادعنا نجبْ واحملنا نركبْ وقدْنا نَقْدْ، فإنّك ولّي هذا الأمر، وقد بلوتَ وجرّبتَ واحتربت فلم ينكشف شيء من عواقب قضاء اللّه لك إلاّ عن خيارهم. ثمّ جلس.

فعاد عمر، فقام عثمان فقال: يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم، وإلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم، ثمّ تسير(٨/٣)أنت بأهل الحرمين إلى الكوفة والبصرة فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين، فإنك إذا سرتَ قلّ عندك ما قد تكاثر من عدد القوم وكنتَ أعزّ عزاً وأكثر. يا أمير المؤمنين، إنّك لا تستبقي بعد نفسك من العرب باقية، ولا تمتع من الدنيا بعزيز ،ولا تلوذ منها بحريز. إن هذا يوم له ما بعده من الأيّام، فاشهده برأيك وأعوانك ولا تغب عنه. وجلس.

فعاد [عمر] فقام إليه عليّ بن أبي طالب فقال: أمّا بعدُ يا أميرَ المؤمنين فإنّك إن أشخصتَ أهلَ الشام من شامهم سارت الرومُ إلى ذراريهم، وإن أشخصتَ أهلَ اليمن من يَمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم، وإنّك إن شخصتَ من هذه الأرض انتقضتْ عليك العربُ من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك أهمّ إليك ممّا بين يديك من العورات والغيالات، أقرِرْ هؤلاء في أمصارهم واكتب إلى أهل البصرة فليتفرّقوا ثلاث فِرَق: فرقة في حُرَمهم وذراريهم، وفرقة في أهل عهدهم حتى لا ينتقضوا، ولتسِرْ فرقةٌ إلى إخوانهم بالكوفة مَدداً لهم، إنّ الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا: هذا أمير المؤمنين أمير العرب وأصلها، فكان ذلك أشدّ لكلَبهم

عليك. وأمّا ما ذكرتَ من مسير القوم فإنّ اللّه هو أكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأمّا عددهم فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكن بالنصر.

فقال عمر: هذا هو الرأي، كنت أحبّ أن أُتابع عليه، فأشيروا عليّ برجل أوليه.

وقيل: إن طلحة وعثمان وغيرهما أشاروا عليه بالمقام. واللّه أعلم.

فلمّا قال عمر: أشيروا عليّ برجل أوليه ذلك الثغر وليكن عراقيّاً، قالوا: أنت أعلم بجندك وقد وفدوا عليك. فقال: واللّه لأولينّ أمرهم رجلاً يكون (٩/٣) أوّل الأسِنّة إذا لقيها غداً. فقيل: مَن هو؟ فقال: هو النُعمان بن مقرّن المزني. فقالوا: هو لها.

وكان النُعمان يومئذ معه جمعٌ من أهل الكوفة قد اقتحموا جُنديسابور والسُّوس. فكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى ماه لتجتمع الجيوش عليه، فإذا اجتمعوا إليه سار بهم إلى الفيرزان ومَن معه. وقيل بل كان النعمان بِكَسْكَر. فكتب إلى عمر يسأله أن يعزله ويبعثه إلى جيش من المسلمين. فكتب إليه عمر يأمره بنهاوند، فسار.

فكتب عمر إلى عبد اللّه بن عبد اللّه بن عِتْبان ليستنفر الناسَ مع النعمان كذا وكذا ويجتمعوا عليه بماه. فندب الناس، فكان أسرعهم إلى ذلك الروادف ليبلوا في الدّين وليدركوا حظّاً.

فخرج النّاس منها وعليهم حذيفةُ بن اليمان ومعه نُعيم بن مقرّن حتى قدموا على النّعمان، وتقدّم عمر إلى الجند الذين كانوا بالأهواز ليشغلوا فارساً عن المسلمين وعليهم المقترب وحرملة وزرّ، فأقاموا بتخوم أصبهان وفارس وقطعوا أمداد فارس عن أهل نهاوند، واجتمع الناس على النعمان وفيهم حذيفة بن اليمان وابن عمر وجرير بن عبد اللّه البجليّ والمُغيرة بن شُعبة وغيرهم، فأرسل النعمان طُلَيحة بن خويلد وعمرو بن معد يكرب وعمرو بن ثني، وهو ابن أبي سَلمى، ليأتوه بخبرهم. وخرجوا وساروا يوماً إلى الليل، فرجع إليه عمرو بن ثني، فقالوا: ما رجعك؟ فقال: لم أكن في أرض العجم، وقتلتْ أرضٌ جاهلَها وقتل أرضاً عالمها. ومضى طليحة وعمرو(١٠/٣)ابن معديكرب.

فلمّا كان آخر الليل رجع عمرو، فقالوا: ما رجعك؟ قال: سِرنا يوماً وليلةً ولم نرَ شيئاً فرجعتُ. ومضى طُليحة حتى انتهى إلى نهاوند. وبين موضع المسلمين الذي هم به ونهاوند بضعة وعشرون فرسخاً. فقال الناسُ: ارتدّ طُليحة الثانية. فعلم كلامَ القوم ورجع. فلمّا رأوه كبّروا. فقال: ما شأنكم؟ فأعلموه بالذي خافوا عليه. فقال: واللّه لو لم يكن دين إلاّ العربيّ ما كنت لأجزر العجم الطماطم هذه العرب العاربة. فأعلم النعمان أنّه ليس بينهم وبين نهاوند شيء يكرهه ولا أحد.

فرحل النعمان وعبى أصحابه، وهم ثلاثون ألفاً، فجعل على مقدّمته نُعيم بن مُقرّن وعلى مُجَنِّبَتَيه حُذيفة بن اليمان وسويد بن مقرّن، وعلى المجرّدة القعقاع بن عمرو، وعلى الساقة مجاشع بن مسعود. وقد توافت إليه أمدادُ المدينة فيهم المغيرة بن شعبة، فانتهوا إلى إسبيذهان والفرس وقوف على تعبيتهم، وأميرهم الفيرزان وعلى مُجنّبَتيه الزردق وبهمن جاذوَيْه الذي جُعل مكان ذي الحاجب. وقد توافى إليهم الأمدادُ بنهاوند كلّ من غاب عن القادسيّة ليسوا بدونهم، فلمّا رآهم النعمان كبّر وكبّر معه النّاس فتزلزلت الأعاجمُ وحطّت العرب الأثقالَ وضُرب فسطاطُ النعمان، فابتدر أشراف الكوفة فضربوه، منهم: حذيفة بن اليمان، وعقبة بن عامر، والمغيرة بن شعبة، وبُشير بن الخصاصيّة، وحنظلة الكاتب، وجرير بن عبد اللّه البجليّ، والأشعث بن قيس، وسعيد بن قيس الهمداني، ووائل بن حُجر وغيرهم. فلم يُرَ بَنّاء فسطاط بالعراق كهؤلاء. (١١/٣)

وأنشبَ النُعمان القتالَ بعد حطّ الأثقال، فاقتتلوا يوم الأربعاء ويوم الخميس والحرب بينهم سِجالٌ وإنّهم انجحروا في خنادقهم يوم الجمعة، وحصرهم المسلمون وأقاموا عليهم ما شاء اللّه، والفرس بالخيار لا يخرجون إلاّ إذا أرادوا الخروج، فخاف المسلمون أن يطول أمرهم، حتى إذا كان ذات يوم في جمعة من الجمع تجمّع أهلُ الرأي من المسلمين وقالوا: نراهم علينا بالخيار. وأتَوا النعمان في ذلك فوافوه وهو يروي في الذي رووا فيه فأخبروه، فبعث إلى من بقي من أهل النجدات والرأي فأحضرهم، فتكلّم النعمان فقال: قد ترون المشركين واعتصامهم بخنادقهم ومدنهم وأنّهم لا يخرجون إلينا إلاّ إذا شاؤوا ولا يقدر المسلمون على إخراجهم، وقد تَرَون الذي فيه المسلمون من التضايق، فما الرأي الذي به نستخرجهم إلى المناجزة وترك التطويل ؟

فتكلمّ عمرو بن ثني، وكان أكبر الناس، وكانوا يتكلمّون على الأسنان، فقال: التحصّن عليهم أشدّ من المطاولة عليكم فدعهم وقاتل مَن أتاك منهم. فردوا عليه رأيه.

وتكلّم عمرو بن معد يكرب فقال: ناهِدْهم وكابِرْهم ولا تخفهم، فردّوا جميعاً عليه رأيه وقالوا: إنّما يناطح بنا الجدران وهي أعوان علينا.

وقال طُليحة: أرى أن نبعث خيلاً لينشبوا القتال فإذا اختلطوا بهم رجعوا إلينا استطراداً فإنّا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم، فإذا رأوا ذلك طمعوا وخرجوا فقاتلناهم حتى يقضيَ اللّه فيهم وفينا

ما أحبّ.

فأمر[النعمانُ] القعقاعَ بن عمرو، وكان على المجرّدة، فأنشب القتال،(١٢/٣)فأخرجهم من خنادقهم كأنّهم جبال حديد قد تواثقوا أن لا يفروا، وقد قرن بعضهُم بعضاً كلّ سبعة في قران و ألقوا حسكَ الحديد خلفهم لئلاّ ينهزموا. فلمّا خرجوا نكص ثمّ نكص واغتنمها الأعاجم ففعلوا كما ظنّ طليحة وقالوا: هي هي، فلم يبقَ أحد إلاّ مَن يقوم على الأبواب وركبوهم. ولحق القعقاع بالناس، وانقطع الفرسُ عن حصنهم بعض الانقطاع والمسلمون على تعبية في يوم جمعة صدْر النهار، وقد عهد النعمان إلى الناس عهده وأمرهم أن يلزموا الأرض ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم، ففعلوا واستتروا بالحجف من الرمي، وأقبل المشركون عليهم يرمونهم حتى أفشوا فيهم الجراح.

وشكا بعض الناس وقالوا للنعمان: ألا ترى ما نحن فيه فما تنتظر بهم؟ ائذن للناس في قتالهم. فقال: رويداً رويداً. وانتظر النعمان بالقتال أحبّ الساعات كانت إلى رسول اللّه، ﷺ، أن يلقى العدوّ فيها وذلك عند الزوال، فلمّا كان قريباً من تلك الساعة ركب فرسه وسار في الناس ووقف على كلّ راية يذكّرهم ويحرّضهم ويمنّيهم الظفر، وقال لهم: إنّي مكبّر ثلاثاً فإذا كبّرتُ الثالثة فإنّي حامل فاحملوا، وإن قُتلتُ فالأميرُ بعدي حُذيفة، فإن قُتل ففلان، حتى عدّ سبعة آخرهم المغيرة. ثمّ قال: اللهمّ أعزز دينك، وانصر عبادَك، واجعل النعمان أوّل شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك.

وقيل: بل قال: اللهمّ إنّي أسألك أن تُقرّ عيني اليومَ بفتح يكون فيه عزّ الإسلام واقبضني شهيداً. فبكى الناسُ. ورجع إلى موقفه فكبّر ثلاثاً والناس سامعون مطيعون مستعدون للقتال، وحمل النعمان والناسُ معه وانقضت رايتهُ انقضاض العُقاب والنعمان معُلم ببياض القباء والقلنسوة، فاقتتلوا قتالاً(١٣/٣)شديداً لم يسمع السامعون بوقعة كانت أشدّ منها، وما كان يسمع إلاّ وقع الحديد، وصبر لهم المسلمون صبراً عظيماً، وانهزم الأعاجم وقتل منهم ما بين الزوال والإعتام ما طبّق أرض المعركة دماً يُزلق الناس والدواب.

فلمّا أقرّ اللّه عينَ النعمان بالفتح استجاب له فقُتل شهيداً، زلق به فرسه فصرع. وقيل: بل رُمي بسهم في خاصرته فقتله، فسجّاه أخوه نعُيم بثوب، وأخذ الراية وناولها حذيفة، فأخذها وتقدم إلى موضع النعمان وترك نعُيماً مكانه. وقال لهم المغيرة: اكتموا مصاب أميركم حتى ننتظر ما يصنعُ اللّه فينا وفيهم لئلاّ يهن الناسُ. فاقتتلوا. فلمّا أظلم الليل عليهم انهزم المشركون وذهبوا ولزمهم المسلمون وعميَ عليهم قصدُهم فتركوه وأخذوا نحو اللّهب الذي كانوا دونه بأسبيذهان فوقعوا فيه، فكان الواحد منهم يقع فيقع عليه ستة بعضهم على بعضهم في قياد واحد فيُقتلون جميعاً، وجعل يعقرُهم حسكُ الحديد، فمات منهم في اللّهب مائة ألف أو يزيدون سوى من قتُل في المعركة.

وقيل: قتُل في اللّهب ثمانون ألفاً وفي المعركة ثلاثون ألفاً سوى من قتل في الطلب، ولم يفلت إلاّ الشريد، ونجا الفيرزان من بين الصرعى فهرب نحو همذان، فاتبعه نعُيم بن مقرّن، وقدم القعقاع قدامه فأدركه بثنية همذان، وهي إذ ذاك مشحونة من بغال وحمير موقرة عسلاً، فحبسه الدواب على أجله. فلمّا لم يجد طريقاً نزل عن دابته وصعد في الجبل، فتبعه القعقاع راجلاً(١٤/٣) فأدركه فقتله المسلمون على الثنية وقالوا: إنّ للّه جنوداً من عسل. واستاقوا العسل وما معه من الأحمال. وسميت الثنية ثنية العسل.

ودخل المشركون همذان والمسلمون في آثارهم فنزلوا عليها وأخذوا ما حولها. فلما رأى ذلك خُسْرَوْشُنُوم استأمنهم، ولما تم الظفر للمسلمين جعلوا يسألون عن أميرهم النعمان بن مقرّن، فقال لهم أخوه معقل: هذا أميركم قد أقر اللّه عينَه بالفتح وختم له بالشهادة فاتبعوا حُذيفة.

ودخل المسلمون نهاوند يوم الوقعة بعد الهزيمة واحتووا ما فيها من الأمتعة وغيرها وما حولها من الأسلاب والأثاث وجمعوا إلى صاحب الأقباض السائب ابن الأقرع. وانتظر منَ بنهاوند ما يأتيهم من إخوانهم الذين على همذان مع القعقاع ونعُيم، فأتاهم الهرْبذ صاحب بيت النار على أمان، فأبلغ حذيفة، فقال: أتؤمني ومَن شئتُ على أن أخرجَ لك ذخيرةً لكسرى ترُكت عندي لنوائب الزمان؟ قال: نعم. فأحضر جوهراً نفيساً في سفَطَيْن، فأرسلهما مع الأخماس إلى عمر. وكان حذيفة قد نفل منها وأرسل الباقي مع السائب بن الأقرع الثقفي، وكان كاتباً حاسباً، أرسله عمر إليهم وقال له: إن فتح اللّه عليكم فاقسم على المسلمين فيئَهم وخُذِ الخمس، وإن هلك هذا الجيش فاذهب فبطنُ الأرض خيرٌ من ظهرها.

قال السائب: فلمّا فتح اللّه على المسلمين وأحضر الفارسي السفطين اللذين أودعهما عنده النخير جان فإذا فيهما اللؤلؤ والزبرجد والياقوت، فلمّا فرغت(١٥/٣)من القسمة احتملتهما معي وقدمتُ على عمر، وكان قد قدر الوقعة فبات يتململ ويخرج ويتوقع الأخبار، فبينما رجل من المسلمين قد خرج في بعض حوائجه فرجع إلى المدينة ليلاً، فمرّ به راكب فسأله: من أين أقبل؟ فقال: من نهاوند، وأخبره بالفتح وقتل النعمان، فلمّا أصبح الرجل تحدث بهذا بعد ثلاث من الوقعة، فبلغ الخبر عمر فسأله فأخبره، فقال: ذلك بريد الجنّ.

ثمّ قدم البريد بعد ذلك فأخبره بما يسرّه ولم يخبره بقتل النعمان. قال السائب: فخرج عمر من الغد يتوقع الأخبار. قال: فأتيته فقال: ما وراءك؟ فقلتُ: خيراً يا أمير المؤمنين، فتح اللّه عليك وأعظم الفتح، واستشهد النعمان بن مقرن. فقال عمر: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. ثمّ بكى فنشج حتى بانت فروع كتفَيْه فوق كَبِدِهِ. قال: فلمّا رأيتُ ذلك وما لقي قلتُ: يا أمير المؤمنين ما أصيب بعده رجل يُعرف وجهه. فقال: أولئك المستضعَفون من المسلمين ولكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم، وما يصنع أولئك بمعرفة عمر! ثمّ أخبرته بالسفطين فقال: أدخلهما بيت المال حتى ننظر في شأنهما والحق بجندك. قال: ففعلتُ وخرجتُ سريعاً إلى الكوفة.

وبات عمر، فلمّا أصبح بعث في أثري رسولاً فما أدركني حتى دخلتُ الكوفة فأنختُ بعيري وأناخ بعيرَه على عرقوبَي بعيري فقال: الحقْ بأمير المؤمنين، فقد بعثني في طلبك فلم أقدر عليك إلاّ الآن. قال: فركبتُ معه فقدمتُ على عمر، فلمّا رآني قال: إليَّ وما لي وللسائب! قلت: ولماذا؟ قال ويحك واللّه ما هو إلاّ أن نمتُ الليلةَ التي خرجتَ فيها فباتت الملائكة(١٦/٣)تستحبني إلى السفُّطَيْن يشتعلان ناراً فيقولون: لنكوينّك بهما، فأقول: إني سأقسمهما بين المسلمين. فخذهما عني فبعهما في أعطية المسلمين وأرزاقهم. قال: فخرجتُ بهما فوضعتهما في مسجد الكوفة، فابتاعهما مني عمرو بن حريث المخزومي بألفي ألف درهم، ثمّ خرج بهما إلى أرض الأعاجم فباعهما بأربعة آلاف ألف، فما زال أكثرَ أهل الكوفة مالاً. وكان سهم الفارس بنهاوند ستة آلاف وسهم الراجل ألفين.

ولما قدم سبيُ نهاوند المدينةَ جعل أبو لؤلؤة غلامُ المغيرة بن شعبة لا يلقى منهم صغيراً إلاّ ومسح رأسه وبكى وقال له: أكل عمرُ كبدي! وكان من نهاوند فأسرته الروم وأسره المسلمون من الروم فنُسب إلى حيث سُبي.

وكان المسلمون يسمّون فتح نهاوند فتح الفتوح لأنّه لم يكن للفرس بعده اجتماع. وملك المسلمون بلادهم.

ذكر فتح الدينور والصَّيْمَرة وغيرهما

لما انصرف أبو موسى من نهاوند، وكان قد جاء مدداً على بعث أهل البَصْرة، فمرّ بالدينور فأقام عليها خمسة أيّام وصالحه أهلُها على الجزية ومضى فصالحه أهلُ سِيروَان على مثل صلحهم، وبعث السائبَ بن الأقرع الثقفيَّ إلى الصَّيْمَرة مدينة مِهْرجان قَذَق ففتحها صلحاً، وقيل: إنّه وجّه السائبَ من الأهواز ففتح ولاية مهرجان قذق.(١٧/٣)

ذكر فتح همذان والماهَين وغيرهما

لما انهزم المشركون دخل من سلم منهم همذان وحاصرهم نُعَيم بن مقرِّن والقعقاع بن عمرو. فلمّا رأى ذلك خُسْرَوْ شُنُوم استأمنهم وقبل منهم الجزية على أن يضمن منهم همذان ودَسْتَبَى وألاّ يؤتى المسلمون منهم، فأجابوه إلى ذلك وآمنوه ومن معه من الفرس، وأقبل كلّ من كان هرب، وبلغ الخبر الماهَين بفتح همذان وملكها ونزول نعيم والقعقاع بها، فاقتدوا بخسروشنوم فراسلوا حذيفة فأجابهم إلى ما طلبوا وأجمعوا على القبول وأجمعوا على إتيان حُذيفة، فخدعهم دينار وهو أحد أولئك الملوك، وكان أشرفهم قارن، وقال: لا تلقوهم في جمالكم، ففعلوا، وخالفهم فأتاهم في الديباج والحلى فأعطاهم حاجاتهم، واحتمل المسلمون ما أرادوا وعاقدوه عليهم، ولم يجد الآخرون بدّاً من متابعته والدخول في أمره، فقيل ماه دينار لذلك. وكان النُّعمان بن مقرّن قد عاقد بهراذان على مثل ذلك فنسب إلى بهرذان، وكان قد وكّل النُّسير بن ثور بقلعة قد لجأ إليها قوم فجاهدهم فافتتحها فنسبت إلى النُّسير وهو تصغير نسر.

قيل: دخل دينار الكوفة أيّام معاوية فقال: يا أهل الكوفة إنّكم أوّل ما مررتم بنا كنتم خيار النّاس فبقيتم كذلك زمن عمر وعثمان، ثم تغيرتم وفشتْ فيكم خصالٌ أربع: بخل، وخبٌ، وغدر، وضيق، ولم يكن فيكم واحدة منهن ، وقد رمقتكم فرأيتُ ذلك في مولديكم فعلمتُ من أين أُتيتم، فإذا الخبّ من قبل النبط، والبخل من قبل فارس، والغدر من قبل خراسان، والضيق من قبل الأهواز.(١٨/٣)

ذكر دخول المسلمين بلاد الأعاجم

وفيها أمر عمرُ المسلمين بالانسياح في بلاد العجم وطلب الفرس أين كانوا، وقيل: كان ذلك سنة ثماني عشرة، وقد تقدمّ ذكره. وسبب ذلك ما كان من يزدجرد وبعثه الجنود مرّة بعد أخرى، فوجّه الأمراء من أهل البَصْرة وأهل الكوفة بعد فتح نهاوند، وكان بين عمل سعد وعمل عمّار أميران، أحدهما عبد اللّه بن عبد اللّه بن عِتْبان، وفي زمانه كانت وقعة نهاوند، والآخر زياد بن حنظلة حليف بني عبد بن قُصَيّ، وفي زمانه أمر بالانسياح وعزل عبد اللّه وبعُث في وجه آخر، وولي زياد، وكان من المهاجرين، فعمل قليلاً وألحّ في الاستعفاء فأعفاه عمر وولّى عمّار بن ياسر وكتب معه إلى أهل الكوفة: إنّي بعثتُ عماراً أميراً وجعلتُ معه ابن مسعود معلماً. وكان ابن مسعود بحمص فسيره عمرُ إلى الكوفة، وأمدّ أهلَ البصرة بعبد اللّه بن عبد اللّه، وأمدّ أهلَ الكوفة بأبي موسى. وكان أهل همذان قد كفروا بعد الصلح، فبعث عمر لواءً إلى نعيم بن مُقرّن وأمره بقصد همذان، فإذا فتحها سار إلى ما وراء ذلك إلى خراسان، وبعث عتْبة بن فرقد وبُكير بن عبد اللّه إلى أذربيجان،

يدخل أحدهما من حلوان والآخر من الموصل، وبعث عبد اللّه بن عبد اللّه إلى أصبهان، وأمّر عمرُ سُراقةَ على البَصْرة.

ذكر فتح أصبهان

وفيها بعث عمر إليها عبد اللّه بن عبد اللّه بن عِتْبان، وكان شجاعاً من أشراف الصحابة ومن وجوه الأنصار حليفاً لبني الحبلى، وأمدّه بأبي موسى، وجعل على مُجَنِّبتيه عبد اللّه بن ورقاء الرياحيّ وعصمة بن عبد اللّه، فساروا إلى نهاوند، ورجع حذيفة إلى عمله على ما سقت دجلةُ وما وراءها، وسار(١٩/٣)عبد اللّه فيمن كان معه ومن تبعه من جند النعمان بنهاوند نحو أصبهان، وعلى جندها الاسبيدان، وعلى مقدمته شهريار بن جاذَوَيْه، شيخ كبير، في جمع عظيم، ومقدمة المشركين برستاق لأصبهان، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ودعا الشيخُ إلى البراز، فبرز له عبد اللّه بن ورقاء الرياحي فقتله، وانهزم أهل أصبهان، فسمي ذلك الرستاق رستاق الشيخ إلى اليوم، وصالحهم الاسبيدان على رستاق الشيخ، وهو أوّل رستاق أُخذ من أصبهان.

ثمّ سار عبد اللّه إلى مدينة جَيّ وهي مدينة أصبهان، فانتهى إليها والملك بأصبهان الفاذوسفان، فنزل بالناس على جَيّ وحاصرها وقاتلها، ثم صالحه الفاذوسفان على أصبهان وأن على من أقام الجزية وأقام على ماله وأن يُجرَى من أخذت أرضه عنوة مجراهم ومن أبىَ وذهب كان لكم أرضه، وقدم أبو موسى على عبد اللّه من ناحية الأهواز وقد صالح، فخرج القومُ من جَيّ ودخلوا في الذمّة إلاّ ثلاثين رجلاً من أهل أصبهان لحقوا بكَرْمان. ودخل عبد اللّه وأبو موسى جَيّاً، وكتب بذلك إلى عمر. فقدم كتاب عمر إلى عبد اللّه: أن سِرْ حتى تقدم على سهيل بن عديّ فتكون معه على قتال مَن بكَرْمان، فسار واستخلف على أصبهان السائبَ بن الأقرع، ولحق بسهيل قبل أن يصل إلى كرمان.

قيل: وقد رُوي عن مَعقِل بن يسَار أن الأمير كان على الجند الذين فتحوا أصبهان النعمان بن مقرن، وأن عمر أرسله من المدينة إلى أصبهان وكتب إلى أهل الكوفة أن يمدّوه، فسار إلى أصبهان وبها ملكها ذو الحاجبين، فأرسل إليه المغيرة بن شعبة وعاد من عنده فقاتلهم وقُتلَ النعمان ووقع ذو الحاجبين عن دابّته فانشقّت بطنه وانهزم أصحابه. قال معقل: فأتيت النعمان وهو صريع(٢٠/٣)فجعلتُ عليه علماً. فلمّا انهزم المشركون أتيته، ومعي إداوة فيها ماء، فغسلت عن وجهه التراب فقال، ما فعل الناس؟ فقلت: فتح اللّه عليهم. قال: الحمد لله! ومات.

هكذا في هذه الرواية، والصحيح أن النعمان قُتل بنهاوند وافتتح أبو موسى قُمّ وقاشان.

ذكر ولاية المُغيرة بن شُعبة على الكوفة

وفيها ولّى عمرُ عمّارَ بن ياسر على الكوفة، وابنَ مسعود على بيت المال. فشكا أهلُ الكوفة عمّاراً، فاستعفى عمّار عمر بن الخطّاب، فولّى عمرُ جبير بن مُطعِم الكوفة، وقال له: لا تذكره لأحد. فسمع المغيرة بن شعبة أن عمر خلا بجبير، فأرسل امرأته إلى امرأة جبير بن مطعم لتعرض عليها طعامَ السفر، ففعلت، فقالت: نعم ما حييتني به. فلمّا علم المغيرة جاء إلى عمر فقال له: بارك اللّه لك فيمن ولّيت! وأخبره الخبر فعزله وولّى المغيرة بن شعبة الكوفة، فلم يزل عليها حتى مات عمر. وقيل: إن عمّاراً عُزل سنة اثنتين وعشرين وولّي بعده أبو موسى. وسيرد ذكره إن شاء اللّه تعالى.

ذكر عدّة حوادث

قيل: وفيها بعث عمرو بن العاص عُقبةَ بن نافع الفِهريّ فافتتح زَويلَةَ صلحاً، وما بين بَرْقة وزَويلة سلم للمسلمين. وقيل: سنة عشرين.

كان الأمراء في هذه السنة: عمير بن سعد على دمشق وحوران وحمص(٢١/٣) وقنسرين والجزيرة، ومعاوية على البلقاء والأردن وفلسطين والسواحل وأنطاكية وقلقية ومَعَرّة مَصْرين، وعند ذلك صالح أبو هاشم بن عتبة بن ربيعة على قلقية وأنطاكية ومعرّة مَصْرين.

وفيها ولد الحسن البصري والشعبي.

وحجّ بالناس عمر بن الخطّاب، واستخلف على المدينة زيد بن ثابت. وكان عامله على مكّة والطائف واليمن واليمامة ومصر والبصرة من كان قبل ذلك، وكان على الكوفة عمّار بن ياسر، وشُريح على القضاء.

وفيها بعث عثمان بن أبي العاص بعثاً إلى ساحل فارس فحاربوهم ومعهم الجارود العبدي، فقُتل الجارود بعقبة تعُرف بعقبة الجارود، وقيل: بل قتل بنهاوند مع النعمان.

وفيها مات حممة، وهو من الصّحابة، بأصبهان بعد فتحها، والعلاءُ بن الحضرمي وهو على البحرين، فاستعمل عمرُ مكانه أبا هريرة. وفيها مات خالد بن الوليد بحمص وأوصى إلى عمر بن الخطّاب، وقيل: مات سنة ثلاث وعشرين، وقيل: مات بالمدينة. والأوّل أصحّ.(٢٢/٣)

سنة اثنتين وعشرين

في هذه السنة افتتحت أذربيجان، وقيل: سنة ثماني عشرة بعد

فتح همذان والريّ وجُرْجان، فنبدأ بذكر فتح هذه البلاد ثم نذكر أذربيجان بعدها.

ذكر فتح همذان ثانياً

قد تقدّم مسير نُعيم بن مقرّن إلى همذان وفتحها على يده ويد القعقاع بن عمرو، فلمّا رجعا عنها كفر أهلها مع خُسْرَوشُنُوم، فلما قدم عهد نعُيم من عند عمر ودّع حذيفة وسار يريد همذان وعاد حذيفة إلى الكوفة، فخرج نعيم بن مقرّن على تعبية إلى همذان فاستولى على بلادها جميعاً وحاصرها، فلمّا رأى أهلُها ذلك سألوا الصلح ففعل وقبل منهم الجزية. وقد قيل: إن فتحها كان سنة أربع وعشرين بعد مقتل عمر بستة أشهر. فبينما نعيم بهمذان في اثني عشر ألفاً من الجند كاتب الديلم وأهل الريّ وأذربيجان، إذ خرج موتا في الديلم حتى نزل بواج روذ، وأقبل الزينبي أبو الفرّخان في أهل الريّ، وأقبل أسفنديار أخو رستم في أهل أذربيجان، فاجتمعوا وتحصّن منهم أمراء المسالح وبعثوا إلى(٢٣/٣)نعيم بالخبر، فاستخلف يزيدَ بن قيس الهمدانيّ وخرج إليهم، فاقتتلوا بواج روذ قتالاً شديداً، وكانت وقعة عظيمة تعُدل بنهاوند، فانهزم الفرس هزيمة قبيحة وقتل منهم مقتلة كبيرة لا يُحصَون، فأرسلوا إلى عمر مبشراً، فأمر عمر نعيماً بقصد الريّ وقتال من بها والمقام بها بعد فتحها، وقيل: إن المغيرة بن شُعبة، وهو عامل على الكوفة، أرسل جريرَ ابن عبد الله إلى همذان فقاتله أهلها وأُصيبت عينه بسهم فقال احتسبتها عند الله الذي زيّن بها وجهي ونوّر لي ما شاء ثمّ سلبنيها في سبيله. ثمّ فتحها على مثل صلح نهاوند وغلب على أرضها قسراً وقيل كان فتحها على يد المغيرة بنفسه، وكان جرير على مقدمته. وقيل: فتحها قرظة بن كعب الأنصاري.

ذكر فتح قزوين وزنجان

لما سيّر المغيرة جريراً إلى همذان ففتحها سيّر البراءَ بن عازب في جيش إلى قزوين وأمره أن يسير إليها فإن فتحها غزا الديلم منها، وإنّما كان مغزاهم قبل من دَسْتَبى. فسار البراءُ حتى أتىَ أبهر، وهو حصن، فقاتلوه ثمّ طلبوا الأمان فآمنَهم وصالحهم ،ثمّ غزا قزوين، فلمّا بلغ أهلَها الخبر أرسلوا إلى الديلم يطلبون النصرة فوعوهم، ووصل المسلمون إليهم فخرجوا لقتالهم والديلم وقوفٌ على الجبل لا يمدوّن يداً، فلمّا رأى أهل قزوين ذلك طلبوا الصلح على صلح أبهر، وقال بعض المسلمين :

قَـد عَلِـمَ الدَّيلَـمُ إذْ تحـارِبْ ... حينَ أتـىَ فـي جَيْشِـهِ ابـنُ عـازِبْ
بـانَ ظَـنّ المشـركِين كـاذِبْ ... فكَـمْ قطَعنـا فـي دُجـى الغَيـاهِبْ
مِنْ جَبَلٍ وَعْرٍ ومِن سَباسِبْ (٢٤/٣)

وغزا البراءُ الديلمَ حتى أدّوا إليه الإتاوة، وغزا جيلانَ والطَّيلسان، وفتح زَنْجان عَنوةً. ولما ولي الوَليد بن عقبة الكوفة غزا الديلم وجيلان ومُوقان والبَبَر والطيلسان ثمّ انصرف.

ذكر فتح الريّ

ثم انصرف نعيم من واج روذ حتى قدم الريّ وخرج الزينبي أبو الفرّخان من الريّ فلقي نعيماً طالباً الصلح ومسالماً له ومخالفاً لملك الريّ وهو سياوخش بن مهران بن بهرام جوبين، فاستمدّ سياوخش أهل دُنْباوَنْد وطبرستان وقُومس وجرجان فأمدّوه خوفاً من المسلمين، فالتقوا مع المسلمين في سفح جبل الريّ إلى جنب مدينتها، فاقتتلوا به، وكان الزينبي قال لنعيم: إن القوم كثير وأنت في قلّة فابعثْ معي خيلاً أدخل بهم مدينتهم من مدخل لا يشعرون به، وناهِدْهم أنت فإنّهم إذا خرجنا عليهم لم يثبتوا لك. فبعث معه نعيم خيلاً من الليل عليهم ابن أخيه المنذر بن عمرو، فأدخلهم الزينبي المدينة ولا يشعر القومُ وبيتهم نعيم بياتاً فشغلهم عن مدينتهم، فاقتتلوا وصبروا له حتى سمعوا التكبير من ورائهم فانهزموا فقُتلوا مقتلة عدوا بالقصب فيها، وأفاء الله على المسلمين بالريّ نحواً مما في المدائن وصالحه الزينبيّ على الريّ، ومَرْزَبَهُ عليهم نعيمٌ، فلم يزل شرف الريّ في أهل الزينبيّ، وأخرب نعيم مدينتهم، وهي التي يقال لها العتيقة، وأمر الزينبي فبنى مدينة الريّ الحدثى. وكتب نعيم إلى عمر بالفتح وأنفذ الأخماس، وكان البشير المضارب العجلي، وراسله المصمغان في الصلح على شيء يفتدي به منه على دنباوند، فأجابه إلى ذلك.

وقد قيل: إن فتح الريّ كان على يد قَرْظة بن كعب، وقيل: كان فتحها سنة إحدى وعشرين. وقيل غير ذلك. والله أعلم.(٢٥/٣)

ذكر فتح قُومس وجُرْجان وطبرستان

لما أرسل نعيم إلى عمر بالبشارة وأخماس الريّ كتب إليه عمر يأمره بإرسال أخيه سويد بن مقرّن ومعه هند بن عمرو الجملي وغيره إلى قُومس، فسار سويد نحو قومس، فلم يقم له أحد، فأخذهما سلماً وعسكر بها، وكاتبه الذين لجؤوا إلى طَبَرستان منهم والذين أخذوا المفاوز، فأجابهم إلى الصلح والجزية وكتب لهم بذلك. ثمّ سار سويد إلى جُرجان فعسكر بها ببسطام وكتب إلى ملك جرجان، وهو زرنان صول، وكاتبه زرنان صول وصالحه على جرُجان على الجزية وكفاية حرب جرجان وأن يُعينه سويد إن غُلب، فأجابه سويد إلى ذلك، وتلقاه زرنان صول قبل دخوله جرجان فدخل معه وعسكر بها حتىَ جبَى الخراج وسمى فروجها فسدها بتُرك دهستان، ورفع الجزية عمّن قام بمنعها وأخذها من الباقين.

وقيل: كان فتحها سنة ثماني عشرة. وقيل: سنة ثلاثين زمن عثمان.

قيل: وراسل الأصبهبذ صاحب طبرستان سويداً في الصلح على أن يتوادعا ويجعل له شيئاً على غير نصر ولا معونة على أحد، فقبل ذلك منه وكتب له كتاباً.

ذكر فتح طرابلس الغرب وبرقة

في هذه السنة سار عمرُو بن العاص من مصر إلى بَرْقة فصالحه أهلُها على الجزية وأن يبيعوا من أبنائهم من أرادوا بيعه. فلمّا فرغ من برقة سار إلى طرابلس الغرب فحاصرها شهراً فلم يظفر بها، وكان قد نزل شرقيها، فخرج رجل من(٢٦/٣)بني مُدلج يتصيّد في سبعة نفر وسلكوا غرب المدينة، فلمّا رجعوا اشتدّ عليهم الحرّ فأخذوا على جانب البحر، ولم يكن السور متصلاً بالبحر، وكانت سفن الروم في مرساها مقابل بيوتهم، فرأى المدلجي وأصحابه مسلكاً بين البحر والبلد فدخلوا منه وكبّروا، فلم يكن للروم ملجأ إلاّ سفنهم لأنّهم ظنوا أن المسلمين قد دخلوا البلد، ونظر عمرو ومن معه فرأى السيوف في المدينة وسمعوا الصياح، فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم البلد، فلم يفلت الرومُ إلا بما خف معهم في مراكبهم.

وكان أهل حصن سَبْرة قد تحصنوا لما نزل عمرو على طرابلس، فلمّا امتنعوا عليه بطرابلس أمنوا واطمأنّوا، فلمّا فُتحت طرابلس جنّد عمرو عسكراً كثيفاً وسيّره إلى سبرة، فصبحوها وقد فتح أهلها الباب وأخرجوا مواشيهم لتسرحَ لأنّهم لم يكن بلغهم خبر طرابلس، فوقع المسلمون عليهم ودخلوا البلد مكابرةً وغنموا ما فيه وعادوا إلى عمرو. ثمّ سار عمرو بن العاص إلى برقة وبها لُواتة، وهم من البربر.

وكان سبب مسير البربر إليها والى غيرها من الغرب أنّهم كانوا بنواحي فلسطين من الشام وكان ملكهم جالوت، فلمّا قُتل سارت البرابر وطلبوا الغرب حتى إذا انتهوا إلى لوبية ومَرَاقية، وهما كورتان من كور مصر الغربيّة، تفرقوا فسارت زناتة ومغيلة، وهما قبيلتان من البربر، إلى الغرب فسكنوا الجبال، وسكنت لُواتة أرض برقة، وتُعرف قديماً بأنطابلُس، وانتشروا فيها حتى بلغوا السوس، ونزلت هوارة مدينة لَبْدَة، ونزلت نفوسة إلى مدينة سَبْرة وجلا من كان بها من الروم لذلك، وقام الأفارق، وهم خدم الروم، على صلح يؤدّونه إلى من غلب على بلادهم. وسار عمرو بن العاص، كما ذكرنا، فصالحه أهلُها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها جزيةً وشرطوا أن يبيعوا من أرادوا من أولادهم في جزيتهم. (٢٧/٣)

ذكر فتح أذربيجان

قال: فلمّا افتتح نعيم الريّ بعث سماك بن خَرَشة الأنصاري، وليس بأبي دُجانة، ممدّاً لبُكير بن عبد اللّه بأذربيجان، أمره عمر بذلك، فسار سماك نحو بُكير، وكان بُكير حين بُعث إليها سار حتى إذا طلع بجبال جرميذان طلع عليهم اسفنديار بن فرُخزاذ مهزوماً من واج رود، فكان أوّل قتال لقيه بأذربيجان، فاقتتلوا، فهزم الفرس وأخذ بُكير اسفنديار أسيراً. فقال له اسفنديار: الصلح أحبّ إليك أم الحرب؟ قال: بل الصلح. قال: أمسكني عندك فإن أهل أذربيجان إن لم أصالح عليهم أو أجيء إليهم لم يقوموا لك وجلوا إلى الجبال التي حولها، ومن كان على التحصّن تحصّن الى يوم ما. فأمسكه عنده، وصارت البلاد إليه إلاّ ما كان من حصن. وقدم عليه سِماك بن خرشة ممدّاً واسفنديار في إساره وقد افتتح ما يليه، وافتتح عتبة بن فرقد ما يليه.

وكتب بُكير إلى عمر يستأذنه في التقدّم، فأذن له أن يتقدّم نحو الباب، وأن يستخلف على ما افتتحه، فاستخلف عليه عتْبةَ بن فرقد، فأقرّ عتْبةُ سماكَ بن خرشة على عمل بكير الذي كان افتتحه، وجمع عمر أذربيجان كلهّا لعتبة بن فرقد.

وكان بهرام بن فرُخزاذ قصد طريق عتبة وأقام به في عسكره حتى قدم عليه عتبة، فاقتتلوا، فانهزم بهرام، فلمّا بلغ خبره اسفنديار وهو في الأسر عند بكير قال: الآن تمّ الصلحُ وطفئت الحرب. فصالحه وأجاب إلى ذلك أهل أذربيجان كلهم، وعادت أذربيجان سلماً. وكتب بذلك بكير وعتبة إلى عمر وبعثا بما خمسا. ولما جمع عمرُ لعتبة عمل بكير كتب لأهل أذربيجان كتاباً بالصلح.

وفيها قدم عتبة على عمر بالخبيص الذي كان أُهدي له.(٢٨/٣)

وكان عمر يأخذ عماله بموافاة الموسم كلّ سنة يمنعهم بذلك عن الظلم.

ذكر فتح الباب

في هذه السنة كان فتح الباب، وكان عمر ردّ أبا موسى إلى البَصرة وبعث سُراقة بن عمرو، وكان يدعى ذا النور، إلى الباب، وجعل على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة، وكان أيضاً يدعى ذا النور، وجعل على إحدى مُجنّبَتيه حذيفةَ بن أسيد الغِفاري، وعلى الأخرى بكير بن عبد اللّه الليثي، وكان بكير سبقه إلى الباب. وجعل على المقاسم سلمان بن ربيعة الباهلي. فسار سراقة، فلما خرج من أذربيجان قدم بكير إلى الباب، وكان عمر قد أمدّ سراقة بحبيب بن مسلمة من الجزيرة وجعل مكانه زياد بن حنظلة. ولما أطلّ عبد الرحمن بن ربيعة على الباب، والملك بها يومئذ شهريار، وهو من ولد شهريار الذي أفسد بني إسرائيل وأغزى الشام بهم، فكاتبه شهريار واستأمنه على أن يأتيه، ففعل، فأتاه فقال: إنّي بإزاء عدوّ كَلِب وأمم مختلفة ليست لهم أحساب ولا ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعينهم على ذي الحسب ولست من القبج ولا الأرمن في شيء، وإنّكم قد غلبتم على بلادي وأمتي فأنا منكم

ويدي مع أيديكم وجزيتي إليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون فلا تسومونا الجزية فتوهنونا بعدوكم.

قال: فسيّره عبد الرحمن إلى سراقة، فلقيه بمثل ذلك، فقبل منه سراقةُ ذلك، وقال، لا بدّ من الجزية ممّن يقيم ولا يحارب العدوّ. فأجابه إلى ذلك. وكتب سراقة في ذلك إلى عمر فأجازه عمر واستحسنه.(٢٩/٣)

ذكر فتح مُوقان

لما فرغ سراقة من الباب أرسل بُكَير بن عبد اللّه وحبيب بن مسلمة وحذيفة بن أسيد وسلمان بن ربيعة إلى أهل تلك الجبال المحيطة بأرمينية، فوجه بكيراً إلى موقان، وحبيباً إلى تَفْليس، وحذيفة إلى جبال اللان، وسلمان إلى الوجه الآخر. وكتب سراقة بالفتح إلى عمر وبإرسال هؤلاء النفر إلى الجهات المذكورة، فأتى عمرَ أمرٌ لم يظن أن يستتم له بغير مؤونة لأنّه فرج عظيم وجند عظيم، فلمّا استوسقوا واستحلوا الإسلام وعدله مات سراقة، واستخلف عبدَ الرحمن بن ربيعة. ولم يفتتح أحد من أولئك القواد إلاّ بكير فإنّه فضّ أهل موقان ثّم تراجعوا على الجزية عن كلّ حالم دينار.

وكان فتحها سنة إحدى وعشرين. ولما بلغ عمر موتُ سراقة واستخلافه عبد الرحمن بن ربيعة أقرّ عبد الرحمن على فرج الباب وأمره بغزو الترك.

(أَسيد في هذه التراجم بفتح الهمزة وكسر السين. والنور في الموضعين بالراء).

ذكر غزو التّرك

لما أمر عمرُ عبدَ الرحمن بن ربيعة بغزو الترك خرج بالناس حتى قطع الباب. فقال له شهريار: ما تريد أن تصنع؟ قال: أريد غزو بَلَنْجَر والترك. قال: إنّا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب. قال عبد الرحمن: لكنّا لا نرضى حتى نغزوهم في ديارهم، وباللّه إن معنا أقواماً لو يأذن لهم أميرنا في الإمعان لبلغتُ بهم الرومَ. قال: وما هم؟ قال: أقوام صحبوا رسولَ اللّه، ﷺ، ودخلوا في هذا الأمر بنيّة، ولا يزال هذا الأمر لهم دائماً(٣٠/٣)ولا يزال النصر معهم حتى يغيرهم من يغلبهم وحتى يُلفتوا عن حالهم.فغزا بَلَنْجَرَ غزاة في زمن عمر فقالوا: ما اجترأ علينا إلاّ ومعه الملائكة تمنعهم من الموت، فهربوا منه وتحصّنوا، فرجع بالغنيمة والظفر، وقد بلغت خيله البيضاءَ على رأس مائتي فرسخ من بلنجر، وعادوا ولم يُقتل منهم أحد.

ثم غزاهم أيّام عثمان بن عفّان غزوات فظفر كما كان يظفر، حتى تبدل أهل الكوفة لاستعمال عثمان من كان ارتد استصلاحاً لهم فزادهم فساداً، فغزا عبد الرحمن بن ربيعة بعد ذلك فتذامرت الترك واجتمعوا في الغياض فرمى رجلٌ منهم رجلاً من المسلمين على غرة فقتله وهرب عنه أصحابه، فخرجوا عليه عند ذلك فاقتتلوا واشتدّ قتالهم ونادى منادٍ من الجوّ: صبراً عبد الرحمن وموعدكم الجنّة! فقاتل عبد الرحمن حتى قتل وانكشف أصحابه، وأخذ الراية سلمان بن ربيعة أخوه فقاتل بها، ونادى منادٍ من الجوّ: صبراً آل سلمان! فقال سلمان: أو تَرى جزعاً؟ وخرج سلمان بالناس معه أبو هزيرة الدوسيّ على جيلان فقطعوها إلى جُرجان، ولم يمنعهم ذلك من إنجاء جسد عبد الرحمن، فهم يستسقون به إلى الآن.

ذكر تعديل الفتوح بين أهل الكوفة والبصرة

في هذه السنة عدّل عمرُ فتوحَ أهل الكوفة والبصرة بينهم.

وسبب ذلك أن عمرَ بن سراقة كتب إلى عمر بن الخطّاب يذكر له كثرة أهل البصرة وعجز خراجهم عنهم، وسأله أن يزيدهم أحد الماهين أو ماسَبَذان، وبلغ أهلَ الكوفة ذلك وقالوا لعمّار بن ياسر، وكان على الكوفة أميراً سنة وبعض أخرى: اكتب إلى عمر أن رامَهرُمز وإيذَج لنا دونهم لم يعينونا عليهما ولم يلحقونا حتى افتتحناهما، فلم يفعل عمار، فقال له عطارد: (٣١/٣)أيّها العبدُ الأجدع فعلامَ تدع فيئنا؟ فقال: لقد سببتَ أحبّ أذني إليّ! فأبغضوه لذلك. واختصم أهل الكوفة وأهل البصرة، وادعى أهل البصرة قرى افتتحها أبو موسى دون أصبهان أيام أمدّ به عمر بن الخطّاب أهل الكوفة. فقال لهم أهل الكوفة: أتيتمونا مدداً وقد افتتحنا البلاد فأنشبناكم في المغانم، والذمّة ذمّتنا والأرض أرضنا. فقال عمر: صدقوا. فقال أهل الأيّام والقادسيّة ممّن سكن البصرة: فلتعطونا نصيبنا ممّا نحن شركاؤكم فيه من سوادهم وحواشيهم. فأعطاهم عمر مائة دينار برضا أهل الكوفة أخذها مَنْ شهد الأيّامَ والقادسيّة.

ولما وليَ معاوية، وكان هو الذي جنّد قنسرين ممّن أتاه من أهل العراقين أيّام عليّ، وإنّما كان قنسرين رُستاقاً من رساتيق حمص، فأخذ لهم معاوية حين وليَ بنصيبهم من فتوح العراق وأذربيجان والموصل يومئذ ناقلة، انتقل إليها كلّ من نزل بهجرته من أهل البلدين أيّام عليّ، فأعطاهم معاوية من ذلك نصيباً.

وكفر أهل أرمينية أيّام معاوية، وقد أمّر حبيبَ بن مسلمة على الباب، وحبيب يومئذ بجُرزان، وكاتب أهلَ تَفْليس وتلك الجبال من جُرزان فاستجابوا له.

ذكر عزل عمّار بن ياسر عن الكوفة وولاية أبي موسى والمُغيرة بن شُعْبة

وفيها عزل عمرُ بن الخطّاب عمّارَ بن ياسر عن الكوفة

واستعمل أبا موسى. وسبب ذلك أن أهل الكوفة شكَوه وقالوا له: إنّه لا يحتمل ما هو فيه وإنّه(٣٢/٣) ليس بأمين، ونزا به أهل الكوفة. فدعاه عمر، فخرج معه وفدٌ يريد أنهم معه، فكانوا أشدّ عليه ممّن تخلّف عنه، وقالوا: إنّه غير كافٍ وعالم بالسياسة ولا يدري على ما استعملته. وكان منهم سعد بن مسعود الثقفيّ، عم المختار، وجرير بن عبد اللّه، فسعيا به، فعزله عمر. وقال عمر لعمار: أساءك العزلُ؟ قال: ما سرّني حين استُعملتُ ولقد ساءني حين عُزلتُ. فقال له: قد علمتُ ما أنت بصاحب عمل ولكني تأوّلتُ: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.[القصص: ٥]

ثمّ أقبل عمر على أهل الكوفة فقال: من تريدون؟ قالوا: أبا موسى. فأمّره عليهم بعد عمّار. فأقام عليهم سنة فباع غلامه العلف، فشكاه الوليد ابن عبد شمس وجماعة معه وقالوا: إن غلامه يتجر في جسرنا، فعزله عنهم وصرفه إلى البصرة. وصرف عمرُ بنَ سراقة إلى الجزيرة.

وخلا عمر في ناحية المسجد فنام، فأتاه المغيرة بن شُعبة فحرسه حتى استيقظ، فقال: ما فعلتُ هذا يا أميرَ المؤمنين إلاّ من عظيم. فقال: وأيّ شيء أعظم من مائة ألف لا يرضَون عن أمير ولا يرضى عنهم أمير؟ وأحيطت الكوفة على مائة ألف مقاتل. وأتاه أصحابه فقالوا: ما شأنك؟ فقال: إنّ أهل الكوفة قد عضلوني. واستشارهم فيمن يوليه. وقال: ما تقولون في تولية رجل ضعيف مسلم أو رجل قويّ مسدّد؟ فقال المغيرة: أمّا الضعيف المسلم فإنّ إسلامه لنفسه وضعفه عليك، وأمّا القوي المسدّد فإن سداده لنفسه وقوته(٣٣/٣)للمسلمين. فولّى المغيرةَ الكوفة، فبقي عليها حتى مات عمر، وذلك نحو سنتين وزيادة. وقال له حين بعثه: يا مغيرة ليأمنك الأبرار وليخفك الفُجّار. ثمّ أراد عمر أن يبعث سعداً على عمل المغيرة فقُتل عمر قبل ذلك فأوصى به.

ذكر فتح خُراسان

وفي هذه السنة غزا الأحنف بن قيس خُراسان، في قول بعضهم. وقيل: سنة ثماني عشرة.

وسبب ذلك أن يزدجرد لما سار إلى الريّ بعد هزيمة أهل جَلولاء وانتهى إليها وعليها أبان جاذويه وثب عليه فأخذه. فقال يزدجرد: يا أبان تغدرني! قال: لا ولكن قد تركتَ ملكك فصار في يد غيرك فأحببتُ أن أكتب على ما كان لي من شيء. وأخذ خاتم يزدجرد واكتتب الصكاك بكل ما أعجبه ثمّ ختم عليها وردّ الخاتم، ثمّ أتى بعدُ سعداً فردّ عليه كلّ شيء في كتابه.

وسار يزدجرد من الريّ إلى أصبهان، ثمّ منها إلى كرمان والنار معه، ثمّ قصد خراسان فأتى مرو فنزلها وبنى للنار بيتاً واطمأنّ وأمن من أن يؤتى، ودان له من بقي من الأعاجم. وكاتب الهرمزان وأثار أهل فارس، فنكثوا، وأثار أهل الجبال والفيرزان، فنكثوا، فأذن عمر للمسلمين فدخلوا بلاد الفرس، فسار الأحنف إلى خراسان فدخلها من الطَّبَسَين فافتتح هَراة عنوةً واستخلف عليها صُحار بن فلان العبديّ، ثمّ سار نحو مرو الشاهجان فأرسل إلى نيسابور مطرِّف بن عبد اللّه بن الشِّخِّير والى سَرْخَس الحارث بن حسّان، فلمّا دنا الأحنف من مرو الشاهجان خرج منها يزدجرد إلى مرو الروذ حتى نزلها، ونزل الأحنف(٣٤/٣)مرو الشاهجان، وكتب يزدجرد، وهو بمرو الروذ، إلى خاقان والى ملك الصُّغد والى ملك الصين يستمدّهم. وخرج الأحنف من مرو الشاهجان واستخلف عليها حارثةَ بن النعمان الباهليّ بعدما لحقت به أمداد أهل الكوفة، وسار نحو مرو الروذ.

فلمّا سمع يزدجرد سار عنها إلى بلخ ونزل الأحنف مرو الروذ. وقدم أهل الكوفة إلى يزدجرد واتبعهم الأحنف، فالتقى أهل الكوفة ويزدجرد ببلخ، فانهزم يزدجرد وعبر النهر ولحق الأحنف بأهل الكوفة، وقد فتح اللّه عليهم؛ فبلخ من فتوحهم.

وتتابع أهل خراسان من هرب وشذ على الصلح فيما بين نيسابور إلى طَخارستان، وعاد الأحنف إلى مرو الروذ فنزلها، واستخلف على طَخارستان ربْعيّ بن عامر، وكتب الأحنفُ إلى عمر بالفتح فقال عمر، وددتُ أن بيننا وبينها بحراً من نار. فقال عليّ: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: لأن أهلها سينفضُون منها ثلاث مرات فيُجتاحون في الثالثة، فكان ذلك بأهلها أحبّ إليّ من أن يكون بالمسلمين.

وكتب عمر إلى الأحنف أن يقتصر على ما دون النهر ولا يجوزه.

ولما عبر يزدجرد النهر مهزوماً أنجده خاقان في الترك وأهل فرغانة والصُّغد، فرجع يزدجرد وخاقان إلى خرسان فنزلا بلخ، ورجع أهل الكوفة إلى الأحنف بمرو الروذ، ونزل المشركون عليه بمرو أيضاً.

وكان الأحنف لما بلغه خبر عبور يزدجرد وخاقان النهر إليه خرج ليلاً يتسمع هل يسمع برأي ينتفع به، فمرّ برجلين ينقيان علفاً وأحدهما يقول لصاحبه: لو أسندنا الأمير إلى هذا الجبل فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقاً(٣٥/٣)وكان الجبل في ظهورنا فلا يأتونا من خلفنا وكان قتالنا من وجه واحد رجوتُ أن ينصرنا اللّه. فرجع، فلمّا أصبح جمع الناسَ ورحل إلى سفح الجبل، وكان معه من أهل البصرة عشرة آلاف ومن أهل الكوفة نحو منهم، وأقبلت الترك ومن معها فنزلت وجعلوا يغادونهم القتال ويراوحونهم وفي الليل يتنحون عنهم.

فخرج الأحنف ليلةً طليعةً لأصحابه حتى إذا كان قريباً من عسكر خاقان وقف، فلمّا كان وجه الصبح خرج فارس [من] الترك بطوقه فضرب بطبله ثمّ وقف من العسكر موقفاً يقفه مثله، فحمل عليه الأحنف فتقاتلا فطعنه الأحنف فقتله وأخذ طوق التركي ووقف، فخرج آخر من الترك ففعل فعل صاحبه، فحمل عليه الأحنف فتقاتلا فطعنه فقتله وأخذ طوقه ووقف، ثمّ خرج الثالث من الترك ففعل فعل الرجلين، فحمل عليه الأحنف فقتله، ثمّ انصرف الأحنف إلى عسكره.

وكانت عادة الترك أنّهم لا يخرجون حتى يخرج ثلاثة من فرسانهم أكفاء كلّهم يضرب بطبله ثمّ يخرجون بعد خروج الثالث. فلمّا خرجوا تلك الليلة بعد الثالث فأتوا على فرسانهم مقتّلين تشاءم خاقان وتطيّر فقال: قد طال مقامنا وقد أصيب فرساننا، ما لنا في قتال هؤلاء القوم خير؛ فرجعوا. وارتفع النهار للمسلمين ولم يروا منهم أحداً، وأتاهم الخبرُ بانصراف خاقان والترك إلى بلخ، وقد كان يزدجرد ترك خاقانَ مقابل المسلمين بمرو الروذ وانصرف إلى مرو الشاهجان، فتحصّن حارثةُ بن النعمان ومن معه، فحصرهم واستخرج خزائنه من موضعها وخاقان مقيم ببلخ.

فلمّا جمع يزدجرد خزائنه، وكانت كبيرة عظيمة، وأراد أن يلحق بخاقان قال له أهل فارس :أيّ شيء تريد أن تصنع؟ قال: أريد اللحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين. قالوا له: إن هذا رأي سوء، ارجع بنا إلى(٣٦/٣)هؤلاء القوم فنصالحهم فإنّهم أوفياء وهم أهل دين، وإن عدوّاً يلينا في بلادنا أحبّ إلينا مملكة من عدوّ يلينا في بلاده ولا دين لهم و لا ندري ما وفاؤهم. فأبى عليهم. فقالوا: دع خزائننا نردّها إلى بلادنا ومنَ يلينا لا تخرجها من بلادنا. فأبى، فاعتزلوه وقاتلوه فهزموه وأخذوا الخزائنَ واستولوا عليها وانهزم منهم ولحق بخاقان وعبر النهر من بلخ إلى فرغانة، وأقام يزدجرد ببلد الترك، فلم يزل مقيماً زمن عمر كلّه إلى أن كفر أهل خُراسان زمن عثمان وكان يكاتبهم ويكاتبونه. وسيرد ذكر ذلك في موضعه.

ثمّ أقبل أهل فارس بعد رحيل يزدجرد على الأحنف فصالحوه ودفعوا إليه تلك الخزائن والأموال وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا عليه زمن الأكاسرة، واغتبطوا بملك المسلمين. وأصاب الفارس يوم يزدجرد كسهمه يوم القادسية. وسار الأحنف إلى بلخ فنزلها بعد عبور خاقان النهر منها ونزل أهل الكوفة في كُورَها الأربع. ثمّ رجع إلى مرو الروذ فنزلها وكتب بفتح خاقان ويزدجرد إلى عمر.

ولما عبر خاقان ويزدجرد النهرَ لقيا رسول يزدجرد الذي أرسله إلى ملك الصين فأخبرهما أن ملك الصين قال له: صفْ لي هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم فإنّي أراك تذكر قلّةً منهم وكثرة منكم ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل منكم مع كثرتكم إلاّ بخير عندهم وشرّ فيكم. فقلت: سلني عمّا أحببتَ. فقال: أيوفون بالعهد؟ قلتُ: نعم. قال: وما يقولون لكم قبل القتال؟ قال قلت: يدعوننا إلى واحدة من ثلاث: إمّا دينهم، فإن أجبنا أجرونا مجراهم، أو الجزية والمنعة، أو المنابذة. قال: فكيف طاعتهم أمراءهم؟ قلت: أطوع قوم وأرشدهم. قال: فما يُحلّون وما يُحرّمون؟ فأخبرته.(٣٧/٣) قال: هل يُحلّون ما حُرّم عليهم أو يحرّمون ما حُلّل لهم؟ قلت: لا. قال: فإن هؤلاء القوم لا يزالون على ظفر حتى يُحلّوا حرامَهم أو يُحرّموا حلالهم. ثمّ قال: أخبرني عن لباسهم؟ فأخبرته، وعن مطاياهم؟ فقلت: الخيلُ العِراب، ووصفتها له. فقال: نِعْمت الحصون! ووصفتُ له الإبل وبروكها وقيامها بحملها. فقال: هذه صفة دوابّ طوال الأعناق. وكتب معه إلى يزدجرد: إنّه لم يمنعني أن أبعث إليك بجند أوّله بمرو وآخره بالصين الجهالةُ بما يحقّ عليّ، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك لو يحاولون الجبال لهدُّوها ولو خلا لهم سربهم أزالوني ما داموا على [ما] وصف، فسالمْهم وارضَ منهم بالمساكنة ولا تهيِّجهم ما لم يهيِّجوك. فأقام يزدجرد بفَرْغانة ومعه آل كسرى بعهد من خاقان.

ولما وصل خبر الفتح إلى عمر بن الخطّاب جمع الناس، وخطبهم وقرأ عليهم كتاب الفتح وحمد اللّه في خطبته على إنجاز وعده ثمّ قال: ألا وإن ملك المجوسيّة قد هلك فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يضرّ بمسلم. ألا وإن اللّه قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءَهم لينظر كيف تعملون، فلا تبدّلوا فيستبدل اللّه بكم غيركم، فإنّي لا أخاف على هذه الأمّة أن تؤتى إلاّ من قِبَلكم.

وقيل: إن فتح خُراسان كان زمن عثمان، وسيرد هناك.(٣٨/٣)

ذكر فتح شَهْرَزور والصامغان

ولما استعمل عمرُ عَزْرَةَ بن قيس على حُلوان حاول فتح شَهْرزور، فلم يقدر عليها، فغزاها عتبة بن فرقد ففتحها بعد قتال على مثل صلح حُلوان، فكانت العقارب تصيب الرجل من المسلمين فيموت. وصالح أهلَ الصّامغان وداراباذ على الجزية والخراج، وقتل خلقاً كثيراً من الأكراد. وكتب إلى عمر: إن فتوحي قد بلغت أذربيجان. فولاّه إيّاها وولّى هرثمة بن عرفجة الموصل. ولم تزل شهرزور وأعمالها مضمومة إلى الموصل حتى أُفردت عنها آخر خلافة الرشيد.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة غزا معاوية بلاد الروم ودخلها في عشرة آلاف فارس من المسلمين.

وفيها وُلد يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان.

وحجّ بالناس في هذه السنة عمر بن الخطّاب؛ وكان عماله على الأمصار فيها عماله في السنة قبلها إلاّ الكوفة، فإن عامله كان عليها المغيرة بن شعبة، وإلاّ البصرة فإن عامله عليها صار أبا موسى الأشعري.(٣٩/٣)

سنة ثلاث وعشرين

قال بعضهم: كان فتح إصطخر سنة ثلاث وعشرين. وقيل: كان فتحها بعد تَوَّج الآخرة.

ذكر الخبر عن فتح تَوَّج

لما خرج أهل البصرة الذين توجّهوا إلى فارس أمراء عليها وكان معهم سارية بن زُنَيْم الكناني فساروا وأهل فارس مجتمعون بتَوَّج فلم يقصدهم المسلمون بل توجّه[كلّ] أمير إلى الجهة التي أُمِّر بها. وبلغ ذلك أهلَ فارس، فافترقوا إلى بلدانهم كما افترق المسلمون، فكانت تلك هزيمتهم وتشتُّت أمورهم. فقصد مجاشع بن مسعود لسابور وأردشير خُرّه، فالتقى هو والفرس بتوّج فاقتتلوا ما شاء اللّه، ثمّ انهزم الفرس وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا كلّ قتلة وغنموا ما في عسكرهم وحصروا توّج فافتتحوها وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا ما فيها، وهذه تَوَّج الآخرة، والأولى هي التي استقدمتها جنود العلاء بن الحضرمي أيام طاووس. ثمّ دُعوا إلى الجزية فرجعوا وأقروا بها. وأرسل مجاشع بن مسعود السُّلَمي بالبشارة والأخماس إلى عمر بن الخطّاب.(٤٠/٣)

ذكر فتح إصطخر وغيرهما

وقصد عثمان بن أبي العاص الثقفي لإصْطَخر فالتقى هو وأهل إصطخر بجُور فاقتتلوا وانهزم الفرس وفتح المسلمون جور ثمّ إصطخر وقتلوا ما شاء اللّه، ثمّ فرّ منهم من فرّ، فدعاهم عثمان إلى الجزية والذمّة، فأجابه الهِرْبِذُ إليها، فتراجعوا، وكان عثمان قد جمع الغنائم لما هزمهم فبعث بخمسها إلى عمر وقسم الباقي في الناس.

وفتح عثمان كازرون والنُوبَنْدجان وغلب على أرضها؛ وفتح هو وأبو موسى مدينة شيراز وأرَّجان، وفتحا سينيز على الجزية والخرج. وقصد عثمان أيضاً جَنّابا ففتحها، ولقيه جمع الفرس بناحية جَهْرم فهزمهم وفتحها.

ثمّ إن شَهْرك خلع في آخر خلافة عمر وأوّل خلافة عثمان. فوُجِّه إليه عثمان بن أبي العاص ثانيةً وأتته الأمداد من البصرة وأميرهم عبيد اللّه بن مَعْمَر وَشِبْل بن معبد، فالتقوا بأرض فارس. فقال شهرك لابنه وهما في المعركة، وبينهما وبين قرية لهما تدعى رِيشَهْر ثلاثة فراسخ: يا بنيّ أين يكون غداؤنا ههنا أم بريشهر؟ قال له: يا أبه، إن تركونا فلا يكون غداؤنا ههنا ولا بريشهر ولا نكونُ إلا في المنزل ،[ولكن واللّه] ما أراهم يتركوننا. فما فرغا من كلامهما حتى أنشب المسلمون الحرب فاقتتلوا قتالاً شديداً وقتل شهرك وابنه وخلق عظيم. والذي قتل شهرك الحكم بن أبي العاص أخو عثمان. وقيل: قتله سوّار بن همام العبدي حمل عليه فطعنه فقتله. وحمل ابن شهرك على سوّار فقتله.(٤١/٣)

وقيل: إن إصطخر كانت ثمانٍ وعشرين، وكانت فارس الآخرة سنة تسع وعشرين.

وقيل: إن عثمان بن أبي العاص أرسل أخاه الحكم من البحرين في ألفين إلى فارس ففتح جزيرة بَرْكاوان في طريقه ثمّ سار إلى توّج، وكان كسرى أرسل شهرك فالتقوا مع شهرك، وكان الجارود وأبو صُفرة على مجنبتيّ المسلمين، وأبو صُفرة هذا هو والد المهلّب، فحمل الفرس على المسلمين فهزموهم. فقال الجارود: أيها الأمير ذهب الجند. فقال: سترى أمرك. قال: فما لبثوا حتى رجعت خيلٌ لهم ليس عليها فرسانها والمسلمون يتبعونهم يقتلونهم، فنُثرت الرؤوس فرأى المُكَعْبِرُ رأساً ضخماً فقال: أيها الأمير هذا رأس الازدهاق، يعني شهرك. وحوصر الفرس بمدينة سابور، فصالح عليها ملكها أرزنبان، فاستعان به الحكم على قتال أهل إصطخر. ومات عمر. وبعث عثمانُ بن عفّان عبيدَ اللّه بن معمر مكانه، فبلغ عبيدَ اللّه أن أرزنبان يريد الغدر به، فقال له: أُحبّ أن تتخذ لأصحابي طعاماً وتذبح لهم بقرة وتجعل عظامها في الجفنة التي تليني فإنّي أُحبّ أن أتمشش العظام، ففعل وجعل يأخذ العظم الذي لا يُكسر إلاّ بالفؤوس فيكسره بيده ويأخذ مخه، وكان من أشدّ الناس، فقام أرزنبان فأخذ برجله وقال: هذا مقام العائذ بك! فأعطاه عهداً. وأصاب(٤٢/٣)عبيدَ اللّه منجنيق فأوصاهم وقال :إنّكم ستفتحون هذه المدينة إن شاء اللّه فاقتلوهم بي ساعة فيها، ففعلوا، فقتلوا منهم بشراً كثيراً، ومات عبيد اللّه بن معمر.

وقيل: إن قتله كان سنة تسع وعشرين.

ذكر فتح فسا ودارابجرد

وقصد ساريةُ بن زُنَيْم الدئلي فسا ودارابجرد حتى انتهى إلى عسكرهم فنزل عليهم وحاصرهم ما شاء اللّه، ثمّ إنّهم استمدوا وتجمعوا وتجمّعت إليهم أكراد فارس، فدهم المسلمين أمر عظيم، وجمعٌ كثير، وأتاهم الفرس من كلّ جانب، فرأى عمر فيما يرى النائم تلك الليلة معركتهم وعددهم في ساعة من النهار، فنادى من الغد: الصلاة جامعة! حتى إذا كان في الساعة التي رأى فيها ما رأى خرج إليهم، وكان ابن زُنَيْم والمسلمون بصحراء إن أقاموا فيها أحيط بهم، وإن استندوا إلى جبل من خلفهم لم يؤتوا إلاّ من وجه واحد. فقام فقال: يا أيها الناس، إنّي رأيتُ هذين الجمعين، وأخبر

بحالهما، وصاح عمر وهو يخطب: يا سارية بن زُنَيم، الجبلَ الجبلَ! ثمّ أقبل عليهم وقال: إن لله جنوداً، ولعل بعضها أن يبلّغهم. فسمع سارية ومن معه الصوت فلجؤوا إلى الجبل، ثمّ قاتلوهم، فهزمهم اللّه وأصاب المسلمون مغانمهم، وأصابوا في الغنائم سَفَطاً فيه جوهر، فاستوهبه منهم سارية وبعث به وبالفتح مع رجل إلى عمر. فقدم على عمر وهو يُطعم الطعام، فأمره فجلس وأكل، فلمّا انصرف عمر(٤٣/٣)اتبعه الرسول، فظنّ عمرُ أنّه لم يشبع، فأمره فدخل بيته ،فلمّا جلس أُتِيَ عمر بغدائه وزيت وملح جَريش فأكلا. فلمّا فرغا قال الرجل: أنا رسول سارية يا أمير المؤمنين. قال: مرحباً وأهلاً. ثمّ أدناه حتى مَسّت ركبتُهُ ركبتَهُ، وسأله عن المسلمين، فأخبره بقصة الدُّرج، فنظر إليه وصاح به: لا ولا كرامة حتى يقدم على ذلك الجند فيقسمه بينهم. فطرده، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّي قد أنضيتُ جملي واستقرضتُ في جائزتي فأعطني ما أتبلّغ به. فما زال به حتى أبدَله بعيراً من إبل الصدقة وجعل بعيرَهُ في إبل الصدقة ورجع الرسول مغضوباً عليه محروماً. وسأل أهلُ المدينة الرسولَ هل سمعوا شيئاً يوم الوقعة؟ قال: نعم سمعنا: يا سارية، الجبلَ الجبلَ، وقد كدنا نهلك فلجأنا إليه ففتح اللّه علينا.

ذكر فتح كَرمان

ثمّ قصد سُهَيل بن عدي كَرْمَانَ، ولحقه أيضاً عبد اللّه بن عبد اللّه بن عِتْبان، وحشد لهم أهل كرمان واستعانوا عليهم بالقُفْص، فاقتتلوا في أداني أرضهم، ففض اللّه تعالى المشركين وأخذ المسلمون عليهم الطريق. وقتل النُسيرُ بن عمرو العجلي مَرْزُبانَها، فدخل سهيل من قِبَل طريق القُرى اليوم إلى جيرفَت، وعبد اللّه بن عبد اللّه من مفازة سِير، فأصابوا ما أرادوا من بعير (٤٤/٣) أو شاء، فقوّموا الإبل والغنم فتحاصُّوها بالأثمان لعظم البُخت على العِراب، وكرهوا أن يزيدوا، وكتبوا إلى عمر بذلك، فأجابهم: إذا رأيتم أن في البُخت فضلاً فزيدوا.

وقيل: إن الذي فتح كرمان عبد اللّه بن بُدَيل بن ورقاء الخزاعي في خلافة عمر، ثمّ أتى الطُّبَسَين من كرمان، ثمّ قدم على عمر فقال: أقطعني الطَّبسين، فأراد أن يفعل، فقيل: إنّهما رستاقان، فامتنع عمر من ذلك.

ذكر فتح سِجستان

وقصد عاصم بن عمرو سجستان، ولحقه عبد اللّه بن عمير، فاستقبلهم أهلها، فالتقوا هم وأهل سجستان في أداني أرضهم، فهزمهم المسلمون، ثمّ اتبعوهم حتى حصروهم بزَرَنْج ومخروا أرض سجستان ماه، ثمّ إنّهم طلبوا الصلح على زَرَنج وما احتازوا من الأرضين فأُعطوا، وكانوا قد اشترطوا في صلحهم أن فدافدها حِمًى، فكان المسلمون يتجنبونها خشية أن يصيبوا منها شيئاً فيُخفروا، وأقيم أهل سجستان على الخراج، وكانت سجستان أعظم من خراسان وأبعد فروجاً، يقاتلون القَنْدُهار والترك وأمماً كثيرة، فلم يزل كذلك حتى كان زمن معاوية، فهرب الشاه من أخيه رُتْبيل إلى بلد فيها يدعى آمُل، ودان لسَلْم بن زياد، وهو يومئذ على سجستان، [ففرح بذلك] وعقد لهم(٤٥/٣) وأنزلهم البلاد وكتب إلى معاوية بذلك يُري أنّه فُتح عليه. فقال معاوية: إنّ ابن أخي ليفرح بأمرٍ إنّه ليحزنني [وينبغي له أن يحزنه]. قال: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: إنّ آمُل بلدة بينها وبين زَرَنج صعوبة وتضايق، وهؤلاء قوم غُدُر، فإذا اضطرب الحبل غداً فأهون ما يجيء منهم أنّهم يغلبون على بلاد آمل بأسرها. وأقرّهم على عهد سَلْم بن زياد. فلمّا وقعت الفتنة بعد معاوية كفر الشاه وغلب على آمل واعتصم منه رُتْبيل بمكانه، ولم يُرضه ذلك حين تشاغل عنه الناس حتى طمع في زَرَنج فغزاها وحصر من بها حتى أتتهم الأمداد من البصرة، وصار رُتْبيل والذين معه عصبة، وكانت تلك البلاد مذلّلة إلى أن مات معاوية.

وقيل في فتح سجستان غير هذا، وسيرد ذكره إن شاء اللّه تعالى.

ذكر فتح مُكْران

وقصد الحكم بن عمرو التغلبي مُكران حتى انتهى إليها، ولحق به شهاب بن المخارق وسُهيل بن عديّ وعبد اللّه بن عبد اللّه بن عتبان، فانتهوا إلى دوين النهر، وأهل مُكران على شاطئه، فاستمدّ ملكُهم ملكَ السند، فأمدّه بجيش كثيف، فالتقوا مع المسلمين فانهزموا وقُتل منهم في المعركة مقتلة عظيمة واتبعهم المسلمون يقتلونهم أياماً حتى انتهوا إلى النهر، ورجع المسلمون إلى مُكران فأقاموا بها. وكتب الحكم إلى عمرَ بالفتح وبعث إليه بالأخماس مع صُحار العبدي. فلمّا قدم المدينة سأله عمر عن مُكران، فقال: يا أميرَ المؤمنين، هي(٤٦/٣) أرض سهلها جبل، وماؤها وشَلٌ، وتمرها دَقَلٌ، وعدوّها بطل؛ وخيرُها قليلٌ، وشرّها طويلٌ، والكثير فيها قليلٌ، والقليل فيها ضائع، وما وراءها شرّ منها. فقال: أسجّاع أنت أم مخبر؟ لا واللّه لا يغزوها جيش لي أبداً. وكتب إلى سهيل والحكم بن عمرو: أن لا يجوزنّ مُكران أحد من جنودكما. وأمرهما ببيع الفيلة التي غنمها المسلمون ببلاد الإسلام وقسم أثمانها على الغانمين.

(مُكْران بضم الميم وسكون الكاف)

ذكر خبر بَيروذ من الأهواز

ولما فَصَلت الخيولُ إلى الكُوَر، اجتمع بَيروذ جمعٌ عظيمٌ من الأكراد وغيرهم. وكان عمر قد عهد إلى أبي موسى أن يسير إلى

أقصى ذمة البصرة حتى لا يؤتى المسلمون من خلفهم، وخشي أن يهلك بعض جنوده أو يُخلَفوا في أعقابهم، فاجتمع الأكراد ببيروذ، وأبطأ أبو موسى حتى تجمّعوا، ثمّ سار فنزل بهم ببيروذ، فاتقوا في رمضان بين نهر تيرى ومناذر، فقام المهاجر بن زياد وقد تحنّط واستقتل، وعزم أبو موسى على الناس فأفطروا، وتقدّم المهاجر فقاتل قتالاً شديداً حتى قُتل. ووهَّن اللّه المشركين حتى تحصّنوا في قلّة وذلّة، واشتدّ جزع الربيع بن زياد على أخيه المهاجر وعظم عليه فقدُه، فرقّ له أبو موسى فاستخلفه عليهم في جند، وخرج أبو موسى حتى بلغ أصبهان واجتمع(٤٧/٣)بها بالمسلمين الذين يحاصرون جَيّاً، فلمّا فُتحت رجع أبو موسى إلى البصرة، وفتح الربيع بن زياد الحارثي بيروذ من نهر تِيرى وغنِمَ ما معهم.

ووفَد أبو موسى وفداً معهم الأخماس، فطلب ضَبّةُ بن مِحْصَن العنَزيُّ أن يكون في الوفد فلم يجبه أبو موسى، وكان أبو موسى قد اختار من سبي بيروذ ستّين غلاماً، فانطلق ضبّة إلى عمر شاكياً، وكتب أبو موسى إلى عمر يخبره، فلمّا قدم ضبّة على عمر سلّم عليه. فقال: من أنت؟ فأخبره. فقال: لا مرحباً ولا أهلاً! فقال: أمّا المرحب فمن اللّه، وأمّا الأهل فلا أهل. ثمّ سأله عمر عن حاله فقال: إن أبا موسى انتقى ستّين غلاماً من أبناء الدهاقين لنفسه وله جارية تُغدّى جفنةً وتُعشّى جفنةً تدعى عَقيلة، وله قفيزان وله خاتمان، وفوّض إلى زياد بن أبي سفيان أمورَ البصرة، وأجاز الحطيئةَ بألف.

فاستدعى عمر أبا موسى. فلمّا قدم عليه حجبه أياماً ثمّ استدعاه فسأل عمرُ ضبةَ عمّا قال فقال: أخذ ستين غلاماً لنفسه.فقال أبو موسى: دُللتُ عليهم وكان لهم فداء ففديتهم وقسمته بين المسلمين. فقال ضبة: ما كذب ولا كذبتُ. فقال: له قفيزان. فقال أبو موسى: قفيزُ لأهلي أقوتهم به وقفيز للمسلمين في أيديهم يأخذون به أرزاقهم. فقال ضبة: ما كذب ولا كذبتُ، فلمّا ذكر عقيلةَ سكت أبو موسى ولم يعتذر. فعلم أن ضبّة قد صدقه، قال: وولى زياداً. قال: رأيتُ له رأياً ونبلاً فأسندتُ إليه عملي. قال: وأجاز الحطيئة بألف. قال: سددتُ فمه بمالي أن يشتمني. فردّه عمر وأمره أن يُرسل إليه زياداً وعقيلة، ففعل. فلمّا قدم عليه زياد سأله عن حاله وعطائه والفرائض والسّنن والقرآن، فرآه فقيهاً، فردّه وأمر أمراء البصرة أن يسيروا برأيه، وحبس عقيلة بالمدينة.

وقال عمر: ألا إن ضبّةَ غضبَ على أبي موسى وفارقه مراغِماً أن فاته (٤٨/٣) أمر من أمور الدنيا فصدق عليه وكذب، فأفسد كذبُه صدقَه، فإيّاكم والكذب فإنّه يهدي إلى النار.

(بَيْروذ بفتح الباء الموحدة، وسكون الياء تحتها نقطتان، وضم الراء، وسكون الواو، وآخره ذال معجمة).

ذكر خبر سَلَمَة بن قيس الأشجعيّ والأكراد

كان عمر إذا اجتمع إليه جيش من المسلمين أمّر عليهم أميراً من أهل العلم والفقه، فاجتمع إليه جيش من المسلمين، فبعث عليهم سَلَمَةَ بن قيس الأشجعي. فقال: سِرْ باسم اللّه، قاتِلْ في سبيل اللّه مَن كفَر باللّه، فإذا لقيتم عدوّكم فادعوهم إلى الإسلام، فإن أجابوا وأقاموا بدارهم فعليهم الزكاة وليس لهم من الفَيء نصيب، وإن ساروا معكم فلهم مثل الذي لكم وعليهم مثل الذي عليكم، وإن أبوا فادعوهم إلى الجزية، فإن أجابوا فاقبلوا منهم وإن أبوا فقاتلوهم، وإن تحصّنوا منكم وسألوكم أن ينزلوا على حكم اللّه ورسوله أو ذمّة اللّه ورسوله فلا تجيبوهم، فإنّكم لا تدرون أتصيبون حكم اللّه ورسوله وذمتهما أم لا؛ ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً، ولا تمثّلوا.

قال: فساروا حتى لقوا عدوّاً من الأكراد المشركين فدعوهم إلى الإسلام أو الجزية، فلم يجيبوا، فقاتلوهم فهزموهم وقتلوا المقاتلةَ وسبوا الذرية فقسمه بينهم، ورأى سلمة جوهراً في سفَط فاسترضى عنه المسلمين وبعث به إلى عمر.(٣/ ٤٩) فقدم الرسول بالبشارة وبالسّفط على عمر، فسأله عن أمور الناس وهو يخبره، حتى أخبره بالسفط، فغضب غضباً شديداً وأمر به فوجىء به في عنقه، ثمّ إنّه قال: إن تفرّق الناس قبل أن تقدم عليهم ويقسمه سلمة فيهم لأسوءنّك. فسار حتى قدم على سلمة فباعه وقسمه في الناس. وكان الفص يباع بخمسة دراهم وقيمته عشرون ألفاً.

وحجّ بالناس هذه السنة عمر بن الخطّاب وحجّ معه أزواج النبيّ ﷺ، وهي آخر حجّة حجّها، وفيها قُتل عمر، رضي اللّه عنه.

ذكر الخبر عن مقتل عمر، رضي اللّه عنه

قال المسور بن مخرمة: خرج عمر بن الخطّاب يطوف يوماً في السوق، فلقيه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شُعبة، وكان نصرانيّاً، فقال: يا أمير المؤمنين، أعْدِني على المغيرة بن شُعبة فإن عليَّ خراجاً كثيراً. قال: وكم خراجك؟ قال: درهمان كلّ يوم. قال: وأيش صناعتك ؟ قال: نجار، نقّاش، حدّاد. قال: فما أرى خراجك كثيراً على ما تصنع من الأعمال، قد بلغني أنّك تقول: لو أردتُ أن أصنع رحى تطحن بالريح لفعلت! قال: نعم. قال: فاعمل لي رحى. قال: لئن سلمتَ لأعملنّ لك رحىً يتحدّث بها من بالمشرق والمغرب! ثمّ انصرف عنه. فقال عمر: لقد أوعدني العبدُ الآن.(٥٠/٣)

ثمّ انصرف عمر إلى منزله، فلمّا كان الغد جاءه كعب الأحبار فقال له: يا أمير المؤمنين، اعهد فإنّك ميّت في ثلاث ليال. قال: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب التوراة. قال عمر :[آللّه! إنّك] لتجد

عمر بن الخطّاب في التوراة؟ قال: اللهمّ لا ولكني أجد حليتك وصفتك وأنّك قد فني أجلُك.قال: وعمر لا يحس وجعاً! فلمّا كان الغد جاءه كعب فقال: بقي يومان. فلمّا كان الغد جاءه كعبٌ فقال: مضى يومان وبقي يوم. فلمّا أصبح خرج عمر إلى الصلاة وكان يوكل بالصفوف رجالاً فإذا استوت كبّر، ودخل أبو لؤلؤة في الناس وبيده خِنجر له رأسان نصابه في وسطه، فضرب عمرَ ست ضربات إحداهن تحت سرّته وهي التي قتلته، وقتل معه كليب بن أبي البُكَير الليثي وكان خلفه، وقتل جماعة غيره.

فلمّا وجد عمر حرّ السلاح سقط وأمر عبد الرحمن بن عوف فصلّى بالناس، وعمر طريح، فاحتُمل فأُدخل بيته، ودعا عبدَ الرحمن فقال له: إنّي أريد أن أعهد إليك. قال: أتشير عليّ بذلك؟ قال: اللهمّ لا. قال: والله لا أدخل فيه أبداً. قال: فهبني صمتاً حتى أعهد إلى النفر الذين توفي رسول الله، ﷺ، وهو عنهم راض. ثمّ دعا عليّاً وعثمان والزبير وسعداً فقال: انتظروا أخاكم طلحة ثلاثاً فإن جاء وإلاّ فاقضوا أمركم؛ أنشدك الله يا عليّ إن وليتَ من أمور الناس شيئاً أن تحمل بني هاشم على رقاب الناس، أنشدك الله يا عثمان إن وليتَ من أمور الناس شيئاً أن تحمل بني أبي مُعَيط على رقاب الناس، أنشدك الله يا سعد إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل أقاربك على رقاب الناس، قوموا فتشاوروا ثمّ اقضوا أمركم وليصلّ بالناس صُهَيب.(٥١/٣)

ثمّ دعا أبا طلحة الأنصاري، فقال: قم على بابهم فلا تدع أحداً يدخل إليهم. وأُوصي الخليفة من بعدي بالأنصار الذين تبوّؤوا الدار والإيمان أن يحسن إلى محسنهم ويعفو عن مسيئهم، وأوصي الخليفة بالعرب، فإنّهم مادة الإسلام، أن يؤخذ من صدقاتهم حقّها فتوضع في فقرائهم، وأوصي الخليفة بذمة رسول الله، ﷺ، أن يوفي لهم بعهدهم، اللهمّ هل بلّغتُ؟ تركت الخليفة من بعدي على أنقى من الراحة؛ يا عبد الله بن عمر، اخرج فانظر من قتلني.

قال: يا أمير المؤمنين، قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة. قال: الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل سجد لله سجدةً واحدةً! يا عبد الله بن عمر، اذهبْ إلى عائشة فسلها أن تأذن لي أن أُدفن مع النبيّ، ﷺ، وأبي بكر. يا عبد الله، إن اختلف القومُ فكن مع الأكثر، فإن تشاوروا فكن مع الحزب الذي فيه عبد الرحمن بن عوف، يا عبدَ الله، ائذن للناس. فجعل يدخل عليه المهاجرون والأنصار فيسلّمون عليه ويقول لهم: أهذا عن ملإ منكم؟ فيقولون: معاذ الله! قال: ودخل كعب الأحبار مع الناس فلمّا رآه عمر قال :

توعدني كعبٌ ثلاثاً أعدُّها ... ولا شكّ أن القول ما قال لي كعبُ
وما بي حِذارُ الموتِ إنّي لميّتٌ ... ولكن حِذارُ الذنبِ يتبعُه الذنبُ

ودخل عليه عليّ يعودهُ فقعد عند رأسه، وجاء ابن عبّاس فأثنى عليه، فقال له عمر: أنت لي بهذا يا ابن عبّاس؟ فأومأ إليه عليّ أن قل نعم. فقال ابن عبّاس: نعم. فقال عمر: لا تغرّني أنت وأصحابك. ثمّ قال: يا عبد الله، (٥٢/٣)خُذْ رأسي عن الوسادة فضعه في التراب لعلّ الله، جلّ ذكره، ينظر إليّ فيرحمني، والله لو أن لي ما طلعت عليه الشمس لافتديت به من هول المُطلع .

ودعي له طبيب من بني الحارث بن كعب فسقاه نبيذاً فخرج غير متغير، فسقاه لبناً فخرج كذلك أيضاً، فقال له: اعهد يا أمير المؤمنين. قال: قد فرغتُ. ولما احتُضر ورأسه في حجر ولده عبد الله قال:

ظَلومٌ لنفسي غيرَ أنّيَ مسلمٌ ... أُصلّي الصّلاةَ كلّها وأصومُ

ولم يزل يذكر الله تعالى ويُديمُ الشهادة إلى أن توفي ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجّة سنة ثلاث وعشرين. وقيل: طعُن يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجّة ودُفن يوم الأحد هلال محرم سنة أربع وعشرين.

وكانت ولايته عشر سنين وستّة أشهر وثمانية أيّام، وبويع عثمان لثلاث مضين من المحرم. وقيل: كانت وفاته لأربع بقين من ذي الحجّة وبويع عثمان لليلة بقيت من ذي الحجّة واستقبل بخلافته هلال محرم سنة أربع وعشرين. وكانت خلافة عمر على هذا القول عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيّام. وصلّى عليه صُهيب، وحمُل إلى بيت عائشة، ودُفن عند النبي، ﷺ، وأبي بكر، ونزل في قبره عثمان وعليّ والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد وعبد الله بن عمر. (٥٣/٣)

ذكر نسب عمر وصفته وعمره

فأمّا نسبه فهو عمر بن الخطّاب بن نُفَيل بن عبد العُزّى بن رِياح بن عبد الله بن قرط بن رزَاح بن عدي بن كعب بن لؤيّ، وكنيته أبو حفص، وأمّه حَنْتمة بنت هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهي ابنة عم أبي جهل، وقد زعم من لا معرفة له أنّها أخت أبي جهل، وليس بشيء.

وسمّاه النبيّ ، ﷺ، الفاروق، وقيل: بل سماه أهلُ الكتاب.

وأمّا صفته فكان طويلاً آدمَ أصلعَ أعسرَ يَسَراً، يعني يعمل بيديه، وكان لطوله كأنّه راكبٌ، وقيل: كان أبيض أبهق، يعني شديد البياض، تعلوه حمرة، طُوالاً أصلع أشيب، وكان يصفّر لحيته ويرجّل رأسه. وكان مولده قبل الفِجار بأربع سنين، وكان عمره خمساً وخمسين سنة، وقيل: ابن ستّين سنة، وقيل: ابن ثلاث وستين سنة وأشهر، وهو الصحيح، وقيل: ابن إحدى وستّين سنة.

(رِياح بكسر الراء وبالياء تحتها نقطتان).

ذكر أسماء ولده ونسائه

تزوّج عمر في الجاهليّة زينب بنت مَظْعون بن حبيب بن وهب بن حُذافة بن جُمَح فولدتْ له عبدالله وعبد الرحمن الأكبر وحَفْصة. وتزوّج مُلَيْكةَ بنت جَرْول الخُزاعيّ في الجاهليّة، فولدتْ له عبيد الله بن عمر، ففارقها في الهدنة، فخلف عليها أبو جَهْم بن حُذَيْفة، وقُتل عبيد الله بصِفّين (٥٤/٣)مع معاوية، وقيل: كانت أمّه أم زيد الأصغر أم كُلْثوم بنت جَرْول الخُزاعي، وكان الإسلام فرّق بينها وبين عمر. وتزوّج قُرَيْبة بنت أبي أُمَيّة المخزومي في الجاهليّة، ففارقها في الهدنة أيضاً، فتزوّجها بعده عبد الرحمن ابن أبي بكر الصدّيق، فكانا سلفَيْ رسول الله، ﷺ، لأن قُرَيْبة أخت أمّ سَلَمَة زوج النّبيّ، ﷺ. وتزوّج أمّ حَكيم بنت الحارث بن هشام المخزومي في الإسلام، فولدت له فاطمةَ فطلّقها، وقيل لم يُطَلّقها. وتزوّج جميلةَ أخت عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأوسي الأنصاري في الإسلام، فولدت له عاصماً فطلّقها، ثمّ تزوّج أمّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب، وأمها فاطمة بنت رسول الله، ﷺ، وأصدقها أربعين ألفاً، فولدت له رُقَيّة وزيداً. وتزوّج لُهَيّةَ امرأة من اليمن، فولدت له عبد الرحمن الأوسط، وقيل الأصغر: وقيل: كانت أمّ ولد، وكانت عنده فُكَيْهة أم ولد فولدت له زينب، وهي أصغر ولد عمر. وتزوّج عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفَيْل، وكانت قبله عند عبد الله بن أبي بكر الصدّيق، فقُتل عنها، فلمّا مات عمر تزوّجها الزُّبَيْر بن العوّام، فقُتل عنها أيضاً، فخطبها عليّ، فقالت: لا أفعل، إنّي أضنّ بك عن القتل فإنّك بقيّة الناس. فتركها.

وخطب أمّ كلثوم ابنة أبي بكر الصدّيق إلى عائشة، فقالت أمّ كلثوم: لا حاجةَ لي فيه، إنّه خشِنُ العيش شديدٌ على النساء، فأرسلت عائشة إلى عمرو(٥٥/٣)ابن العاص فقال: أنا أكفيك. فأتى عمرَ فقال: بلغني خبرٌ أعيذك بالله منه. قال: ما هو؟ قال: خطبتُ أمّ كلثوم بنت أبي بكر. قال: نعم، أفرغبتَ بي عنها أم رغبتَ بها عني؟ قال: ولا واحدة، ولكنّها حدَثةٌ نشأت تحت كنف أمير المؤمنين في لين ورفق، وفيك غِلظة، ونحن نهابك وما نقدر أن نردّك عن خُلق من أخلاقك، فكيف بها إن خالفتك في شيء فسطوت بها كنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك وقال فكيف بعائشة وقد كلّمتُها؟ قال: أنا لك بها وأدلّك على خير منها، أمّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب تعلق منها بسبب من رسول الله ﷺ.

وخطب أمّ أبان بنت عُتْبة بن ربيعة فكرهته وقالت: يغلق بابه، ويمنع خيرَه، ويدخل عابساً ويخرج عابساً.

ذكر بعض سيرته، رضي الله عنه

قال عمر: إنّما مثل العرب مثل جمل أَنِفٍ اتبع قائده فلينظر قائده حيث يقوده، فأمّا أنا فوربّ الكعبة لأحملنّهم على الطريق!

قال نافع العيشي: دخلتُ خَير الصدقة مع عمر بن الخطّاب وعليّ بن أبي طالب، قال: فجلس عثمان في الظلّ يكتب وقام عليّ على رأسه يملي عليه ما يقول عمر، وعمر قائم في الشمس في يوم شديد الحرّ عليه بُرْدان أسودان اتّزر بأحدهما ولفّ الآخر على رأسه يعدّ إبل الصدقة يكتب ألوانها وأسنانها. فقال عليّ لعثمان: في كتاب الله: (٥٦/٣) ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] ثمّ أشار عليّ بيده إلى عمر وقال: هذا القويّ الأمين.

وقال عبد الله بن عامر بن ربيعة: رأيتُ عمر أخذ بتبنة من الأرض فقال: يا ليتني هذه التبنة لم أكُ شيئاً، يا ليت أمّي لم تلدني، يا ليتني كنتُ نسياً منسيّاً. وقال الحسن: قال عمر: لئن عشتُ إن شاء الله لأسيرنّ في الرعيّة حولاً فإنّي أعلم أنّ للناس حوائج تُقطع دوني أمّا عمالهم فلا يرفعونها إليّ، وأمّا هم فلا يصلون إليّ، فأسير إلى الشام فأقيم شهرين، وبالجزيرة شهرَين، وبمصر شهرَين، وبالبحرين شهرين، وبالكوفة شهرَين، وبالبصرة شهرين، والله لنعم الحول هذا! وقيل لعمر: إن ههنا رجلاً من الأنبار له بصر بالديوان لو اتخذته كاتباً. فقال: لقد اتخذتُ إذن بطانةً من دون المؤمنين.

قيل: خطب عُمر الناسَ فقال: والذي بعث محمداً، ﷺ، بالحقّ لو أنّ جملاً هلك ضياعاً بشطّ الفرات لخشيتُ أن يسألني الله عنه.

وقال أبو فِراس: خطب عُمر الناسَ فقال: أيها الناس، إنّي ما أُرسل إليكم عمّالاً ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم وإنّما أُرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنّتكم، فمن فُعِل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ، فوالذي نفس عمر بيده لأقصّنّه منه. فوثب عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيتك إن كان رجل من أُمراء المسلمين على رعيّة فأدّب بعض رعيّته إنّك لتقصّه منه؟ قال: إي والذي نفس عمر بيده إذن لأقصّنّه منه، وكيف لا أقصّه منه وقد رأيتُ النّبي، ﷺ، يقصّ من نفسه! ألا لا تضربوا المسلمين فتذلّوهم، ولا تحمدوهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تُنزلوهم الغياض فتضيعوهم.(٥٧/٣)

قال بكر بن عبد الله: جاء عمر بن الخطّاب إلى عبد الرحمن بن عوف وهو يصلّي في بيته ليلاً، فقال له عبد الرحمن: ما جاء بك في هذه الساعة؟ قال: رفقةٌ نزلت في ناحية السوق خشيتُ عليهم سُرّاق المدينة، فانطلق فلنحرسهم. فأتيا السوقَ فقعدا على نشز من الأرض يتحدّثان، فرُفع لهما مصباحٌ فقال عمر: ألم أنه عن المصابيح بعد النوم؟ فانطلقا فإذا قوم على شراب لهم. قال: انطلقْ فقد عرفته. فلمّا أصبح أرسل إليه قال: يا فلان كنتَ وأصحابك البارحةَ على شراب! قال: وما أعلمك يا أمير المؤمنين؟ قال: شيء شهدته. قال: أوَلم ينهك الله عن التجسّس؟ فتجاوز عنه.

وإنّما نهى عمر عن المصابيح لأن الفأرة تأخذ الفتيلة فترمي بها في سقف البيت فتحرقه، وكانت السيوف من جريد، وقد كان رسول اللّه، ﷺ، نهى عن ذلك.

وقال أسلَمُ: وخرج عمر إلى حَرّة واقم وأنا معه، حتى إذا كنّا بصِرار إذا نار تسعُّر. فقال: انطلق بنا إليهم. فهرولنا حتى دنونا منهم فإذا بامرأة معها صبيان لها وقِدر منصوبة على نار وصبيانها يتضاغون. فقال عمر: السلام عليكم يا أصحاب الضوء. وكره أن يقول: يا أصحاب النار. قالت: وعليك السلام. قال: أدنو؟ قالت: ادنُ بخير أو دع. فدنا فقال: ما بالكم؟ قالت: قصّر بنا الليل والبرد. قال: فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: من الجوع. قال: وأي شيء في هذه القدر؟ قالت: ما لي ما أُسكتهم حتى يناموا فأنا أعلّلهم وأوهمهم أنّي أُصلح لهم شيئاً حتى يناموا، اللّه بيننا وبين عمر! قال: أيْ رحمك اللّه، ما يُدري بكم عمر؟ قالت: يتولّى أمرنا ويغفل عنّا. فأقبل عليّ وقال: انطلقْ بنا. فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عِدلاً فيه كبة شحم فقال: احمله على ظهري. قال أسلم: فقلت: أنا أحمله عنك، مرّتين أو ثلاثاً. فقال آخر ذلك: أنتَ تحمل عني وزري يوم القيامة لا أمّ لك؟ فحملته (٥٨/٣) عليه، فانطلق وانطلقتُ معه نهرول حتى انتهينا إليها، فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها: ذُرّي عليّ وأنا أحرّك لك، وجعل ينفخ تحت القِدر، وكان ذا لحية عظيمة فجعلتُ أنظر إلى الدخان من خلل لحيته حتى أنضج ثمّ أنزل القِدر، فأتته بصحفة فأفرغها [فيها] ثمّ قال: أطعميهم وأنا أسطح لك، فلم يزل حتى شبعوا، ثمّ خلّى عندها فضل ذلك، وقام وقمتُ معه، فجعلتْ تقول: جزاك اللّه خيراً، أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين! فيقول: قولي خيراً فإنّك إذا جئتِ أمير المؤمنين وجدتني هناك، إن شاء اللّه! ثمّ تنحّى ناحيةً ثمّ استقبلها وربض لا يكلّمني حتى رأى الصبيةَ يضحكون ويصطرعون، ثمّ ناموا وهدؤوا، فقام وهو يحمد اللّه، فقال: يا أسلم، الجوعُ أسهرهم وأبكاهم فأحببتُ أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيتُ منهم.

(صِرار بكسر الصاد المهملة ورائين).

قال سالم بن عبد اللّه بن عمر: كان عمر إذا نهى الناس عن شيء جمع أهله فقال: إنّي نهيتُ الناسَ عن كذا وكذا، وإنّ الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، وأُقسم باللّه لا أجد أحداً [منكم] فعله إلاّ أضعفتُ عليه العقوبة. قال سلام بن مسكين: وكان عمر إذا احتاج أتى صاحب بيت المال فاستقرضه، فربما أعسر فيأتيه صاحب بيت المال يتقاضاه فيلزمه فيحتال له عمر، وربّما خرج عطاءه فقضاه.

قال: وهو أوّل من دعي بأمير المؤمنين وذلك أنّه لما ولي قالوا له: يا خليفةَ خليفةِ رسول اللّه. فقال عمر: هذا أمر يطول، كلّما جاء خليفة قالوا يا خليفة (٥٩/٣) خليفة خليفة رسول اللّه، بل أنتم المؤمنون وأنا أميركم، فسمّي أمير المؤمنين.

وهو أوّل من كتب التاريخ، وقد تقدّم.

وهو أوّل من اتخذ بيت مال، وأوّل من عسّ الليل، وأوّل من عاقب على الهجاء، وأوّل من نهى عن بيع أمّهات الأولاد، وأوّل من جمع الناس في صلاة الجنازة على أربع تكبيرات، وكانوا قبل ذلك يصلُّون أربعاً وخمساً وستّاً. قال الواقدي:

وهو أوّل من جمع الناس على إمام يصلّي بهم التراويح في شهر رمضان وكتب به إلى البلدان وأمرهم به، وهو أوّل من حمل الدِّرّة وضرب بها، وأوّل من دوّن في الإسلام.

قال زاذان: قال عمر لسلمان: أملك أنا أم خليفة؟ قال له سلمان: إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهماً أو أقلّ أو أكثر ووضعته في غير حقّه فأنت ملك غير خليفة. فبكى عمر.

وقال أبو هُرَيْرة: يرحم اللّه ابن حَنْتمة! لقد رأيته عام الرمادة وإنّه ليحمل على ظهره جرابين وعُكة زيت في يده وإنّه يتعقّب هو وأسلم، فلمّا رآني قال: من أين يا أبا هريرة؟ قلتُ: قريباً، فأخذت أعقبه فحملناه حتى انتهينا إلى صِرار فإذا نحو من عشرين بيتاً من محارب، فقال لهم: ما أقدمكم؟ قالوا: الجهد، وأخرجوا لنا جلد الميتة مشويّاً كانوا يأكلونه ورمّة العظام مسحوقة كانوا يستفُّونها، فرأيتُ عمر طرح رداءه ثمّ اتّزر فما زال يطبخ حتى أشبعهم، ثمّ أرسل أسلم إلى المدينة فجاءنا بأبعرة فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبانة ثمّ كساهم، وكان يختلف إليهم وإلى غيرهم حتى رفع اللّه ذلك.

قال أبو خَيْثمة: رأت الشفاء بنت عبد اللّه فتياناً يقصدون في المشي ويتكلّمون (٦٠/٣) رويداً، فقالت: ما هذا؟ قالوا: نُسّاك، فقالت: كان واللّه عمر إذا تكلّم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو واللّه ناسك حقّاً.

قال الحسن: خطب عمرُ الناسَ وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة منها أدم. قال أبو عثمان النُّهدي: رأيتُ عمرَ يرمي الجمرة وعليه إزار مرقّع بقطعة جراب، وقال عليٌّ: رأيت عمر يطوف بالكعبة وعليه إزار فيه إحدى وعشرون رقعة فيها من أدم.

وقال الحسن: كان عمر يمرّ بالآية من وِرده فيسقط حتى يعاد كما يعاد [الطور: ٨٠٧] المريض، وقيل: إنّه سمع قارئاً يقرأ والطُّور، فلمّا انتهى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾، سقط ثمّ تحامل إلى منزله فمرض شهراً من ذلك.

قال الشعبي: كان عمر يطوف في الأسواق ويقرأ القرآن ويقضي بين الناس حيث أدركه الخصوم.

قال موسى بن عقبة: أتى رهط إلى عمر فقالوا له: كثُرَ العيالُ واشتدّت المؤونةُ فزدنا في عطائنا. قال: فعلتموها، جمعتم بين الضرائر واتخذتم الخدم من مال اللّه، لوددتُ أنّي وإيّاكم في سفينة في لُجّة البحر تذهب بنا شرقاً وغرباً فلن يعجز الناس أن يولّوا رجلاً منهم فإن استقام اتّبعوه وإن جنف قتلوه. فقال طلحة: وما عليك لو قلت: وإن تعوّج عزلوه؟ قال: لا، القتل أنكل من بعده، احذروا فتى ابن قريش وابن كريمها الذي لا ينام إلاّ على الرضا ويضحك عند الغضب وهو يتناوَل مَن فوقه ومَن تحته. (٦١/٣)

قال مجالد: ذُكر رجل عند عمر فقيل: يا أمير المؤمنين، فاضل لا يعرف من الشرّ شيئاً. قال: ذاك أوقع له فيه. قال صالح بن كيسان: قال المغيرة بن شعبة: لما دُفن عمر أتيتُ علياً وأنا أُحبّ أن أسمع منه في عمر شيئاً، فخرج ينفض رأسه ولحيته وقد اغتسل وهو ملتحف بثوب لا يشكّ أن الأمر يصير إليه، فقال: يرحم اللّه ابن الخطّاب، لقد صدقت ابنةُ أبي حثمة، ذهب بخيرها ونجا من شرّها، أمّا واللّه ما قالت ولكن قُوِّلت. وقالت عاتكة بنت زيد بن عمرو في عمر:

فجّعني فيروزُ لا دَرَّ دَرُّهُ ... بأبيَضَ تالٍ للكتابِ نجيبِ
رؤوف على الأدنَى غليظٍ على العدا ... أخي ثقةٍ في النائباتِ مُنيبِ
متى ما يقلْ لا يُكذِبِ القولَ فعلُه ... سريعٍ إلى الخيراتِ غيرِ قطوبِ

وقال أيضاً:

عَيِنِ جُودي بعَبْرةٍ ونَحيبِ ... لا تملّي على الإمامِ النّجيبِ
فجَعَتني المَنُونُ بالفارسِ المُعـ ... ـلمِ يومَ الهياجِ والتّلبيبِ
عصمةِ النّاسِ والمعينِ على الدّهـ ... ـرِ وغيثِ المُتابِ والمحروبِ
قلْ لأهلِ الثّراء والبؤسِ مُوتوا ... قد سَبقتهُ المَنونُ كأسَ شَعوبِ

قال ابن المسيّب: وحجّ عمر فلمّا كان بضَجْنان قال: لا إله إلاّ اللّه العظيم العليُّ المعطي ما شاء من شاء، كنتُ أرعى إبل الخطّاب في هذا الوادي في مدْرَعةٍ صوفٍ، وكان فظّاً يُتعبني إذا عملتُ ويضربني إذا قصّرتُ، وقد أمسيتُ وليسَ بيني وبين اللّه أحد؛ ثمّ تمثل: (٦٢/٣)

لا شيء فيما تَرى تَبقى بَشاشتُه ... يبقى الإلهُ ويودي المالُ والوَلَدُ
لم تُغنِ عن هُرمزٍ يوماً خَزائنُهُ ... والخلدُ قد حاولتْ عادٌ فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرّياحُ به ... والإنسُ والجنّ فيما بينَها يَردُ
أينَ الملوكُ التي كانتْ نَوافلُها ... من كلّ أوْبٍ إليها راكبٌ يَفِدُ
حوْضاً هنالك موروداً بلا كَذِبٍ ... لابدّ من وِرْدِه يوْماً كما وَرَدوا

قال أسلم: إن هند بنت عتبة استقرضت عمر من بيت المال أربعة آلاف تتجر فيها وتضمنها، فأقرضها، فخرجت فيها إلى بلاد كلب فاشترت وباعت، فبلغها أنّ سفيان وابنه عَمراً أتيا معاوية، فعدلت إليه، وكان أبو سفيان قد طلّقها، فقال لها معاوية: ما أقدمك أي أُمّه؟ قالت: النظر إليك أي بُنيّ، إنّه عمر، وإنّما يعمل للّه وقد أتاك أبوك فخشيتُ أن تُخرج إليه من كلّ شيء وأهل ذلك هو ولا يعلم الناس من أين أعطيته فيؤنبوك ويؤنبك عمر فلا يستقيلها أبداً. فبعث إلى أبيه وإلى أخيه بمائة دينار وكساهما وحملهما، فتسخطها عمرو، فقال أبو سفيان: لا تسخطها فإن هذا عطاء لم تغبْ عنه هند؛ ورجعوا جميعاً، فقال أبو سفيان لهند: أربحتِ؟ قال: اللّه أعلم. فلمّا أتت المدينةَ وباعت شكت الوضيعة، فقال لها عمر: لو كان مالي لتركتُه لك، ولكنّه مال المسلمين. وقال لأبي سفيان: بكم أجازك معاوية؟ قال: بمائة دينار.

قال ابن عبّاس: بينما عمر بن الخطّاب وأصحابه يتذاكرون الشعر فقال بعضُهم: فلان أشعر، وقال بعضهم: بل فلان أشعر، قال: فأقبلت فقال(٦٣/٣) عمر: قد جاءكم أعلم الناس بها، من أشعر الشعراء؟ قال: قلت: زهير بن أبي سُلمى. فقال: هلمّ من شعره ما نستدلّ به على ما ذكرت. فقلتُ: امتدحَ قوماً من غَطَفان فقال:

لو كان يقعد فوقَ الشّمس من كرَمٍ ... قومٌ لأوّلهم يوماً إذا قَعَدوا
قومٌ أبوهم سنانٌ حينَ تنسُبُهمْ ... طابوا وطابَ من الأوْلادِ ما ولَدُوا
جِنٌّ إذا فزِعوا إنسٌ إذا أمنوا ... مُمرّدونَ بهاليلٌ إذا جَهَدوا
مُحَسّدونَ على ما كانَ من نِعَمٍ ... لا ينزعُ اللّه منهُمْ ما لَهُ حُسِدُوا

فقال عمر: أحسن واللّه وما أعلم أحداً أولى بهذا الشعر من هذا الحيّ من بني هاشم لفضل رسول اللّه، ﷺ، وقرابتهم منه. فقلت: وُفّقتَ يا أميرَ المؤمنين ولم تزل موفّقاً! فقال: يا ابن عبّاس، أتدري ما منع قومكم منهم بعد محمد، ﷺ؟ فكرهتُ أن أجيبه فقلت: إن لم أكن أدري فإنّ أميرَ المؤمنين يُدريني! فقال عمر: كَرِهوا أن يجمعوا لكم النبوّةَ والخلافة فتَبجّحوا على قومكم بجحاً بجحاً، فاختارت قريشٌ لأنفسها فأصابتْ ووُفّقت. فقلت: يا أمير المؤمنين، إن تأذن لي في الكلام وتُمطْ عني الغضب(٦٤/٣) تكلّمتُ. قال: تكلمّ. قلتُ: أمّا قولك يا أميرَ المؤمنين: اختارت قريشٌ لأنفسها فأصابت ووُفّقتْ، فلو أنّ قريشاً اختارت لأنفسها حين اختار اللّه لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود. وأمّا قولك: إنّهم أبوا أن تكون لنا النبوّةُ والخلافةُ، فإنّ اللّه، عزّ وجلّ، وصف قوماً بالكراهة فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللّه فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩]. فقال عمر: هيهات واللّه يا ابن عبّاس، قد كانت تبلغني عنك أشياء كنتُ أكره أن أُقرّك عليها فتنزيلَ منزلتك منّي. فقلتُ: ما هي يا أمير المؤمنين؟ فإن كانت حقّاً فما ينبغي أن تزيل منزلتي منك، وإن كانت باطلاً فمثلي أماط الباطل عن نفسه. فقال عمر: بلغني أنّك تقول: إنّما صرَفوها عنك حسداً

وبغياً وظلماً. فقلت: أمّا قولك يا أمير المؤمنين: ظلماً، فقد تبيّن للجاهل والحليم، وأمّا قولك: حسداً، فإن آدم حُسد ونحن ولده المحسّدون. فقال عمر: هيهات هيهات! أبتْ والله قلوبكم يا بني هاشم إلاّ حسداً لا يزول. فقلت: مهلاً يا أمير المؤمنين، لا تصف قلوبَ قوم أذهبَ الله عنهم الرّجسَ وطهّرهم تطهيراً بالحسد والغشّ، فإنّ قلبَ رسول الله، ﷺ، من قلوب بني هاشم. فقال عمرُ: إليك عني يا ابن عبّاس، فقلتُ: أفعلُ. فلمّا ذهبتُ لأقومَ استحيا مني فقال: يا ابنَ عبّاس،(٦٥/٣) مكانَك! فوالله إنّي لراعٍ لحقّك محبٌ لما سرّك. فقلت: يا أميرَ المؤمنين، إنّ لي عليك حقّاً وعلى كلّ مسلم، فمن حَفِظه فحظّه أصاب، ومَن أضاعه فحظّه أخطأ. ثمّ قام فمضى.

ذكر قصة الشورى

قال عمرو بن ميمون الأودي: إنّ عمر بن الخطّاب لما طُعن قيل له: يا أمير المؤمنين لو استخلفتَ. فقال: لو كان أبو عبيدة حيّاً لاستخلفته وقلتُ لربّي إن سألني: سمعتُ نبيّك يقول: «إنّه أمين هذه الأمّة». ولو كان سالم مولى أبي حُذيفة حيّاً لاستخلفته وقلتُ لربّي إن سألني: سمعتُ نبيّك يقول: «إنّ سالماً شديد الحبّ لله تعالى». فقال له رجل: أدلّك على عبد الله بن عمر. فقال: قاتلك الله، والله ما أردتَ الله بهذا! ويحك! كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته؟ لا أرب لنا في أموركم، فما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شرّاً فقد صُرف عنّا، بحسب آل عمر أن يحاسَب منهم رجل واحد ويُسأل عن أمر أمة محمد، أمّا لقد جهدتُ نفسي وحرمتُ أهلي، وإن نجوتُ كفافاً لا وزر ولا أجر إنّي لسعيد؛ وأنظر فإن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني، ولن يضيع الله دينه.

فخرجوا ثمّ راحوا فقالوا: يا أمير المؤمنين، لو عهدتَ عهداً. فقال: قد كنتُ(٦٦/٣) أجمعت بعد مقالتي أن أنظر فأولّي رجلاً أمركم هو أحراكم أن يحملكم على الحقّ، وأشار إلى عليّ، فرهقتني غشية فرأيتُ رجلاً دخل جنّة فجعل يقطف كلّ غضة ويانعة فيضمه إليه ويصيّره تحته، فعلمتُ أنّ الله غالبٌ [على] أمره، فما أردتُ أن أتحمّلها حيّاً وميتاً، عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ: إنّهم من أهل الجنّة، وهم عليّ وعثمان وعبد الرحمن وسعد والزبير بن العوّام وطلحة بن عبيد الله، فليختاروا منهم رجلاً، فإذا ولّوا والياً فأحسنوا موازرته وأعينوه.

فخرجوا فقال العبّاس لعليّ: لا تدخل معهم. قال: إنّي أكره الخلاف. قال: إذن ترى ما تكره. فلمّا أصبح عمر دعا عليّاً وعثمان وسعداً وعبد الرحمن والزبير فقال لهم: إنّي نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلاّ فيكم، وقد قُبض رسول الله، ﷺ، وهو عنكم راضٍ، وإنّي لا أخاف الناسَ عليكم إن استقمتم ولكني أخافكم فيما بينكم فيختلف الناس، فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذنها فتشاوروا فيها. ووضع رأسه وقد نزفه الدم.

فدخلوا فتناجوا حتى ارتفعت أصواتهم، فقال عبد الله بن عمر: سبحان الله! إنّ أميرَ المؤمنين لم يمت بعد. فسمعه عمر فانتبه وقال: [ألا] أعرضوا عن هذا فإذا متُّ فتشاوروا ثلاثة أيام وليصلّ بالناس صُهيب ولا يأتين اليوم الرابع إلاّ وعليكم أمير منكم، ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر، وطلحة شريككم في الأمر، فإن قدم في الأيّام الثلاثة قبل قدومه فأمضوا أمركم، ومَن لي بطلحة؟ فقال سعد بن أبي وقّاص: أنا لك به ولا يخالف إن شاء الله تعالى. فقال عمر: أرجو أن لا يخالف إن شاء الله، وما أظنّ يلي إلاّ أحد هذين الرجلين: عليّ أو عثمان،(٦٧/٣) فإن ولي عثمان فرجل فيه لِين، وإن وليَ عليّ ففيه دُعابة، وأحرى به أن يحملهم على طريق الحقّ، وإن تولّوا سعداً فأهله هو وإلاّ فليستعن به الوالي، فإنّي لم أعزله عن ضعف ولا خيانة، ونعم ذو الرأي عبد الرحمن بن عوف، فاسمعوا منه وأطيعوا.

وقال لأبي طلحة الأنصاري: يا أبا طلحة، إنّ الله طالما أعزّ بكم الإسلام فاخترْ خمسين رجلاً من الأنصار فاستحثّ هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم.

وقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً.

وقال لصهيب: صلّ بالناس ثلاثة أيام وأدخل هؤلاء الرهط بيتاً وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة وأبى واحدٌ فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتّفق أربعةٌ وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما، وإن رضي ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً فحكّموا عبد الله بن عمر، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عمّا اجتمع فيه الناس.

فخرجوا فقال عليّ لقوم معه من بني هاشم: إن أُطيع فيكم قومُكم لم تؤمّروا أبداً، وتلقّاه عمّه العبّاس فقال: عدلتْ عنّا! فقال: وما علمك؟ قال: قُرن بني عثمان، وقال: كونوا مع الأكثر، فإن رضي رجلان رجلاً ورجلان رجلاً فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن، فسعد لا يخالف ابن عمّه، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون فيوليها أحدهما الآخر، فلو كان الآخران معي لم ينفعاني. فقال له العبّاس: لم أرفعك في شيء إلاّ رجعتَ إليّ مستأخراً لما أكره، أشرتُ عليكم عند وفاة رسول الله، ﷺ، أن تسأله فيمن هذا الأمر فأبيتَ، فأشرتُ عليكم بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأبيتَ،

وأشرتُ(٦٨/٣) عليك حين سمّاك عمر في الشورى أن لا تدخل معهم فأبيت، احفظ عني واحدة: كلّما عرض عليك القوم فقل: لا، إلاّ أن يولوك، واحذر هؤلاء الرهط فإنّهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم به لنا غيرنا، وايم اللّه لا يناله إلاّ بشرٌ لا ينفع معه خير! فقال عليّ: أمّا لئن بقي عثمان لأذكرنّه ما أتى، ولئن مات ليتداولنّها بينهم، ولئن فعلوا لتجدنّي حيث يكرهون؛ ثمّ تمثل:

حلفتُ بربّ الرّاقصات عشيّةً غدون خفافاً فابتدرْنَ المُحصّبا
ليختلبنْ رهطُ ابن يَعْمَرَ قارناً نجيعاً بنو الشدّاخ ورداً مصلّبا

والتفتَ فرأى أبا طلحة فكره مكانه، فقال أبو طلحة: لن تُراع أبا الحسن.

فلمّا مات عمر وأُخرجت جنازته صلّى عليه صُهيب، فلمّا دُفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة، وقيل: في بيت المال، وقيل: في حجرة عائشة بإذنها، وطلحة غائب، وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم، وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شُعبة فجلسا بالباب، فحصبهما سعد وأقامهما وقال: تريدان أن تقولا: حضرنا وكنّا في أهل الشورى! فتنافس القومُ في الأمر وكثر فيهم الكلام، فقال أبو طلحة: أنا كنت لأن تدفعوها أخوفَ مني لأن تتنافسوها، والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيّام الثلاثة التي أمر، ثمّ أجلس في بيتي فأنظر ما تصنعون! فقال عبد الرحمن: أيّكم يُخرج منها نفسَه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟ فلم يجبه أحدٌ. فقال: فأنا أنخلع منها. فقال عثمان: أنا أوّل من رضي. فقال القوم: قد رضينا. وعليّ ساكت. فقال: ما تقول يا أبا الحسن؟ قال: أعطني موثقاً لتؤثرنّ الحقّ ولا تتبع الهوى(٦٩/٣) ولا تخصّ ذا رحم ولا تألو الأمّة [نُصحاً]. فقال: أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدّل وغيّر وأن ترضوا من اخترتُ لكم، وعليّ ميثاق اللّه أن لا أخصّ ذا رَحم لرحمه ولا آلو المسلمين؛ فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله، فقال لعليّ: تقول إنّي أحقّ من حضر بهذا الأمر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك في الدين ولم تبعد، ولكن أرأيت لو صُرف هذا الأمر عنك فلم تحضر من كنت ترى من هؤلاء الرّهط أحقّ به؟ قال: عثمان. وخلا بعثمان فقال: تقول شيخ من بني عبد مناف، وصهر رسول اللّه، ﷺ، وابن عمّه، ولي سابقة وفضل، فأين يصرف هذا الأمر عني؟ ولكن لو لم تحضر أي هؤلاء الرهط تراه أحقّ به؟ قال: عليّ.

ولقي عليّ سعداً فقال له: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]، أسألك برحم ابني هذا من رسول اللّه، ﷺ، وبرحم عمّي حمزة منك أن تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيراً. ودار عبد الرحمن لياليه يلقى أصحاب رسول اللّه، ﷺ، ومَن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم، حتى إذا كان الليلة التي صبيحتها تستكمل الأجل أتى منزل المسور بن مخرمة فأيقظه وقال له: لم أذق في هذه الليلة كبيرَ غُمض، انطلقْ فادعُ الزبير وسعداً. فدعاهما. فبدأ بالزبير فقال له: خلّ بني عبد مناف وهذا الأمر. قال: نصيبي لعليّ. وقال لسعد: اجعل نصيبك لي. فقال: إن اخترتَ نفسك فنعم، وإن(٧٠/٣) اخترتَ عثمان فعليٌّ أحبّ إليّ؛ أيّها الرجل، بايع لنفسك وأرحْنا وارفع رؤوسنا. فقال له: قد خلعتُ نفسي على أن أختار، ولو لم أفعل لم أُردها، إنّي رأيتُ روضة خضراء كثيرة العشب، فدخل فحلٌ ما رأيتُ أكرم منه فمرّ كأنّه سهم لم يلتفت إلى شيء منها حتى قطعها لم يعرّج، ودخل بعيرٌ يتلوه فاتّبع أثره حتى خرج منها، ثمّ دخل فحلٌ عبقري يجرّ خطامَه ومضى قصد الأوّلَين، ثمّ دخل بعيرٌ رابع فرتع في الروضة، ولا واللّه لا أكون الرابع ولا يقوم مقام أبي بكر وعمر بعدهما أحد فيرضى الناس عنه.

قال: وأرسل المسوّر فاستدعى عليّاً فناجاه طويلاً وهو لا يشكّ أنّه صاحب الأمر، ثمّ نهض، ثمّ أرسل إلى عثمان فتناجيا حتى فرّق بينهما الصبح.

قال عمرو بن ميمون: قال لي عبد اللّه بن عمر: من أخبرك أنّه يعلم ما كلّم به عبدُ الرحمن بن عوف عليّاً وعثمان فقد قال بغير علم فوقع قضاء ربّك على عثمان. فلمّا صلّوا الصبح جمع الرهط وبعث إلى من حضره من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار وإلى أمراء الأجناد فاجتمعوا حتى التجّ المسجد بأهله فقال: أيّها الناس، إنّ الناس قد أجمعوا أن يرجع أهل الأمصار إلى أمصارهم، فأشيروا علي. فقال عمّار: إن أردتَ أن لا يختلف المسلمون فبايع عليّاً. فقال المقداد بن الأسود: صدق عمّار، إن بايعتَ عليّاً قلنا: سمعنا وأطعنا. قال ابن أبي سَرْح: إن أردت أن لا تختلف قريشٌ فبايع عثمان. فقال عبد اللّه بن أبي ربيعة: صدقتَ إن بايعتَ عثمان قلنا: سمعنا وأطعنا. فشتم عمّارٌ ابنَ أبي سَرْح وقال: متى كنتَ تنصح المسلمين؟ فتكلّم(٧١/٣) بنو هاشم وبنو أميّة فقال عمّار: أيّها النّاس، إن اللّه أكرمنا بنبيّه وأعزّنا بدينه فأنّى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم؟ فقال رجل من بني مخزوم: لقد عدوتَ طورَك يا ابن سمية وما أنت وتأمير قريش لأنفسها! فقال سعد بن أبي وقاص: يا عبدَ الرحمن، افرغ قبل أن يفتتن الناس. فقال عبد الرحمن: إنّي قد نظرتُ وشاورتُ فلا تجعلُنّ أيّها الرهط على أنفسكم سبيلاً؛ ودعا عليّاً وقال: عليكم عهدُ اللّه وميثاقُه لتعملن بكتاب اللّه وسنّة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده. قال: أرجو أن أفعل فأعمل بمبلغ علمي وطاقتي؛ ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعليّ، فقال: نعم نعمل. فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان فقال: اللهمّ اسمع واشهدِ اللهمّ أنّي قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان، فبايعه.

فقال عليّ: ليس هذا أوّل يوم تظاهرتم فيه علينا، ﴿فَصَبْرٌ

جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، واللّه ما وليتَ عثمان إلاّ ليردّ الأمر إليك، واللّه كلّ يوم في شأن! فقال عبد الرحمن: يا عليّ، لا تجعل على نفسك حجّة وسبيلاً. فخرج علي وهو يقول: سيبلغ الكتاب أجلهُ. فقال المقداد: يا عبد الرحمن، أما واللّه لقد تركتَه وإنّه من الذي يقضون بالحق وبه يعدلون. فقال: يا مقداد، واللّه لقد اجتهدتُ للمسلمين. قال: إن كنتَ أردتَ اللّه فأثابك اللّه ثواب المحسنين. فقال المقدادُ: ما رأيتُ مثل ما أتى إلى أهل هذا البيت بعد نَبِيِّهِمْ، إنّي لأعجب من قريش أنّهم تركوا رجلاً ما أقول ولا أعلم أن رجلاً أقضى بالعدل ولا أعلم منه، أما واللّه لو أجد أعواناً عليه! فقال عبد الرحمن: يا مقداد اتّقِ اللّه فإنّي خائفٌ عليك الفتنة. فقال(٧٢/٣) رجل للمقداد: رحمك اللّه، من أهل هذا البيت ومن هذا الرجل؟ قال: أهل البيت بنو عبد المطلب، والرجل عليّ بن أبي طالب. فقال عليّ: إن الناس ينظرون إلى قريش وقريش تنظر بينها فتقول: إن ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً، وما كانت في غيرهم تداولتموها بينكم.

وقدم طلحة في اليوم الذي بويع فيه لعثمان فقيل له: بايعوا لعثمان. فقال: كلّ قريش راضٍ به؟ قالوا: نعم. فأتى عثمانَ، فقال له عثمانُ: أنت على رأس أمرك وإن أبيت رددتها. قال: أتردُّها؟ قال: نعم. قال: أكلّ الناس بايعوك؟ قال: نعم. قال: قد رضيتُ لا أرغب عمّا أجمعوا عليه. وبايعه.

وقال المغيرة بن شُعبة لعبد الرحمن: يا أبا محمد قد أصبتَ أن بايعتَ عثمان. وقال لعثمان: ولو بايع عبد الرحمن غيرك ما رضينا. فقال عبد الرحمن: كذبتَ يا أعور، لو بايعتُ غيره لبايعتَه ولقلتَ هذه المقالة. قال: وكان المسور يقول: ما رأيتُ أحداً بذّ قوماً فيما دخلوا فيه بمثل ما بذّهم عبد الرحمن.

قلتُ قوله: إن عبد الرحمن صهر عثمان، يعني أن عبد الرحمن تزوّج أمّ كلثوم بنت عُقبة بن أبي مُعَيط، وهي أخت عثمان لأمّه خلف عليها عُقبة بعد عثمان.

وقد ذكر أبو جعفر رواية أخرى في الشورى عن المسور بن مخرمة وهي تمام حديث مقتل عمر، وقد تقدّم، والذي ذكره ههنا قريب من الذي تقدّم آنفاً، غير أنّه قال: لما دُفن عمر جمعهم عبد الرحمن وخطبهم وأمرهم بالاجتماع وترك التفرّق، فتكلّم عثمان فقال: الحمدُ لله الذي اتخذ محمّداً نبيّاً وبعثه رسولاً وصدقه وعده ووهب له نصرَه على كلّ مَن بعُدَ نسباً أو قرُبَ رَحِماً،(٧٣/٣) ﷺ، جعلنا اللّه له تابعين، وبأمره مهتدين، فهو لنا نور ونحن بأمره نقوم عند تفرّق الأهواء ومجادلة الأعداء، جعلنا اللّه بفضله أئمة، وبطاعته أمراء، لا يخرج أمرنا منّا، ولا يدخل علينا غيرُنا، إلاّ من سفه الحقّ ونكل عن القصد، وأحرِ بها يا ابنَ عوف أن تترك، وأجدر بها أن تكون إن خولف أمرُك وتُرك دعاؤك، فأنا أوّل مجيب [لك] وداعٍ إليك وكفيل بما أقول؛ وأستغفر اللّه لي ولكم.

ثمّ تكلّم الزبير بعده فقال: أمّا بعد فإنّ داعي اللّه لا يُجهل، ومجيبه لا يُخذل عند تفرّق الأهواء وليّ الأعناق، ولن يقصُر عمّا قلت إلاّ غويّ، ولن يترك ما دعوت إليه إلاّ شقيّ، ولولا حدود للّه فُرضت، وفرائض اللّه حُدّت، تُراح على أهلها وتحيا ولا تموت، لكان الموت من الإمارة نجاة، والفرار من الولاية عصمة، ولكن لله علينا إجابة الدعوة وإظهار السنّة لئلا نموت موتة عِمِّيَّةً، ولا نعمى عمى الجاهليّة، فأنا مجيبك إلى ما دعوت، ومعينك على ما أمرتَ، ولا حول ولا قوّة إلاّ باللّه، وأستغفر اللّه لي ولكم.

ثمّ تكلّم سعدٌ فقال بعد حمد اللّه: وبمحمد، ﷺ، أنارت الطُرق واستقامت السبُل وظهر كلّ حقّ ومات كلّ باطل، إيّاكم أيّها النفر وقول الزور وأمنية أهل الغرور، وقد سلبت الأماني قوماً قبلكم ورثوا ما ورثتم ونالوا ما نلتم فاتخذهم اللّه عدوّاً ولعنهم لعناً كبيراً. قال اللّه تعالى: (٧٤/٣) ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، [المائدة:٧٨،٧٩] إنّي نكبتُ قَرْني وأخذت سهمي الفالج وأخذتُ لطلحة بن عُبيد اللّه ما ارتضيتُ لنفسي، فأنا به كفيل وبما أعطيتُ عنه زعيم والأمر إليك يا ابن عوف بجهد النفس وقصد النصح، وعلى اللّه قصد السبيل، وإليه الرجوع، وأستغفر اللّه لي ولكم، وأعوذ باللّه من مخالفتكم.

ثمّ تكلّم عليّ بن أبي طالب فقال: الحمد لله الذي بعث محمداً منّا نبيّاً، وبعثه إلينا رسولاً، فنحن بيت النبوّة، ومعدن الحكمة، وأمان أهل الأرض، ونجاة لمن طلب، لنا حق إن نُعْطَهُ نأخُذْه، وإن نُمْنعه نركبْ أعجاز الإبل ولو طال السُرى، لو عهد إلينا رسول اللّه، ﷺ، عهداً لأنفذنا عهده، ولو قال لنا قولاً لجادلنا عليه حتى نموت، لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حقّ وصلة رَحِم، لا حول ولا قوّة إلاّ باللّه، اسمعوا كلامي وعوا منطقي، عسى أن تروا هذا الأمر بعد هذا المجمع تُنتضى فيه السيوف، وتُخان فيه العهود، حتى تكونوا جماعة، ويكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة وشيعة لأهل الجهالة، ثمّ قال:

فإن تكُ جاسمٌ هلكتْ فإنّي ... بما فعلتْ بنو عبد بن ضجمِ
مطيعٌ في الهواجرِ كلّ غيٍّ ... بصيرٌ بالنّوى من كلّ نجمِ
(٧٥/٣)

فقال عبد الرحمن: أيكم يطيب نفساً أن يُخرج نفسه من هذا الأمر؟ وذكر قريباً ممّا تقدّم.

ثمّ جلس عثمان في جانب المسجد بعد بيعته، ودعا عبيد اللّه بن عمر بن الخطّاب، وكان قتل[قاتل] أبيه أبا لؤلؤة، وقتل جُفَيْنَةَ

رجلاً نصرانيّاً من أهل الحيرة كان ظهيراً لسعد بن مالك، وقتل الهرمزانَ، فلمّا ضربه بالسيف قال: لا إله إلاّ اللّه ! فلمّا قتل هؤلاء أخذه سعدُ بن أبي وقّاص وحبسه في داره وأخذ سيفَه وأحضره عند عثمان، وكان عبيد اللّه يقول: واللّه لأقتلن رجالاً ممّن شرك في دم أبي، يعرّض بالمهاجرين والأنصار، وإنّما قتل هؤلاء النفر لأن عبد الرحمن بن أبي بكر قال غداة قتل عمر: رأيتُ عشية أمس الهرمزان وأبا لؤلؤة، وجُفَيْنَةَ وهم يتناجون، فلمّا رأوني ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه، وهو الخنجر الذي ضُرب به عمر، فقتلهم عبيد اللّه. فلمّا أحضره عثمانُ قال: أشيروا عليّ في هذا الرجل الذي فتق في الإسلام ما فتق ! فقال عليّ: أرى أن تقتله. فقال بعض المهاجرين: قُتل عمر أمس ويُقتل ابنه اليوم ! فقال عمرو بن العاص: إنّ اللّه قد أعفاك أن يكون هذا الحدث ولك على المسلمين سلطان. فقال عثمان: أنا وليّه وقد جعلتها دية واحتملها في مالي. وكان زياد بن لبيد البياضي الأنصاري إذا رأى عبيد اللّه يقول :

ألا يا عبيدَ اللّه ما لك مَهْرَبٌ ... ولا مَلجأ من ابنِ أروَى ولا خَفَرْ
أصبتَ دماً واللّه في غيرِ حِلّهِ ... حراماً وقتلُ الهرمُزانِ له خَطَرْ
على غيرِ شيءٍ غيرَ أن قالَ قائلٌ ... أتّهمونَ الهرمزانَ على عمرْ
فقال سفيهٌ، والحوادثُ جَمّةٌ : ... نَعَم اتّهمْنَهُ قد أشارَ وقد أمَرْ

(٧٦/٣)

وكان سِلاحُ العبد في جوفِ بيته ... يقلّبُها والأمرُ بالأمرِ يُعتَبَرْ

فشكا عبيد اللّه إلى عثمان زياد بن لبيد، فنهى عثمانُ زياداً، فقال في عثمان :

أبا عمرو عُبيدُ اللّه رَهْنٌ ... فلا تَشكُكْ بقتلِ الهرمزانِ
فإنّكَ إن غفَرْتَ الجرمَ عنهُ ... وأسبابَ الخطا فرَسا رهانِ
أتعفو إذ عفَوْتَ بغيرِ حقٍّ ... فما لك بالذي تحكي يدانِ

فدعا عثمان زياداً فنهاه وشذّبه.

وقيل في فداء عبيد اللّه غير ذلك، قال الغماذيان بن الهرمزان: كانت العجم بالمدينة يستروحُ بعضها إلى بعض، فمرّ فيروز أبو لؤلؤة بالهرمزان ومعه خنجر له رأسان فتناوله منه وقال: ما تصنع به؟ قال: أسنّ به. فرآه رجل، فلمّا أصيب عمر قال: رأيتُ الهرمزان دفعه إلى فيروز، فأقبل عبيد اللّه فقتله، فلمّا ولي عثمان أمكنني منه فخرجتُ به وما في الأرض أحدٌ إلاّ معي إلاّ أنّهم يطلبون إليّ فيه، فقلتُ لهم: إلي قتله؟ قالوا: نعم، وسبّوا عبيد اللّه، قلتُ لهم: أفلكم مَنَعَةٌ؟ قالوا: لا، وسبوه، فتركته لله ولهم، فحملوني، فواللّه ما بلغت المنزل إلاّ على رؤوس الناس.

والأوّل أصحّ في إطلاق عبيد اللّه لأنّ عليّاً لما ولي الخلافة أراد قتله فهرب منه إلى معاوية بالشام، ولو كان إطلاقه بأمر ولي الدم لم يتعرّض له عليّ. (٧٧/٣)

ذكر عدّة حوادث

كان العمال فيها على مكّة نافع بن عبد الحارث الخزاعي، وعلى الطائف سفيان بن عبد اللّه الثقفي، وعلى صنعاء يعلى بن مُنْيَة، وعلى الجند عبد اللّه بن أبي ربيعة، وعلى الكوفة المغيرة بن شُعبة، وعلى البَصْرة أبو موسى الأشعري، وعلى مصر عمرو بن العاص، وعلى حمص عمير بن سعد، وعلى دمشق معاوية، وعلى البحرين وما والاها عثمان بن أبي العاص الثقفيّ.

وفيها غزا معاوية الصائفة ومعه عُبادة بن الصامت وأبو أيوب الأنصاري وأبو ذرّ وشدّاد بن أوس.

وفيها فتح معاوية عَسْقلان على صُلح، وكان على قضاء الكوفة شُرَيح، وعلى قضاء البصرة كعب بن سُور، وقيل: إن أبا بكر وعمر لم يكن لهما قاض.

وفي هذه السنة توفي قتادة بن النعمان الأنصاري، وهو الذي ردّ رسولُ اللّه، ﷺ، عينه، وصلّى عليه عمر بن الخطّاب، وهو بدري، وقيل: توفي سنة أربعة وعشرين.

وفي خلافة عمر توفي الحُباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري، وهو بدري، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وهو أسنّ من العبّاس، وعمير بن عوف مولى سُهيل بن عمرو، وهو بدري، وعمير بن وهب بن خلف الجُمَحي، شهد أُحُداً، وعُتبة بن مسعود أخو عبد اللّه بن مسعود، وهو من مهاجرة الحبشة شهد أُحُداً، وعدي بن أبي الزغباء الجهني، وهو عين رسول اللّه، ﷺ، يوم بدر وشهد غيرها أيضاً.

وفيها مات عُوَيم بن ساعدة الأنصاري، وهو عَقَبيٌّ بدري، وقيل: (٧٨/٣) إنّه من بَليّ وله حلف في الأنصار. وفيها مات سهيل بن رافع الأنصاري، شهد بدراً، ومسعود بن أوس بن زيد الأنصاري، وقيل: بل عاش بعد ذلك وشهد صفّين مع عليّ.

وفيها توفي واقد بن عبد اللّه التميمي حليف الخطّاب، وهو أوّل من قاتل في سبيل اللّه في الإسلام وقتل عَمرو بن الحضرمي، وكان إسلامه قبل دخول رسول اللّه، ﷺ، دار الأرقم.

وفيها مات أبو جندل بن سهيل بن عمرو، وأخوه عبد اللّه، وكان عبد اللّه بدريّاً، ولم يشهدها أبو جندل لأن أباه سجنه بمكّة ومنعه من الهجرة إلى يوم الحديبية، وقد تقدم كيف خلّص.

وفيها مات أبو خالد الحارث بن قيس بن خالد، وكان أصابه جرح باليمامة فاندمل ثمّ انتقض عليه فمات منه، وهو عَقَبي بدري.

وفيها مات أبو خِراش الهذلي الشاعر، وخبر موته مشهور.

وفيها توفي غيلان بن سَلِمة الثقفي، وهو الذي أسلم وتحته عشر نسوة.

وفيها في آخرها مات الصعب بن جثامة بن قيس الليثي.(٧٩/٣)

سنة أربع وعشرين

ذكر بيعة عثمان بن عفّان بالخلافة

في المحرم منها لثلاث مضين منه بويع عثمان بن عفّان، وقيل غير ذلك على ما تقدّم، وكان هذا العام يسمّى عام الرُّعاف لكثرته فيه بالناس. واجتمع أهل الشورى عليه، وقد دخل وقت العصر، فأذن مؤذن صُهيب واجتمعوا بين الأذان والإقامة، فخرج فصلّى بالناس وزادهم مائة مائة، ووفَد أهلَ الأمصار، وهو أوّل من صنع ذلك، وقصد المنبر وهو أشدّهم كآبة، فخطب الناس ووعظهم وأقبلوا يبايعونه.

ذكر عزل المُغيرة عن الكوفة وولاية سعد بن أبي وقّاص

وفيها عزل عثمانُ المغيرةَ بن شُعبة عن الكوفة واستعمل سعد بن أبي وقّاص عليها بوصيّة عمر، فإنّه قال: أوصي الخليفة بعدي أن يستعمل سعداً فإنّي لم أعزله عن سوء ولا خيانة، فكان أوّل عامل بعثه عثمان، فعمل عليها سعدٌ سنةً وبعض أخرى، وقيل: بل أقرّ عثمان عمال عمر جميعهم سنة لأن عمر أوصى بذلك، ثمّ عزل المغيرة بعد سنة واستعمل سعداً؛ فعلى هذا القول تكون(٨٠/٣) إمارة سعد سنة خمس وعشرين.

وحجّ بالناس في هذه السنة عثمان، وقيل: عبد الرحمن بن عوف بأمر عثمان.

وقد تقدّم ذكر الفتوح التي ذكر بعض العلماء أنّها كانت زمن عثمان وذكرتُ الخلاف هنالك.

وفي هذه السنة مات عبد الرحمن بن كعب الأنصاري، وهو بدري، وهو أحد البكّائين في غزوة تبوك؛ وسُراقة بن مالك بن جعشم المُدلجي، وقيل: مات بعد ذلك، وهو الذي أدرك النبيّ، ﷺ، في هجرته.(٨١/٣)

سنة خمس وعشرين

ذكر خلاف أهل الإسكندرية

في هذه السنة خالف أهل الإسكندرية ونقضوا صلحهم.

وكان سبب ذلك أن الروم عظُم عليهم فتح المسلمين الإسكندرية وظنّوا أنّهم لا يمكنهم المقام ببلادهم بعد خروج الإسكندرية عن ملكهم، فكاتبوا من كان فيها من الروم ودعوهم إلى نقض الصلح، فأجابوهم إلى ذلك. فسار إليهم من القسطنطينيّة جيش كثير وعليهم مَنَويل الخصي، فأرسوا بها، واتّفق معهم من بها من الروم، ولم يوافقهم المُقَوْقس بل ثبت على صلحه. فلمّا بلغ الخبرُ إلى عمرو بن العاص سار إليهم وسار الروم إليه فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم الروم وتبعهم المسلمون إلى أن أدخلوهم الإسكندرية وقتلوا منهم في البلد مقتلةً عظيمة، منهم مَنَويل الخصيّ. وكان الروم لما خرجوا من الإسكندرية قد أخذوا أموال أهل تلك القرى مَنْ وافقهم ومن خالفهم. فلمّا ظفر بهم المسلمون جاء أهل القرى الذي خالفوهم فقالوا لعمرو بن العاص: إن الروم أخذوا دوابنا وأموالنا ولم نخالف نحن عليكم وكنّا على الطاعة. فردّ عليهم ما عرفوا من أموالهم بعد إقامة البيّنة. وهدم عمرو سور الإسكندرية وتركها بغير سور.

وفيها بلغ سعدَ بن أبي وقّاص عن أهل الري عزمٌ على نقض الهدنة والغدر، فأرسل إليهم وأصلحهم وغزا الديلم ثمّ انصرف. (٨٢/٣)

ذكر عزل سعد عن الكوفة وولاية الوليد بن عُقْبَة

في هذه السنة عزل عثمانُ بن عفّان سعدَ بن أبي وقّاص عن الكوفة في قول بعضهم، واستعمل الوليدَ بن عقبة بن أبي مُعيط، واسم أبي معيط أبان بن أبي عمرو، واسمه ذَكوان بن أميّة بن عبد شمس، وهو أخو عثمان لأمّه، أمّهما أروى بنت كُريز، وأمّها البيضاء بنت عبد المطلب.

وسبب ذلك أن سعداً اقترض من عبد الله بن مسعود من بيت المال قرضاً، فلمّا تقاضاه ابن مسعود لم يتيسر له قضاؤه فارتفع بينهما الكلام، فقال له سعد: ما أراك إلاّ ستلقى شرّاً، هل أنت إلاّ ابن مسعود عبدٌ من هذيل؟ فقال: أجل والله إنّي لابن مسعود وإنّك لابن حُمَينة. وكان هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص حاضراً فقال: إنّكما لصاحبا رسول الله، ﷺ، يُنظر إليكما. فرفع سعدٌ يده ليدعو على ابن مسعود، وكان فيه حدّة، فقال: اللهمّ ربّ السموات والأرض. فقال ابن مسعود: ويلك قل خيراً ولا تلعن. فقال سعد عند ذلك: أمّا والله لولا اتقاء الله لدعوت عليك دعوة لا تخطئك. فولّى عبد الله سريعاً حتى خرج، ثمّ استعان عبدُ الله بأناس على استخراج المال، واستعان سعد بأناس على إنظاره، فافترقوا وبعضهم يلوم بعضاً، يلوم هؤلاء سعداً وهؤلاء عبدَ الله، فكان أوّل ما نُزغَ به بين أهل الكوفة، وأول مصر نزغ الشيطان بين أهله الكوفة. وبلغ الخبر عثمان فغضب عليهما فعزل سعداً وأقرّ عبد الله، واستعمل الوليد بن عُقبة بن أبي مُعيط مكان سعد، وكان على عرب الجزيرة(٨٣/٣) عاملاً لعمر بن الخطّاب، وعثمان بن عفّان بعده، فقدم الكوفة والياً عليها، وأقام عليها خمس سنين، وهو من

أحبّ الناس إلى أهلها. فلمّا قدم قال له سعد: أكِستَ بعدنا أم حمقنا بعدك؟ فقال: لا تجزعَنّ يا أبا إسحاق، كلّ ذلك لم يكن وإنّما هو الملك يتغداه قوم ويتعشاه آخرون. فقال سعد: أراكم جعلتموها ملكاً! وقال له ابن مسعود: ما أدري أصلحتَ بعدنا أم فسد الناس!

ذكر صُلْح أهل أرمينية وأذربيجان

لما استعمل عثمانُ الوليَ على الكوفة عزل عُتْبَةَ بن فرقد عن أذربيجان، فنقضوا، فغزاهم الوليدُ سنة خمس وعشرين، وعلى مقدمته عبدُ اللّه بن شُبَيل الأحمسي، فأغار على أهل مُوقان والبَبّر والطَّيلسان ففتح وغنم وسَبى، فطلب أهلُ كُوَر أذربيجان الصلح، فصالحهم على صلح حُذيفة، وهو ثمانمائة ألف درهم، وقبض المال. ثمّ بثّ سراياه، وبعث سَلمانَ بن ربيعة الباهليَّ إلى أهل أرمينية في اثني عشر ألفاً، فسار في أرمينية يقتل ويسبي ويغنم، ثمّ انصرف وقد ملأ يديه حتى أتىَ الوليدَ، فعاد الوليدُ وقد ظفر وغنم وجعل طريقه على الموصل، ثمّ أتى الحَديثة فنزلها، فأتاه بها كتاب عثمان فيه أن معاوية بن أبي سفيان كتب إليّ يخبرني أن الروم قد أجلبت على المسلمين في جموع كثيرة، وقد رأيتُ أن يمدهم إخوانهم من أهل الكوفة، فابعث إليهم رجلاً له نجدةٌ وبأس في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف من المكان الذي يأتيك كتابي فيه والسلام.

فقام الوليد في الناس وأعلمهم الحال وندبهم مع سلمان بن ربيعة الباهلي، فانتدب معه ثمانية آلاف، فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام إلى أرض الروم ،(٨٤/٣) فشنّوا الغارات على أرض الروم فأصاب الناس ما شاؤوا وافتتحوا حصوناً كثيرة.

وقيل: إن الذي أمدّ حبيب بن مَسْلمة بسلمان بن ربيعة كان سعيد بن العاص، وكان سبب ذلك أن عثمان كتب إلى معاوية يأمره أن يُغزيَ حبيبَ بن مسلمة في أهل الشام أرمينية، فوجّهه إليها، فأتى قاليقلا فحصرها وضيّق على من بها، فطلبوا الأمان على الجلاء أو الجزية، فجلا كثير منهم فلحقوا ببلاد الروم، وأقام حبيب بها فيمن معه أشهراً.

وإنّما سُمّيت قاليقلا لأن امرأة بطريق أرمناقس كان اسمها قالي بنَتْ هذه المدينة فسمتها قالي قَلَه، تعني إحسان قالي، فعرّبتها العرب فقالت: قاليقلا.

ثمّ بلغه أن بطريق أرْمناقس، وهي البلاد التي هي الآن بيد أولاد السلطان قَلْج أرسلان، وهي مَلَطْية وسيواس وأقصرا وقونية وما والاها من البلاد إلى خليج القسطنطينيّة، واسمه المَوْريان، قد توجّه نحوه في ثمانين ألفاً من الروم. فكتب حبيب إلى معاوية يخبره، فكتب معاوية إلى عثمان، فأرسل عثمان إلى سعيد بن العاص يأمره بإمداد حبيب، فأمدّه بسَلمان في ستة آلاف، وأجمع حبيب على تبييت الروم، فسمعته امرأته أمّ عبد اللّه بنت يزيد الكلبية فقالت: أين موعدك؟ فقال: سرادق المَوْريان. ثمّ بيّتهم فقتل مَن وقف له، ثمّ أتى السرادق فوجد امرأته قد سبقته إليه، فكانت أوّل امرأة من العرب ضُرب عليها حجاب سرادق. ومات عنها حبيب فخلف عليها الضَّحّاك بن قيس، فهي أم ولده.

ولما انهزمت الروم عاد حبيب إلى قاليقلا، ثمّ سار منها فنزل مربالا، فأتاه بطريق خلاط بكتاب عِياض بن غنم بأمانه، فأجراه عليه، وحمل إليه البطْريقُ ما عليه من المال، ونزل حبيب خلاط، ثمّ سار منها فلقيه صاحب مُكْس، وهي من البُسْفُرَّجان، فقاطعه على بلاده، ثمّ سار منها إلى أَرْدِشاط ،(٨٥/٣) وهي القرية التي يكون بها القِرمِز الذي يُصبغ به، فنزل على نهر دَبيل وسرّح الخيول إليها فحصرها، فتحصّن أهلها، فنصب عليهم منجنيقاً، فطلبوا الأمان، فأجابهم إليه وبثّ السرايا، فبلغت خيلُه ذاتَ اللُّجُم؛ وإنّما سُمّيت ذات اللُّجُم لأن المسلمين أخذوا لُجُمَ خيولهم فكبسهم الروم قبل أن يُلجموها ثمّ ألجموها وقاتلوهم فظفروا بهم؛ ووجّه سريّةً إلى سِراج طَيْر وبَغْرَوَنْد، فصالحه بطريقُها على إتاوة. وقدم عليه بطريق البُسْفُرْجان فصالحه على جميع بلاده.

وأتى السِّيسَجان فحاربه أهلُها، فهزمهم وغلب على حصونهم وسار إلى جُرْزان، فأتاه رسولُ بطريقها يطلب الصلح فصالحه. وسار إلى تفليس فصالحه أهلُها، وهي من جُرْزان، وفتح عدّة حصون ومدن تجاورها صلحاً. وسار سلمانُ بن ربيعة الباهلي إلى أرّان ففتح البَيْلَقان صلحاً على أن آمنهم على دمائهم وأموالهم وحيطان مدينتهم، واشترط عليهم الجزية والخَراج.

ثمّ أتى سلمان مدينة بَرْذَعة فعسكر على الثُّرثور، نهر بينه وبينها نحو فرسخ، فقاتله أهلها أيّاماً، وشن الغارات في قراها، فصالحوه على مثل صلح البيلقان ودخلها؛ ووجّه خيله ففتحت رساتيق الولاية، ودعا أكرادَ البلاشجان إلى الإسلام فقاتلوه فظفر بهم فأقرّ بعضهم على الجزية وأدّى بعضهم الصدقة، وهم قليل؛ ووجّه سرية إلى شَمْكور ففتحوها، وهي مدينة قديمة، ولم تزل معمورة حتى أخربها السَّناوردية، وهم قوم تجمّعوا لما انصرف يزيد بن أُسَيد عن أرمينية فعظم أمرهم، فعمرها بُغا سنة أربعين ومائتين وسمّاها المتوكلية نسبة الى المتوكل.

وسار سَلْمان إلى مجمع أرس والكُرّ ففتح قَبَلَة، وصالحه صاحب سكر(٨٦/٣) وغيرها على الإتاوة، وصالحه ملك شَرْوان وسائر ملوك الجبال وأهل مَسْقط والشّابَران ومدينة الباب ثمّ امتنعت بعده.

ذكر غزوة معاوية الروم

وفيها غزا معاوية الروم فبلغ عَمّورية فوجد الحصون التي بين أنطاكية وطَرَسُوس خالية فجعل عندها جماعةً كثيرة من أهل الشام والجزيرة حتى انصرف من غزاته، ثمّ أغزى بعد ذلك يزيدَ بن الحُرّ العبسي الصائفة وأمره ففعل مثل ذلك، ولما خرج هدم الحصون إلى أنطاكية.

ذكر غزوة إفريقية

في هذه السنة سيّر عمرو بن العاص عبدَ اللّه بن سعد بن أبي سَرْح إلى أطراف إفريقية غازياً بأمر عثمان، وكان عبد اللّه من جند مصر، فلمّا سار إليها أمدّه عمرو بالجنود فغنم هو وجنده، فلمّا عاد عبد اللّه كتب إلى عثمان يستأذنه في غزو إفريقية، فأذن له في ذلك.

ذكر عدّة حوادث

وفيها أرسل عثمانُ عبدَ اللّه بن عامر إلى كابُل، وهي عمالة سِجِسْتان، فبلغها في قول، فكانت أعظم من خراسان، حتى مات معاوية وامتنع أهلُها.

وفيها وُلد يزيد بن معاوية. وفيها كانت [غزوة] سابور الأولى، وقيل: سنة ست وعشرين، وقد تقدّم ذلك. وحجّ بالناس عثمان.(٨٧/٣)

سنة سِت وعشرين

ذكر الزيادة في الحرم

في هذه السنة أمر عثمان بتجديد أنصاب الحرم. وفيها زاد عثمان في المسجد الحرام ووسعه وابتاع من قوم فأبى آخرون فهدم عليهم ووضع الأثمان في بيت المال. فصاحوا بعثمان، فأمر بهم فحُبسوا، وقال لهم: قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيحوا به. فكلّمه فيهم عبدُ اللّه بن خالد بن أَسِيد فأطلقهم.

(أَسِيد بفتح الهمزة وكسر السين).(٨٨/٣)

سنة سبع وعشرين

ذكر ولاية عبد اللّه بن سعد بن أبي سَرْح مصر وفتح إفريقية

في هذه السنة عُزل عمرو بن العاص عن خراج مصر، واستُعمل عليه عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح، وكان أخا عثمان من الرضاعة، فتباغيا، فكتب عبد اللّه إلى عثمان يقول: إن عَمراً كسر على الخراج. وكتب عمرو يقول: إن عبد اللّه قد كسر على مكيدة الحرب. فعزل عثمانُ عَمراً واستقدمه، واستعمل بدله عبد اللّه على حرب مصر وخراجها، فقدم عمرو مغضباً، فدخل على عثمان وعليه جبة محشوة [قُطناً]، فقال له: ما حشوُ جبّتك؟ قال: عمرو. قال: قد علمت [أنّ حشوها عمرو] ولم أُرد هذا، [إنما سألتُ أقطنٌ هو أم غيره ؟].

وكان عبد اللّه من جند مصر، وكان قد أمره عثمان بغزو إفريقية سنة خمس وعشرين، وقال له عثمان: إن فتح اللّه عليك فلك من الفيء خمس الخمس نَفْلاً. وأمّر عبدَ اللّه بن نافع بن عبد القيس وعبدَ اللّه بن نافع بن الحرث على جند وسرّحهما [إلى الأندلس]، وأمرهما بالاجتماع مع عبد اللّه بن سعد على صاحب إفريقية، ثمّ يقيم عبد اللّه في عمله. فخرجوا حتى قطعوا أرض مصر(٨٩/٣) ووطئوا أرض إفريقية، وكانوا في جيش كثير عدتهم عشرة آلاف من شجعان المسلمين، فصالحهم أهلُها على مال يؤدونه ولم يقدموا على دخول إفريقية والتوغل فيها لكثرة أهلها.

ثمّ إن عبد اللّه بن سعد لما ولي أرسل إلى عثمان في غزو إفريقية والاستكثار من الجموع عليها وفتحها، فاستشار عثمانُ مَن عنده من الصحابة، فأشار أكثرهم بذلك، فجهز إليه العساكر من المدينة وفيهم جماعة من أعيان الصحابة، منهم عبد اللّه بن عبّاس وغيره، فسار بهم عبد اللّه بن سعد إلى إفريقية. فلمّا وصلوا إلى بَرْقة لقيهم عُقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين، وكانوا بها، وساروا إلى طرابلس الغرب فنبهوا مَن عندها من الروم. وسار نحو إفريقية وبثّ السرايا في كلّ ناحية، وكان ملكهم اسمه جُرجير، وملكه من طرابلس إلى طنجة، وكان هِرَقْل ملك الروم قد ولاّه إفريقية فهو يحمل إليه الخراج كلّ سنة. فلمّا بلغه خبر المسلمين تجهز وجمع العساكر وأهل البلاد فبلغ عسكره مائة ألف وعشرين ألف فارس، والتقى هو والمسلمون بمكان بينه وبين مدينة سُبَيْطلة يوم وليلة، وهذه المدينة كانت ذلك الوقت دار الملك، فأقاموا هناك يقتتلون كلّ يوم، وراسله عبد اللّه بن سعد يدعوه إلى الإسلام أو الجزية، فامتنع منهما وتكبر عن قبول أحدهما.

وانقطع خبر المسلمين عن عثمان، فسيّر عبد اللّه بن الزبير في جماعة إليهم ليأتيه بأخبارهم، فسار مجدّاً ووصل إليهم وأقام معهم، ولما وصل إليهم ليأتيه بأخبارهم، فسار مجدّاً ووصل إليهم وأقام معهم، ولما وصل كثر الصياح والتكبير في المسلمين، فسأل جرجير عن الخبر فقيل قد أتاهم عسكر، ففتّ ذلك في عضُده. ورأى عبد اللّه بن الزبير قتال المسلمين كلّ يوم من بكرة إلى الظهر فإذا أُذّن بالظهر عاد كلّ فريق إلى خيامه، وشهد القتال من الغد فلم يرَ(٩٠/٣) ابن أبي سَرْح معهم، فسأل عنه، فقيل إنّه سمع منادي جرجير يقول: من قتل عبد اللّه بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوّجه ابنتي، وهو يخاف، فحضر عنده وقال له: تأمر منادياً ينادي: من أتاني برأس جُرجير نفلتُه مائة ألف وزوّجته ابنته واستعملته على بلاده. ففعل ذلك، فصار جُرجير يخاف أشد من عبد اللّه.

ثمّ إن عبد اللّه بن الزبير قال لعبد اللّه بن سعد: إنّ أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلة وبلاد هي لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيتُ أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرّة فلعلّ اللّه ينصرنا عليهم، فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك.

فلمّا كان الغد فعل عبد اللّه ما اتفقوا عليه وأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم وخيولهم عندهم مسرجة، ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديداً. فلمّا أذّن بالظهر همّ الروم بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزبير وألحّ عليهم بالقتال حتى أتعبهم ثمّ عاد عنهم هو والمسلمون، فكلٌّ من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعباً، فعند ذلك أخذ عبد اللّه بن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين وقصد الروم فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجل واحد وكبّروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون وقُتل جُرجير، قتله ابنُ الزبير، وانهزم الروم وقُتل منهم مقتلة عظيمة وأُخذت ابنة الملك جُرجير سبيّة. ونازل عبدُ اللّه بن سعد المدينة، فحصرها حتى فتحها ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار. (٩١/٣)

ولما فتح عبد اللّه مدينة سُبَيْطلة بثّ جيوشه في البلاد فبلغت قَفصة، فسبَوا وغنموا، وسيّر عسكراً إلى حصن الأَجَم، وقد احتمى به أهلُ تلك البلاد، فحصره وفتحه بالأمان فصالحه أهل إفريقية على ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار، ونفّل عبد اللّه بن الزبير ابنة الملك وأرسله إلى عثمان بالبشارة بفتح إفريقية؛ وقيل: إن ابنة الملك وقعتْ لرجل من الأنصار فأركبها بعيراً وارتجز بها يقول:

يا ابنةَ جُرجيرٍ تمشّي عُقْبتكْ إنّ عليك بالحجاز ربّتكْ
لتحملنْ من قَباء قربتكْ

ثمّ إن عبد اللّه بن سعد عاد من إفريقية إلى مصر، وكان مقامه بإفريقية سنة وثلاثة اشهر، ولم يفقد من المسلمين إلاّ ثلاثة نفر، قُتل منهم أبو ذؤيب الهذلي الشاعر فدُفن هناك، وحُمل خمس إفريقية إلى المدينة فاشتراه مروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار فوضعها عنه عثمان، وكان هذا ممّا أُخذ عليه.

وهذا أحسن ما قيل في خمس إفريقية، فإن بعض الناس يقول: أعطى عثمانُ خمس إفريقية عبدَ اللّه بن سعد، وبعضهم يقول: أعطاه مروانُ بن الحكم. وظهر بهذا أنّه أعطى عبدَ اللّه خمس الغزوة الأولى وأعطى مروانُ خمس الغزوة الثانية التي افتُتحت فيها جميع إفريقية، واللّه أعلم.

ذكر انتقاض إفريقية وفتحها ثانية

كان هِرَقل ملك القسطنطينيّة يؤدي إليه كلُّ ملك من ملوك النصارى الخراج، فهم من مصر وإفريقية والأندلس وغير ذلك، فلمّا صالح أهل إفريقية(٩٢/٣) عبدَ اللّه بن سعد أرسل هرقل إلى أهلها بَطْريقاً له وأمره أن يأخذ منهم مثل ما أخذ المسلمون، فنزل البَطْريق في قَرْطاجنّة وجمع أهل إفريقية وأخبرهم بما أمره الملك، فأبَوْا عليه، وقالوا: نحن نؤدّي ما كان يُؤخذ منّا، وقد كان ينبغي له أن يسامحنا لما ناله المسلمون منّا. وكان قد قام بأمر إفريقية بعد قتل جرجير رجل آخر من الروم، فطرده البَطْريق بعد فِتَن كثيرة، فسار إلى الشام وبه معاوية وقد استقرّ له الأمر بعد قتل عليّ، فوصف له إفريقية وطلب أن يرسل معه جيشاً، فسيّر معه معاويةُ بن أبي سفيان معاويةَ بن حُدَيج السّكوني. فلمّا وصلوا إلى الإسكندريّة هلك الروميُّ ومضى ابن حُديج فوصل إلى إفريقية وهي نار تضطرم وكان معه عسكر عظيم فنزل عند قَمونية، وأرسل البَطريق إليه ثلاثين ألف مقاتل. فلمّا سمع بهم معاوية سيّر إليهم جيشاً من المسلمين، فقاتلوهم، فانهزمت الروم وحصر حصن جَلولاء فلم يقدر عليه فانهدم سور الحصن فملكه المسلمون وغنموا ما فيه، وبثّ السرايا، فسكن الناس وأطاعوا، وعاد إلى مصر.

(حُدَيج بضم الحاء وفتح الدال المهملتين وآخره جيم).

ثمّ لم يزل أهل إفريقية من أطوع أهل البلدان وأسمعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك حتى دبّ إليهم أهلُ العراق واستثاروهم فشقّوا العصا، وفرّقوا بينهم إلى اليوم، وكانوا يقولون: لا نخالف الأئمّة بما تجني العمال. فقالوا لهم: إنّما يعمل هؤلاء بأمر أولئك. فقالوا: حتى نخبرهم، فخرج ميسرة في بضعة وعشرين رجلاً فقدموا على هشام فلم يؤذن لهم، فدخلوا على الأبرش فقالوا: أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده فإذا غنمنا نفّلهم، ويقول: هذا أخلص لجهادنا، وإذا حاصرنا مدينةً قدّمنا وأخّرهم، ويقول: هذا ازدياد في الأجر، ومثلُنا كفى إخوانه؛ ثمّ إنّهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يقرون(٩٣/٣)بطونها عن سخالها يطلبون الفراء البيض لأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد، فاحتملنا ذلك، ثمّ إنّهم سامونا أن يأخذوا كلّ جميلة من بناتنا، فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سنّة ونحن مسلمون، فأحببنا أن نعلم أعن رأي أمير المؤمنين هذا أم لا؟ فطال عليهم المقام ونفدت نفقاتهم، فكتبوا أسماءهم ودفعوها إلى وزرائه وقالوا: إن سأل عنّا أمير المؤمنين فأخبروه. ثمّ رجعوا إلى إفريقية فخرجوا على عامل هشام فقتلوه واستولوا على إفريقية، وبلغ الخبر هشاماً فسأل عن النفر فعُرّف

أسماءهم فإذا هم الذي صنعوا ذلك.

ذكر غزوة الأندلس

لما فُتحت إفريقية أمر عثمانُ عبدَ اللّه بن نافع بن الحصين وعبدَ اللّه بن نافع ابن عبد القيس أن يسيرا إلى الأندلس، فأتياها من قِبَل البحر، وكتب عثمان إلى مَن انتدب معهما: أمّا بعد فإن القسطنطينيّة إنّما تُفتح من قِبَل الأندلس.

فخرجوا ومعهم البربر، ففتح اللّه على المسلمين وزاد في سلطان المسلمين مثل إفريقية. ولما عزل عثمانُ عبدَ اللّه بن سعد عن إفريقية ترك في عمله عبدَ اللّه بن نافع بن عبد القيس فكان عليها، ورجع عبد اللّه إلى مصر، وبعث عبدُ اللّه إلى عثمان مالاً قد حشد فيه، فدخل عمرو على عثمان فقال له: يا عمرو هل تعلم أن تلك اللّقاح درّت بعدك؟ قال عمرو: إن فصالها قد هلكت.(٩٤/٣)

ذكر عدّة حوادث

حجّ بالناس هذه السنة عثمان.

وفيها كان فتح إصطخر الثاني على يد عثمان ابن أبي العاص. وفيها غزا معاوية بن أبي سفيان قِنّسرين.

وفيها مات أبو ذؤيب الهذلي الشاعر بمصر منصرفاً من إفريقية، وقيل: بل مات بطريق مكّة في البادية، وقيل: مات ببلاد الروم، وكلّهم قالوا: مات في خلافة عثمان.

وفيها مات أبو رِمثة البلوي بإفريقية، له صحبة.

وفيها ماتت حفصة بنت عمر بن الخطّاب زوج النبيّ، ﷺ، وقيل: ماتت سنة إحدى وأربعين، وقيل: سنة خمس وأربعين.(٩٥/٣)

سنة ثمان وعشرين

ذكر فتح قُبْرُس

قيل: في سنة ثمان وعشرين كان فتح قبرس على يد معاوية، وقيل: سنة تسع وعشرين، وقيل: سنة ثلاث وثلاثين، وقيل: إنّما غزيت سنة ثلاث وثلاثين لأنّ أهلها غدروا، على ما نذكره، فغزاها المسلمون. ولما غزاها معاوية هذه السنة غزا معه جماعة من الصحابة فيهم أبو ذرّ وعُبادة بن الصامت ومعه زوجته أمّ حَرام، وأبو الدرداء وشدّاد بن أوس، وكان معاوية قد لجّ على عمر في غزو البحر وقرب الروم من حمص، وقال: إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم. فكتب عمرُ إلى عمرو بن العاص: صِف لي البحر وراكبه. فكتب إليه عمرو بن العاص: إنّي رأيتُ خلقاً كبيراً يركبه خلقٌ صغير، ليس إلاّ السماء والماء، إن ركد خرق القلوب، وإن تحرّك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلّة، والشكّ كثرة، هم فيه كَدود على عود، إن مال غَرِق، وإن نجا بَرِق. فلمّا قرأه كتب إلى معاوية: والذي بعث محمداً، ﷺ، بالحقّ لا أحمل فيه مسلماً أبداً، وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول شيء من الأرض فيستأذن اللّه في كلّ يوم وليلة في أن يُغرِق الأرض، فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر! وباللّه(٩٦/٣)لَمُسلم أحبّ إليّ ممّا حوَتِ الروم. وإيّاك أن تعرض إليّ، فقد علمتَ ما لقي العلاء مني.

قال: وترك ملكُ الروم الغزوَ وكاتب عمرَ وقاربه. وبعثت أمّ كلثوم، بنت عليّ بن أبي طالب، زوج عمر بن الخطّاب، إلى امرأة ملك الروم بطيب وشيء يصلح للنساء مع البريد، فأبلغه إليها، فأهدت امرأة الملك إليها هدية، منها عقد فاخر. فلمّا رجع البريد أخذ عمر ما معه ونادى: الصلاة جامعة، فاجتمعوا، وأعلمهم الخبر، فقال القائلون: هو لها بالذي كان لها، وليست امرأة الملك بذمة فتصانعك. وقال آخرون: قد كنّا نُهدى لنستثيب. فقال عمر: لكن الرسولَ رسولُ المسلمين والبريدَ بريدُهم، والمسلمون عظّموها في صدرها فأمر بردّها إلى بيت المال وأعطاها بقدر نفقتها.

فلمّا كان زمن عثمان كتب إليه معاوية يستأذنه في غزو البحر مراراً، فأجابه عثمان بأخَرة إلى ذلك وقال له: لا تنتخب الناس ولا تُقرع بينهم، خيّرهم فمن اختار الغزوَ طائعاً فاحمله وأعِنْه. ففعل، واستعمل عبدَ اللّه بن قيس الجاسيّ حليف بني فزارة، وسار المسلمون من الشام إلى قُبْرُس، وسار إليها عبد اللّه بن سعد من مصر فاجتمعوا عليها، فصالحهم أهلها على جزية سبعة آلاف دينار كلّ سنة يؤدون إلى الروم مثلها، لا يمنعهم المسلمون عن ذلك وليس على المسلمين منعهم ممّن أرادهم ممّن وراءهم، وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوّهم من الروم إليهم ويكون طريق المسلمين إلى العدوّ عليهم.

قال جبير بن نُفَير: ولما فُتحت قبرس ونُهب منها السبي نظرتُ إلى أبي الدرداء يبكي فقلت: ما يُبكيك في يوم أعزّ اللّه فيه الإسلام وأهله؟ قال: فضرب منكبي بيده وقال: ما أهون الخلق على اللّه إذا تركوا أمره بينما هي أمة(٩٧/٣)ظاهرة قاهرة للناس لهم الملك إذا تركوا أمرَ اللّه فصاروا إلى ما ترى فسلّط عليهم السباء، وإذا سلّط السباء على قوم فليس له فيهم حاجة.

وفي هذه الغزاة ماتت أمّ حَرام بنت مِلحان الأنصارية، ألقتها بغلتُها بجزيرة قبرس فاندقت عنقُها فماتت، تصديقاً للنبيّ، ﷺ، حيث أخبرها أنّها أوّل من يغزو في البحر، وبقي عبد اللّه بن قيس الجاسي على البحر فغزا خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة في

البر والبحر، لم يغرق أحد ولم يُنكب، فكان يدعو اللّه أن يعافيه في جنده، فأجابه، فلمّا أراد اللّه أن يصيبه في جسده خرج في قارب طليعةً، فانتهى إلى المرفإ من أرض الروم وعليه مساكين يسألون، فتصدق عليهم، فرجعت امرأةٌ منهم إلى قريتها فقالت للرجال: هذا عبد اللّه بن قيس في المرفإ؛ فثاروا إليه فهجموا عليه فقتلوه بعد أن قاتلهم فأصيب وحده ونجا الملاح حتى أتى أصحابَه فأعلمهم فجاؤوا حتى أرسوا بالمرفإ، والخليفة عليهم سفيان بن عوف الأزدي، فخرج إليهم فقاتلهم فضجر فجعل يشتم أصحابه. فقالت جارية عبد اللّه: ما هكذا كان يقول حين يقاتل ! فقال سفيان: فكيف كان يقول؟ قالت: ألغمرات ثمّ ينجلينا. فلزمها بقولها، وأصيب في المسلمين يومئذ. وقيل لتلك المرأة بعد: بأي شيء عرفتِه؟ قالت: كان كالتاجر فلمّا سألته أعطاني كالملك فعرفته بهذا.

وفي هذه السنة غزا حبيب بن مسلمة سورية من أرض الروم.

(٩٨/٣)وفيها تزوّج عثمان نائلة بنت الفَرافصة، وكانت نصرانيةً فأسلمت قبل أن يدخل بها. وفيها بنى عثمان الزوراء، وحجّ بالناس عثمان هذه السنة.

(حَرام بالحاء المهملة والراء. والجاسي بالجيم والسين المهملة. والفَرافصة بفتح الفاء إلا الفرافصة بن الأحوص الكلبي الذي من ولده نائلة زوج عثمان).(٩٩/٣)

سنة تسع وعشرين

ذكر عزل أبي موسى عن البصرة واستعمال ابن عامر عليها

قيل: في هذه السنة عزل عثمان أبا موسى الأشعري عن البَصْرة، واستعمل عبدَ اللّه بن عامر بن كُرَيز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، وهو ابن خال عثمان، وقيل: كان ذلك لثلاث سنين مضت من خلافة عثمان.

وكان سبب عزله أن أهل إيذَج والأكراد كفروا في السنة الثالثة من خلافة عثمان، فنادى أبو موسى في الناس وحضّهم على الجهاد، وذكر من فضْل الجهاد ماشياً، فحمل نفر على دوابهم وأجمعوا على أن يخرجوا رَجّالة. وقال آخرون: لا نعجل بشيء حتى ننظر ما يصنع، فإن أشبه قولُه فعلَه فعلنا كما يفعل.

فلمّا خرج أخرج ثَقَله من قصره على أربعين بغلاً، فتعلّقوا بعِنانه وقالوا: احملنا على بعض هذه الفضول وارغب في المشي كما رغّبتنا. فضرب القومَ بسوطه، فتركوا دابّته، فمضى. وأتوا عثمان فاستعفوه منه وقالوا: ما كلّ ما نعلم نحبّ أن تسألنا عنه، فأبدِلْنا به. فقال: من تحبّون؟ فقال غيلان بن خَرَشَة: في كلّ أحد عوض من هذا العبد الذي قد أكل أرضنا ! أما منكم(١٠٠/٣)خسيس فترفعوه؟ أما منكم فقير فتجبروه؟ يا معشر قريش، حتى متى يأكل هذا الشيخ الأشعري هذه البلاد؟ فانتبه لها عثمان فعزل أبا موسى وولّى عبدَ اللّه بن عامر بن كُرَيز. فلمّا سمع أبو موسى قال: يأتيكم غلام خرّاج ولاّج، كريم الجدّات والخالات والعمّات، يُجمع له الجندان. وكان عمر ابن عامر خمساً وعشرين سنة، وجُمع له جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاص الثقفي من عُمان والبحرين، واستعمل على خراسان عُمَير بن عثمان بن سعد؛ وعلى سِجِسْتان عبد اللّه بن عُمَير الليثي، وهو من ثعلبة، فأثخن فيها إلى كابُل، وأثخن عمير في خراسان حتى بلغ فرغانة لم يدع دونها كورة إلاّ أصلحها؛ وبعث إلى مُكران عُبيدَ اللّه بن مَعْمَر فأثخن فيها حتى بلغ النهر؛ وبعث على كَرْمان عبد الرحمن بن عُبَيس؛ وبعث إلى الأهواز وفارس نفراً؛ ثمّ عزل عبدَ اللّه بن عمير واستعمل عبدَ اللّه بن عامر فأقرّه عليها سنة ثمّ عزله؛ واستعمل عاصمَ بن عمرو وعزل عبدَ الرحمن بن عُبَيس؛ وأعاد عديَّ بن سُهيل بن عدي وصرف عبيد اللّه بن معمر إلى فارس واستعمل مكانه عمير بن عثمان؛ واستعمل على خراسان أُمَير بن أحمر اليشكري؛ واستعمل على سجستان سنة أربع عِمران بن الفُضَيل البرجمي. ومات عاصم بن عمرو بكرمان.

(عُبَيس بضم العين المهملة وفتح الباء الموحدة ثمّ الياء المثناة من تحتها وآخره سين مهملة. وأُمَير بضم الهمزة وفتح الميم وآخره راء. وكُرَيز بن ربيعة بضم الكاف وفتح الراء).(١٠١/٣)

ذكر انتقاض أهل فارس

ثمّ إن أهل فارس انتقضوا ونكثوا بعُبَيد اللّه بن مَعْمَر، فسار إليهم، فالتقوا على باب إصطخر، فقُتل عبيد اللّه وانهزم المسلمون، وبلغ الخبر عبد اللّه بن عامر، فاستنفر أهلَ البَصْرة وسار بالناس إلى فارس فالتقوا بإصْطَخْر، وكان على ميمنته أبو بَرْزة الأسلمي، وعلى ميسرته مَعْقِل بن يسار، وعلى الخيل عِمران بن الحُصَين، ولكلّهم صحبة، واشتدّ القتال، فانهزم الفرس وقُتل منهم مقتلة عظيمة وفُتحت إصطخر عنوة، وأتى دارابجرد وقد غدر أهلها ففتحها، وسار إلى مدينة جُور، وهي أردشير خُرّه، فانتقضت إصطخر فلم يرجع وتمم السيرَ إلى جُور وحاصرها، وكان هَرِم بن حيّان محاصِراً لها، وكان المسلمون يحاصرونها وينصرفون عنها فيأتون إصطخر ويغزون نواحي كانت تنتقض عليهم، فلمّا نزل ابن عامر عليها فتحها.

وكان سبب فتحها أن بعض المسلمين قام يصلّي ذات ليلة وإلى جانبه جراب له فيه خبز ولحم، فجاء كلب فجرّه وعدا به حتى دخل المدينة من مدخل لها خفي، فلزم المسلمون ذلك المدخل حتى دخلوها منه وفتحوها عنوة.

فلمّا فرغ منها ابن عامر عاد إلى إصطخر ففتحها عنوة بعد أن حاصرها واشتدّ القتال عليها، ورُميت بالمجانيق، وقتل بها خلقاً كثيراً من الأعاجم وأفنى أكثر أهل البيوتات ووجوه الأساورة، وكانوا قد لجؤوا إليها. وقيل: إن أهل إصطخر لما نكثوا عاد إليها ابن عامر قبل وصوله إلى جُور فملكها عنوةً وعاد إلى جُور فأتى دارابجرد فملكها، وكانت منتقضةً أيضاً، ووطئ أهلَ فارس وطأة لم يزالوا منها في ذل، وكتب إلى عثمان بالخبر، فكتب إليه أن يستعمل(١٠٢/٣)على بلاد فارس هَرِمَ بن حيّان اليشكري وهَرِمَ بن حيّان العبدي والخِرِّيت بن راشد والمِنجاب بن راشد والترجمان الهُجَيمي، وأمره أن يفرق كُوَر خُراسان على جماعة فيجعل الأحنف على المروَيْن، وحبيب بن قُرَّة اليربوعي على بَلخ، وخالد بن عبد اللّه بن زهير على هَراة، وأُمَير بن أحمر على طُوس، وقيس بن هُبَيرة السُّلَمي على نيسابور، وبه تخرَّج عبد اللّه بن خازم، وهو ابن عمّه، ثمّ جمعها عثمان قبل موته لقيس، واستعمل أُمَير بن أحمر على سجستان، ثمّ جعل عليها عبدَ الرحمن بن سَمُرة، وهو من آل حبيب بن عبد شمس، فمات عثمان وهو عليها، ومات وعمران على مُكران، وعُمير بن عثمان بن سعد على فارس، وابن كِندير القُشَيري على كَرْمان.

ثمّ وفَد قيسُ بن هُبيرة عبدَ اللّه بن خازم إلى ابن عامر في زمن عثمان، وكان ابن عامر يكرمه، فقال لابن عامر: اكتب لي على خراسان عهداً أن خرج عنها قيس. ففعل، فرجع إلى خراسان، فلمّا قُتل عثمان وجاش العدوّ قال ابن خازم لقيس: الرأي أن تخلفني وتمضي حتى تنظر فيما ينظرون فيه، ففعل، فأخرج ابن خازم بعده عهداً بخلافته وثبت على خراسان إلى أن قام عليّ بن أبي طالب وغضب قيس من صنيع ابن خازم.

(الخِرِّيت بكسر الخاء المعجمة والراء المشددة وسكون الياء تحتها نقطتان وآخره تاء فوقها نقطتان).(١٠٣/٣)

ذكر الزيادة في مسجد النبيّ ﷺ

في هذه السنة زاد عثمان في مسجد النبيّ، ﷺ، في ربيع الأوّل، وكان ينقل الجصّ من بطن نخل، وبناه بالحجارة المنقوشة، وجعل عُمده من حجارة فيها رصاص، وجعل طوله ستّين ومائة ذراع، وعرضه خمسين ومائة ذراع، وجعل أبوابه على ما كانت أيّام عمر ستة أبواب.

ذكر إتمام عثمان الصلاة بجمعٍ وأول ما تكلّم الناس فيه

حجّ بالناس هذه السنة عثمان، وضرب فسطاطه بمنىً، وكان أوّل فسطاط ضربه عثمان بمنىً، وأتمّ الصلاة بها وبعَرَفة، فكان أوّل ما تكلّم به الناسُ في عثمان ظاهراً حين أتمّ الصلاة بمنى، فعاب ذلك غيرُ واحد من الصحابة، وقال له عليّ: ما حدث أمر ولا قدُم عهد، ولقد عهدتَ النبيّ، ﷺ، وأبا بكر وعمر يصلون ركعتين وأنت صدراً من خلافتك، فما أدري ما ترجع إليه. فقال: رأي رأيتُه. وبلغ الخبر عبد الرحمن بن عوف وكان معه، فجاءه وقال له: ألم تصلّ في هذا المكان مع رسولِ اللّه، ﷺ، وأبي بكر وعمر ركعتين؟ وصليتها أنت ركعتين قال: بلى ولكني أُخبرت أن بعض من حجّ من اليمن وجفاة الناس قالوا: إنّ الصلاة للمقيم ركعتان، واحتجّوا بصلاتي، وقد اتخذتُ بمكّة أهلاً ولي بالطائف مال. فقال عبد الرحمن: ما في هذا عذر، أمّا قولك: اتخذتَ بها أهلاً، فإن زوجك بالمدينة تخرج بها إذا(١٠٤/٣)شئت وإنّما تسكن بسكناك، وأمّا مالك بالطائف فبينك وبينه مسيرة ثلاث ليال، وأمّا قولك عن حاجّ اليمن وغيرهم، فقد كان رسول اللّه، ﷺ، ينزل عليه الوحي والإسلام قليل، ثمّ أبو بكر وعمر، فصلّوا ركعتين وقد ضرب الإسلام بجرانه. فقال عثمان: هذا رأي رأيتُه.

فخرج عبد الرحمن فلقي ابن مسعود فقال: أبا محمد، غُيِّرَ ما تعلم. قال: فما أصنع؟ قال: اعمل بما ترى وتعلم. فقال ابن مسعود: الخلاف شرّ وقد صلّيت بأصحابي أربعاً. فقال عبد الرحمن: قد صلّيتُ بأصحابي ركعتين وأمّا الآن فسوف أصلّي أربعاً.

وقيل: كان ذلك سنة ثلاثين.(١٠٥/٣)

سنة ثلاثين

ذكر عزل الوليد عن الكوفة وولاية سعيد

في هذه السنة عزل عثمانُ الوليدَ بن عُقبة عن الكوفة وولاّها سعيدَ بن العاص، وقد تقدّم سبب ولاية الوليد على الكوفة في السنة الثانية من خلافة عثمان وأنّه كان محبوباً إلى الناس، فبقي كذلك خمس سنين وليس لداره باب، ثمّ إن شباباً من أهل الكوفة نقبوا على ابن الحَيْسمان الخزاعي وكاثروه، فنذِر بهم وخرج عليهم بالسيف وصرخ، فاشرف عليهم أبو شُرَيح الخزاعي، وكان قد انتقل من المدينة إلى الكوفة للقرب من الجهاد، فصاح بهم أبو شُرَيح فلم يلتفتوا وقتلوا ابن الحيسمان، وأخذهم الناس وفيهم زهير بن جندب الأزدي ومُورِّع بن أبي مُورِّع الأسدي، وشُبَيل بن أُبَيّ الأزدي وغيرهم، فشهد عليهم أبو شُرَيح وابنه، فكتب فيهم الوليد إلى عثمان، فكتب عثمان بقتلهم، فقتلهم على باب القصر، ولهذا السبب أخذ في القَسامة بقول وليّ المقتول عن ملإٍ من الناس ليفطم الناس عن القتل.

وكان أبو زُبَيد الشاعر في الجاهليّة والإسلام في بني تغلب، وكانوا أخواله، فظلموه ديناً له، فأخذ له الوليد حقّه إذ كان عاملاً عليهم، فشكر أبو زبيد ذلك له وانقطع إليه وغشيه بالمدينة

والكوفة، وكان نصرانيّاً، فأسلم عند الوليد(١٠٦/٣)وحَسُن إسلامه، فبينما هو عنده أتى آتٍ أبا زينب وأبا مُوَرِّع وجندباً، وكانوا يحفرون للوليد منذ قتل أبناءهم ويضعون له العيون، فقال لهم: إن الوليد وأبا زبيد يشربان الخمر، فثاروا وأخذوا معهم نفراً من أهل الكوفة فاقتحموا عليه فلم يروا، فأقبلوا يتلاومون وسبهم الناس، وكتم الوليد ذلك عن عثمان.

وجاء جندبٌ ورهط معه إلى ابن مسعود فقالوا له: إن الوليد يعتكف على الخمر، وأذاعوا ذلك. فقال ابن مسعود: من استتر عنّا لم نتبع عورته. فعاتبه الوليد على قوله حتى تغاضبا. ثمّ أُتي الوليد بساحر، فأرسل إلى ابن مسعود يسأله عن حدّه، واعترف الساحر عند ابن مسعود، وكان يخيّل إلى الناس أنّه يدخل في دُبُر الحمار ويخرج من فيه، فأمره ابن مسعود بقتله. فلمّا أراد الوليد قتله أقبل الناس ومعهم جندبٌ فضربَ الساحرَ فقتله، فحبسه الوليد وكتب إلى عثمان فيه، وأمره بإطلاقه وتأديبه، فغضب لجندب أصحابه وخرجوا إلى عثمان يستعفون من الوليد، فردّهم خائبين. فلمّا رجعوا أتاهم كلّ موتور فاجتمعوا معهم على رأيهم، ودخل أبو زينب وأبو مُوَرِّع وغيرهما على الوليد فتحدّثوا عنده، فنام فأخذا خاتمه وسارا إلى المدينة، واستيقظ الوليدُ فلم يَرَ خاتمه، فسأل نساءه عن ذلك، فأخبرنه أن آخر من بقي عنده رجلان صفتهما كذا وكذا. فاتهمهما وقال: هما أبو زينب وأبو مُوَرِّع، وأرسل يطلبهما، فلم يوجدا.

فقدما على عثمان ومعهما غيرهما وأخبراه أنّه شرب الخمر، فأرسل إلى الوليد، فقدم المدينة، ودعا بهما عثمان فقال: أتشهدان أنّكما رأيتماه يشرب؟ فقالا: لا. قال: فكيف؟ قالا: اعتصرناها من لحيته وهو يقيء الخمر. فأمر سعيدَ بن العاص فجلده، فأورث ذلك عداوة بين أهليهما، فكان على الوليد خميصة فأمر عليّ بن أبي طالب بنزعها لما جُلد.

هكذا في هذه الرواية، والصحيح أن الذي جلده عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب لأنّ عليّاً أمر ابنه الحسن أن يجلده، فقال الحسن: ولّ حارّها من تولى(١٠٧/٣)قارّها ! فأمر عبدَ اللّه بن جعفر فجلده أربعين. فقال عليٌّ: أمسك، جلد رسول اللّه، ﷺ، وأبو بكر أربعين وجلد عثمانُ ثمانين وكلٌّ سنّة وهذا أحبّ إليّ.

وقيل: إن الوليد سكرَ وصلّى الصبح بأهل الكوفة أربعاً ثمّ التفت إليهم وقال: أزيدكم؟ فقال له ابن مسعود: ما زلنا معك في زيادة منذ اليوم، وشهدوا عليه عند عثمان، فأمر عليّاً بجلده، فأمر عليّ عبدَ اللّه بن جعفر فجلده، وقال الحطيئة :

شهدَ الحُطَيئةُ يومَ يَلقى ربَّه ... أنّ الوليدَ أحقُّ بالعذرِ
نادَى وقد تَمّتْ صلاتهمُ : ... أزيدُكم؟ سكراً وما يدري

فأبَوْا أبا وهب ولو أذنوا ... لقرنتَ بينَ الشفع والوترِ
كفّوا عِنانَكَ إذ جَرَيتَ ولو ... تركوا عِنانَكَ لم تزَلْ تَجري

فلمّا علم عثمان من الوليد شُربَ الخمر عزله وولّى سعيدَ بن العاص بن أميّة، وكان سعيد قد ربي في حجر عمر، فلمّا فتح الشام قدّمه، فأقام مع معاوية، فذكر عمر يوماً قريشاً، فسأل عنه، فأُخبر أنّه بالشام، فاستقدمه، فقدم عليه، فقال له: قد بلغني عنك بلاء وصلاح فازْدَدْ يَزِدْكَ اللّه خيراً. وقال له: هل لك من زوجة؟ قال: لا. وجاء عمرَ بناتُ سفيان بن عُوَيف ومعهن أمّهن، فقالت أمّهنّ: هلك رجالنا وإذا هلك الرجال ضاع النساء، فضعهن في أكفائهن. فزوّج سعيداً إحداهن وزوج عبد الرحمن بن عوف أخرى وأتاه بنات مسعود بن نعيم النهشلي فقلن له: قد هلك رجالنا وبقي الصبيان في أكفائنا فزوج سعيداً إحداهن وجُبير بن مطعم الأخرى. وكان عمومته ذوي بلاء في الإسلام وسابقة، فلم يمت عمر حتى كان سعيد من رجال قريش. فلمّا استعمله عثمان سار حتى أتى الكوفة أميراً ورجع معه(١٠٨/٣)الأشتر وأبو خَشْبة الغفاري وجندب بن عبد اللّه [وجَثّامة] بن صعب بن جَثّامة، وكانوا ممّن شخص مع الوليد يعينونه فصاروا عليه، فقال بعض شعراء الكوفة:

فرَرتُ منَ الوليدِ إلى سعيدٍ ... كأهلِ الحِجرِ إذ جزِعوا فباروا
يَلينا من قريشٍ كلُّ عامٍ ... أميرٌ مُحدَثٌ أوْ مُستَشارُ
لنا نارٌ نُخَوِّفُها فنَخشى ... وليسَ لهم، فلا يخشون، نارُ

فلمّا وصل سعيدٌ الكوفة صعد المنبر فحمدَ اللّه وأثنى عليه ثمّ قال: واللّه لقد بُعثتُ إليكم وإنّي لكارهٌ، ولكني لم أجدْ بُدّاً إذا أُمرتُ أن أأتمر، الا إنّ الفتنة قد أطلعَتْ خَطمَها وعينيها، وواللّه لأضربنّ وجهها حتى أقمعها أو تُعييني، وإنّي لرائد نفسي اليوم.

ثمّ نزل وسأل عن أهل الكوفة فعرف حال أهلها، فكتب إلى عثمان أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغُلب أهلُ الشرف منهم والبيوتات والسابقة، والغالب على تلك البلاد روادف قدمتْ، وأعرابٌ لحقتْ، حتى لا يُنظر إلى ذي شرف وبلاء من نابتتها ولا نازلتها.

فكتب إليه عثمان: أمّا بعد ففضّل أهلَ السابقة والقِدْمة ومن فتح اللّه عليه تلك البلاد، وليكن من نزلها من غيرهم تبعاً لهم إلاّ أن يكونوا تثاقلوا عن الحقّ وتركوا القيامَ به وقام به هؤلاء، واحفظْ لكلٍّ منزلته، وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحقّ، فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل.(١٠٩/٣)

فأرسل سعيد إلى أهل الأيّام والقادسيّة فقال: أنتم وجوه الناس، والوجه ينبئ عن الجسد، فأبلغونا حاجة ذي الحاجة. وأدخل معهم مَن يحتمل من اللواحق والروادف. وجعل القراء في سَمَره، ففشت القالة في أهل الكوفة، فكتب سعيد إلى عثمان

بذلك، فجمع الناس وأخبرهم بما كتب إليه. فقالوا لـه: أصبتَ، لا تُطمعهم فيما ليسوا له بأهل، فإنّه إذا نهـض فـي الأمـور مَـن ليـس بأهل لها لم يحتملها وأفسدها. فقال عثمان: يا أهلَ المدينة استعدّوا واستمسكوا فقد دبّت إليكم الفتن، وإنّي واللّه لأتخلّصنّ لكم الذي لكم حتى أنقله إليكم إن رأيتهم حتى يأتي من شهد مع أهل العراق سهمه فيقيم معه فـي بـلاده. فقـالوا: كيـف تنقـل إلينـا سـهمنا مـن الأرَضين؟ فقـال: يبيعهـا مـن شـاء بمـا كـان لـه بالحجـاز واليمـن وغيرهما من البـلاد. ففرحـوا وفتـح اللّـه لهـم أمـراً لـم يكـن فـي حسابهم، وفعلوا ذلك واشتراه رجال من كلّ قبيلة وجـاز لهـم عـن تراضٍ منهم ومن الناس وإقرار بالحقوق.

ذكر غزو سعيد بن العاص طَبَرِسْتان

في هذه السنة غزا سعيد بن العاص طَبَرِسْتان، فإنّها لـم يغزُهـا أحد إلى هذه السنة. وقد تقدّم في أيّام عمر الخلاف في ذلـك، وأن اصبهبذها صالح سويد بن مقرّن أيّام عمر على مال بذله. وأمّا علـى هذا القول فإن سعيداً غزاها من الكوفة سـنة ثلاثيـن ومعـه الحسـن والحسين وابن عبّاس وابن عمر بن الخطّاب وعبد اللّـه بـن عمـرو بن العاص وحُذيفة بن اليمان وابن الزبير وناس من أصحاب النبيّ، ﷺ، وخـرج ابـن عـامر مـن البَصْـرة يريـد خُراسـان فسبق(١١٠/٣)سعيداً ونـزل نيسـابور، ونـزل سـعيد قُومِـس، وهـي صلح، صالحهم حذيفة بعد نِهاوند فـأتى جُرْجـان فصـالحوه علـى مائتي ألف، ثـمّ أتـى طَمِيسـة، وهـي كلّهـا مـن طبرسـتان متاخمـة جُرْجان، على البحر، فقاتله أهلها، فصلّـى صـلاة الخـوف، أعلمـه حذيفة كيفيتها، وهم يقتتلون. وضرب سعيد يومئـذ رجـلاً بالسـيف على حبل عاتقه فخرج السيف من تحت مرفقه، وحاصرهم، فسألوا الأمـان، فأعطـاهم علـى أن لا يقتـل منهـم رجـلاً واحـداً، ففتحـوا الحصن فقُتلوا جميعاً إلاّ رجلاً واحـداً؛ وحـوى مـا فـي الحصـن، فأصاب رجل من بني نهد سَفَطاً عليـه قفـل، فظـنّ أن فيـه جوهـراً، وبلغ سعيداً فبعث إلى النهدي فأتاه بالسَّفط، فكسروا قفله فوجـدوا فيه سَفَطاً، ففتحوه فوجدوا خرقة حمراء فنشروها، فإذا خرقة صفراء وفيها أيران كميت وورد. فقال شاعر يهجو بني نهد :

آبَ الكـرامُ بالسـبايا غنيمَـةً ... وآبَ بنـو نَهـدٍ بـأيرينِ فـي سَـفَطْ
كُمَيـتٍ وورْدٍ وافريـنِ كلاهمـا ... فظنّوهما غُنمـاً فـاهيك مـن غَلَـطْ

وفتح سعيدٌ نامية، وليست بمدينة، هي صحارى.

ومات مع سعيد محمد بن الحَكَم بن أبي عَقيل جَدّ يوسف بن عمر. ثمّ رجع سعيد، فمدحه كعب بن جُعَيل فقال :

فنِعـمَ الفتـى إذا حـالَ جِيـلانُ دونَـه ... وإذْ هَبَطـوا مـن دَسـتَى ثـمّ أبهَـرَا

(١١١/٣)

في أبيات. ولما صالح سعيد أهلَ جُرْجان كانوا يجبـون أحيانـاً مائة ألف، وأحياناً مائتي ألف، وأحياناً ثلاثمئة ألف، ويقولون: هـذا صلح صلحنا، وربّمـا منعـوه، ثـمّ امتنعـوا وكفـروا، فـانقطع طريـق خراسان من ناحية قُومِس إلاّ على خوف شديد منهم. كـان الطريـق إلى خراسان من فارس إلى كَرْمان إلـى خراسـان، وأوّل مـن صَيّر الطريق من قُومِس قُتيبة بن مسلم حين ولي خراسان. وقدمهـا يزيـد بن المهلّب فصالح صُولا، وفتح البحيرة ودِهِسـتان، وصـالح أهـل جُرْجان على صلح سعيد.

ذكر غزو حُذَيفة الباب وأمر المصاحف

وفيها صُرف حُذيفة عن غزو الري إلى غزو البـاب مَـدَداً لعبـد الرحمـن بـن ربيعـة، وخـرج معـه سـعيد بـن العـاص، فبلـغ معـه أذربيجان، وكانوا يجعلون الناس رِدْءاً، فأقام حتـى عـاد حذيفـة ثـمّ رجعا. فلمّا عاد حذيفة قال لسعيد بن العاص: لقد رأيتُ في سفرتي هذه أمراً، لئن تُرك الناس ليختلفُنّ في القـرآن ثـمّ لا يقومـون عليـه أبداً. قال: وما ذاك؟ قال: رأيتُ أناساً من أهل حمـص يزعمـون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم وأنّهـم أخـذوا القـرآن عـن المِقـداد، ورأيت أهل دمشق يقولـون: إن قراءتهـم خـير مـن قـراءة غـيرهم، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك وإنّهم قرؤوا على ابن مسعود، وأهل البَصْرة يقولون مثـل ذلـك وإنّهـم قـرؤوا علـى أبـي موسـى ويسمُّون مصحفه لُباب القلـوب. فلمّـا وصلـوا إلـى الكوفـة أخبـر حذيفة الناس بذلك وحذّرهم ما يخـاف، فوافقـه أصحـاب رسـول اللّـه، ﷺ، وكثير مـن التـابعين. وقـال لـه أصحـاب ابـن مسـعود: (١١٢/٣)ما تنكر؟ ألسنا نقـرأه علـى قـراءة ابـن مسـعود؟ فغضـب حُذيفة ومن وافقه، وقالوا: إنّما أنتم أعـراب فاسكتوا فـإنّكم علـى خطأ. وقال حذيفة: واللّه لئن عشتُ لآتينّ أمير المؤمنين، ولأشـيرنّ عليه أن يحول بين الناس وبين ذلك. فأغلظ له ابن مسعود، فغضب سعيد وقام وتفرّق الناس، وغضب حُذيفة وسار إلى عثمان فـأخبره بالذي رأى، وقال: أنا النذير العُريان فأدركوا الأمـة. فجمـع عثمـان الصحابة وأخبرهم الخبر، فأعظموه ورأوا جميعاً ما رأى حذيفة.

فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر: أن أرسلي إلينا بـالصحف ننسخها. وكانت هذه الصحف هي التي كُتبت في أيّام أبي بكر، فإن القتل لما كثر في الصحابة يومَ اليمامة قال عمر لأبي بكر: إن القتـل قد كثر واستحرّ بقراء القرآن يوم اليمامـة، وإنّـي أخشـى أن يسـتحرّ القتل بالقراء فيذهب مـن القـرآن كثـير، وإنّـي أرى أن تـأمر بجمـع القرآن؛ فأمر أبو بكر زيـد بـن ثـابت فجمعـه مـن الرِّقـاع والعُسُـب وصدور الرجال، فكانت الصحف عند أبي بكر ثمّ عند عمـر، فلمّـا توفي عمر أخذتها حفصة فكانت عندها.

فأرسل عثمان إليها [مَنْ] أخذها منها وأمر زيدَ بن ثابت وعبـد اللّه بن الزُّبير وسعيد بن العـاص وعبـد الرحمـن بـن الحـارث بـن

هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان: إذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش فإنّما نزل بلسانهم؛ ففعلوا. فلمّا نسخوا الصحف ردّها عثمان إلى حفصة وأرسل إلى كلّ أفق بمصحف وحرق ما سوى ذلك وأمر أن يعتمدوا عليها ويدَعوا ما سوى ذلك. فكلّ الناس عرف فضلَ هذا الفعل إلاّ ما كان من أهل الكوفة، فإن المصحف لما قدم عليهم فرح به أصحاب النبيّ، ﷺ، وإن أصحاب عبد اللّه ومَن وافقهم امتنعوا من ذلك وعابوا الناس، فقام فيهم ابن مسعود وقال: ولا كلّ ذلك فإنّكم واللّه قد سُبقتم سبقاً بيّناً فاربعوا على ظَلْعِكم. ولما قدم عليٌّ الكوفة قام إليه رجل فعاب عثمانَ بجمع الناس على المصحف، فصاح به وقال: اسكتْ فعن ملإٍ منّا فعل ذلك، فلو وليتُ منه ما ولي عثمان لسلكتُ سبيله.(١١٣/٣)

ذكر سقوط خاتم النبيّ، ﷺ، في بئر أريس

وفيها وقع خاتم النبيّ، ﷺ، من يد عثمان في بئر أريس، وهي على ميلين من المدينة، وكانت قليلة الماء، فما أُدرك قعرها بعد.

وكان رسول اللّه، ﷺ، اتخذه لما أراد أن يكاتب الأعاجم يدعوهم إلى اللّه تعالى، فقيل له: إنّهم لا يقبلون كتاباً إلاّ مختوماً، فأمر رسول اللّه، ﷺ، أن يُعمل له خاتم من حديد، فلمّا عُمل جعله في إصبعه، فأتاه جبرائيل فنهاه عنه، فنبذه، وأمر فعُمل له خاتم من نحاس وجعله في إصبعه، فقال [له] جبرائيل: انبذه، فنبذه، وأمر رسولُ اللّه، ﷺ، بخاتم من فضة، فصُنع له، فجعله في إصبعه، فأمره جبرائيل أن يُقرّه، فأقرّه. وكان نقشه ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول سطر، واللّه سطر؛ فتختّم به رسول اللّه، ﷺ، حتى توفي، ثمّ تختم به أبو بكر حتى توفي، ثمّ عمر حتى توفي، ثمّ تختم به عثمان ست سنين. فحفروا بئراً بالمدينة شرباً للمسلمين، فقعد على رأس البئر فجعل يعبث بالخاتم فسقط من يده في البئر، فطلبوه فيها ونزحوا ما فيها من الماء فلم يقدروا عليه، فجعل فيه مالاً عظيماً لمن جاء به، واغتمّ لذلك غمّاً شديداً. فلمّا يئس منه صنع خاتماً آخر على مثاله ونقشه فبقي في إصبعه حتى هلك، فلمّا قُتل ذهب الخاتم فلم يُدْرَ من أخذه.

ذكر تسيير أبي ذرّ إلى الرَّبَذَة

وفي هذه السنة كان ما ذُكر في أمر أبي ذرّ وإشخاص معاوية إيّاه من الشام إلى المدينة، وقد ذُكر في سبب ذلك أمور كثيرة، ومن سبّ معاوية إيّاه وتهديده(١١٤/٣)بالقتل وحمله إلى المدينة من الشام بغير وطاء ونفيه من المدينة على الوجه الشنيع، لا يصحّ النقل به، ولو صحّ لكان ينبغي أن يُعتذر عن عثمان، فإنّ للإمام أن يؤدّب رعيته، وغير ذلك من الأعذار، لا أن يُجعل ذلك سبباً للطعن عليه، كرهتُ ذكرها.

وأمّا العاذرون فإنّهم قالوا: لما ورد ابن السوداء إلى الشام لقي أبا ذرّ فقال: يا أبا ذرّ ألا تعجب من معاوية يقول: المالُ مال اللّه ! ألاَ إنّ كلّ شيء لله، كأنّه يريد أن يحتجنه دون الناس ويمحو اسم المسلمين. فأتاه أبو ذرّ فقال: ما يدعوك إلى أن تسمّي مال المسلمين مال اللّه الساعة؟ قال: يرحمك اللّه يا أبا ذرّ ! ألسنا عِبادَ اللّه والمال ماله؟ قال: فلا تقله. قال: سأقول مال المسلمين. وأتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له مثل ذلك. فقال: أظنّك [واللّه] يهودياً ! فأتى عُبادة بن الصامت فتعلّق به عُبادةُ وأتى به معاويةَ فقال: هذا واللّه الذي بعث عليكم أبا ذرّ.

وكان أبو ذرّ يذهب إلى أن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفقه في سبيل اللّه أو يُعدُّه لكريم، ويأخذ بظاهر القرآن: ﴿الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. [التوبة: ٣٤] فكان يقوم بالشام ويقول: يا معشرَ الأغنياء واسُوا الفقراء، بُشّرَ الذين يكنزون الذهب والفضّة ولا ينفقونها في سبيل اللّه بمكاوٍ من نار تُكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، فما زال حتى وَلِعَ الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء، وشكا الأغنياء ما يلقون منهم. فأرسل معاوية إليه بألف دينار في جُنح الليل فأنفقتها. فلمّا صلّى معاوية الصبح دعا رسوله الذي أرسله إليه فقال: اذهب إلى أبي ذرّ فقل له: أنقذ جسدي من(١١٥/٣)عذاب معاوية فإنّه أرسلني إلى غيرك وإنّي أخطأت بك. ففعل ذلك. فقال له أبو ذرّ: يا بنيَّ قل له: واللّه ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار ولكن أخّرنا ثلاثة أيّام حتى نجمعها. فلمّا رأى معاوية أن فعله يصدق قوله كتب إلى عثمان: إنّ أبا ذرّ قد ضيّق عليّ، وقد كان كذا وكذا، للذي يقوله الفقراء. فكتب إليه عثمان: إن الفتنة قد أخرجت خَطَمَها وعينيها ولم يبقَ إلاّ أن تثب فلا تنكأ القَرح وجهّز أبا ذرّ إليّ وابعث معه دليلاً وكَفكِفِ الناس ونفسك ما استطعتَ. وبعث إليه بأبي ذرّ.

فلمّا قدم المدينة ورأى المجالس في أصل جبل سلع قال: بشّر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مِذكار. ودخل على عثمان فقال له: ما لأهل الشام يشكون ذَرَب لسانك؟ فأخبره. فقال: يا أبا ذرّ عليّ أن أقضي ما عليّ وأن أدعو الرعية إلى الاجتهاد والاقتصاد وما عليّ أن أجبرهم على الزهد. فقال أبو ذرّ: لا ترضوا من الأغنياء حتى يبذلوا المعروف ويحسنوا إلى الجيران والإخوان ويَصِلوا القرابات. فقال كعب الأحبار، وكان حاضراً: من أدّى الفريضة فقد قضى ما عليه. فضربه أبو ذرّ فشجّه، وقال له: يا ابن اليهودية ما أنت وما ههنا؟ فاستوهب عثمانُ كعباً شجّته، فوهبه. فقال أبو ذرّ لعثمان: تأذن لي في الخروج من المدينة؛ فإنّ رسول اللّه، ﷺ، أمرني بالخروج منها إذا بلغ البناء سلعاً. فأذن له، فنزل الرَّبَذة وبني بها مسجداً، وأقطعه عثمان صِرمةً من الإبل وأعطاه مملوكين وأجرى عليه كلّ يوم عطاء، وكذلك على رافع بن خديج،

وكان قد خرج أيضاً عن المدينة لشيء سمعه.

وكان أبو ذرّ يتعاهد المدينة مخافة أن يعود أعرابيّاً، وأخرج معاوية إليه أهله، فخرجوا ومعهم جراب مثقلٌ يدَ الرجل، فقال: انظروا إلى هذا الذي يزهّد في الدنيا ما عنده؟ فقالت امرأته: واللّه ما هو دينار ولا درهم ولكنها(١١٦/٣)فلوس كان إذا خرج عطاؤه ابتاع منه فلوساً لحوائجنا. ولما نزل الرَّبَذة أُقيمت الصلاة وعليها رجل يلي الصدقة، فقال: تقدّم يا أبا ذرّ. فقال: لا، تقدّم أنتَ، فإنّ رسول اللّه، ﷺ، قال لي: اسمعْ وأطعْ وإن كان عليك عبد مجدَّع، فأنتَ عبد ولست بأجدع؛ وكان من رقيق الصدقة اسمه مجاشع.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة زاد عثمان النداء الثالث يوم الجمعة على الزوراء.

وفيها مات حاطب بن أبي بلتعة اللخمي وهو من أهل بدر.

(حاطب بالحاء المهملة. وبلتعة بالباء الموحدة ثمّ التاء المثناة من فوق بوزن مَقْرعة).

وفيها مات عمرو بن أبي سَرح الفهري وكان بدريّاً.

وفيها مات مسعود بن الربيع، وقيل: ابن ربيعة بن عمرو القاري، من القارة، أسلم قبل دخول النبيّ، ﷺ، دار الأرقم، وشهد بدراً، وكان عمره قد جاوز الستين.

وفيها مات عبد اللّه بن كعب بن عمرو الأنصاري، شهد بدراً، وكان على غنائم النبيّ، ﷺ، فيها وفي غيرها.

وفيها مات عبد اللّه بن مظعون أخو عثمان وكان بدريّاً؛ وجبّار بن صخر، وهو بدري أيضاً.

(جبّار بالجيم وآخره راء). (١١٧/٣)

سنة إحدى وثلاثين

ذكر غزوة الصّواري

قيل: وفي هذه السنة كانت غزوة الصواري، وقيل: كانت سنة أربع وثلاثين، وقيل: في سنة إحدى وثلاثين كانت غزوة الأساورة، وقيل: كانتا معاً سنة إحدى وثلاثين، وكان على المسلمين معاوية، وكان قد جُمع الشام له أيّام عثمان.

وسبب جمعه له أنّ أبا عبيدة بن الجرّاح لما حُضِرَ استخلف على عمله عِياضَ بن غَنْم، وكان خاله وابن عمّه، وكان جواداً مشهوراً، وقيل: استخلف معاذ بن جبل، على ما تقدّم، فمات عياض واستخلف عمرُ بعدَه سعيدَ بن حِذْيَم الجُمَحي، ومات سعيد وأمّر عمرُ مكانه عمير بن سعد الأنصاري، ومات عمر وعمير على حمص وقِنّسرين، ومات يزيد بن أبي سفيان فجعل عمرُ مكانه أخاه معاوية، فاجتمعت لمعاوية الأردنُّ ودمشق، ومرض عمير بن سعد فاستعفى عثمانَ واستأذنه في الرجوع إلى أهله، فأذن له، وضمّ عثمانُ حمص وقِنّسرين إلى معاوية، ومات عبد الرحمن بن علقمة، وكان على فلسطين، فضمّ عثمان عمله إلى معاوية فاجتمع الشام لمعاوية لسنتين من إمارة عثمان، فهذا كان سبب اجتماع الشام له.

وأمّا سبب هذه الغزوة فإن المسلمين لما أصابوا من أهل إفريقية وقتلوهم وسبوهم، خرج قسطنطين بن هرقل في جمع له لم تجمع الروم مثله مذ كان(١١٨/٣)الإسلام؛ فخرجوا في خمسمائة مركب أو ستمائة، وخرج المسلمون وعلى أهل الشام معاوية بن أبي سفيان، وعلى البحر عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح، وكانت الريح على المسلمين لما شاهدوا الروم، فأرسى المسلمون والروم وسكنت الريح، فقال المسلمون: الأمان بيننا وبينكم؛ فباتوا ليلتهم والمسلمون يقرؤون القرآن ويصلّون ويدعون، والروم يضربون بالنواقيس، وقرّبوا من الغد سفنهم وقرّب المسلمون سفنهم فربطوا بعضها مع بعض واقتتلوا بالسيوف والخناجر، وقُتل من المسلمين بشرٌ كثير، وقُتل من الروم ما لا يُحصى، وصبروا يومئذٍ صبراً لم يصبروا في موطن قطّ مثله، ثمّ أنزل اللّه نصره على المسلمين، فانهزم قسطنطين جريحاً ولم ينجُ من الروم إلاّ الشريد. وأقام عبد اللّه بن سعد بذات الصواري بعد الهزيمة أيّاماً ورجع. فكان أوّل ما تكلّم به محمد بن أبي حُذيفة ومحمد بن أبي بكر في أمر عثمان في هذه الغزوة وأظهروا عيبه وما غيّر وما خالف به أبا بكر وعمر، ويقولان استعمل عبدَ اللّه بن سعد رجلاً كان رسول اللّه، ﷺ، قد أباحَ دمَه، ونزل القرآن بكفره، وأخرج رسول اللّه، ﷺ، قوماً أدخلهم، ونزع أصحابَ رسول اللّه، ﷺ، واستعمل سعيدَ بن العاص وابن عامر. فبلغ ذلك عبدَ اللّه بن سعد فقال: لا تركبا معنا، فركبا في مركب ما معهما إلاّ القبط، فلقوا العدوّ، فكانا أقلّ المسلمين نكايةً وقتالاً، فقيل لهما في ذلك، فقالا: كيف نقاتل مع عبد اللّه بن سعد؟ استعمله عثمان وعثمان فعل كذا وكذا. فأرسل إليهما عبدُ اللّه ينهاهما ويتهدّدهما، ففسد الناس بقولهما، وتكلّموا ما لم يكونوا ينطقون به.

وأمّا قسطنطين فإنّه سار في مركبه إلى صِقِلّية، فسأله أهلُها عن حاله، فأخبرهم. فقالوا: أهلكتَ النصرانيّة وأفنيت رجالها ! لو أتانا العرب لم يكن عندنا من(١١٩/٣)يمنعهم. ثمّ أدخلوه الحمّام وقتلوه وتركوا من كان معه في المركب وأذنوا لهم في المسير إلى القسطنطينيّة.

وقيل: في هذه السنة فُتحت أرمينية على يد حبيب بن مَسْلَمة، وقد تقدّم ذكر ذلك.

ذكر مقتل يزدجرد بن شهريار

في هذه السنة هرب يزدجرد من فارس إلى خُراسان في قول بعضهم، وقد تقدّم الخلاف فيه، وكان ابن عامر قد خرج من البَصْرة حين وليها إلى فارس فافتتحها، وهرب يزدجرد من جُور، وهي أردشير خُرّه، في سنة ثلاثين، فوجّه ابنُ عامر في أثره مجاشعَ بن مسعود، وقيل: هَرِم بن حيّان العبدي، وقيل: هَرِم بن حيّان اليشكري، فاتبعه إلى كَرْمان، فهرب يزدجرد إلى خراسان. وأصاب مُجاشعَ بن مسعود ومن معه الثلجُ والدَّمَقُ واشتدّ البردُ، وكان الثلج قيد رمح، فهلك الجند وسلم مجاشع ورجل معه جارية فشق بطن بعير فأدخلها فيه وهرب. فلمّا كان الغد جاء فوجدها حية فحملها، فسُمّي ذلك القصر قصر مجاشع لأن جيشه هلكوا فيه، وهو على خمسة فراسخ أو ستة من السِّيرجان من أعمال كَرْمان.

هذا على قول من يقول: إن هرب يزدجرد من فارس كان هذه السنة. (١٢٠/٣)

وأمّا سبب قتله، على ما تقدّم ذكره من فتح فارس وخراسان، فقد اختلف الناس في سبب قتله، فقيل: إنّه هرب من كرمان في جماعة إلى مرو ومعه خُرّزاد أخو رستم، فرجع عنه إلى العراق ووصى به ماهويه مرزبان مرو، فسأله يزدجر مالاً فمنعه، فخافه أهل مرو على أنفسهم فأرسلوا إلى الترك يستنصرونهم عليه، فأتوه فبيّتوه فقتلوا أصحابه، فهرب يزدجرد ماشياً إلى شطّ المَرْغاب فأوى إلى بيت رجل ينقر الأرحاء، فلمّا نام قتله، وقيل: بل بيّته أهلُ مرو ولم يستنصروا بالترك فقتلوا أصحابه وهرب منهم فقتله النقّار، وتبعوا أثره إلى بيت الذي ينقر الأرحاء فأخذوه وضربوه فأقرّ بقتله فقتلوه وأهله.

وكان يزدجرد قد وطئ امرأة بها فولدت له غلاماً ذاهب الشق، ولدته بعد قتله فسُمّي المُخْدَج، فوُلد له أولاد بخراسان، فوجد قُتَيْبَةُ بن مسلم حين افتتح الصُّغد وغيرها جاريتين من وَلَد المخدَّج فبعث بهما أو بإحداهما إلى الحجّاج، فبعث بها إلى الوليد بن عبد الملك، فولدت للوليد يزيد بن الوليد الناقص. وأُخرج يزدجرد من النهر وجُعل في تابوت وحُمل إلى إصْطَخْر فوُضع في ناووس هناك.

وقيل: إن يزدجرد هرب بعد وقعة نِهاوند إلى أرض أصبهان وبها رجل يقال له مطيار كان قد أصاب من العرب شيئاً يسيراً فصار له بها محلّ كبير، فأتى مطيار يزدجردَ ذات يوم فحجبه بوابه ليستأذن له، فضربه وشجّه، فدخل البواب على يزدجرد مدمى، فرحل عن أصبهان من ساعته فأتى الريّ، فخرج إليه صاحب طبرستان وعرض عليه بلاده وأخبره بحصانتها، فلم يجبه.

وقيل: مضى من فوره ذلك إلى سجستان، ثمّ سار إلى مرو في ألف فارس،(١٢١/٣)وقيل: بل قصد فارس فأقام بها أربع سنين، ثمّ أتى كرمان فأقام بها سنتين أو ثلاثاً فطُلب إليه دهقانه شيئاً فلم يجبه فجرّه برجله وطرده عن بلاده، فسار إلى سِجِسْتان فأقام بها نحواً من خمس سنين، ثمّ عزم على قصد خُراسان ليجمع الجموع ويسير بهم إلى العرب، فسار إلى مرو ومعه الرُّهُن من أولاد الدهاقين ومعه فرُخزاد. فلمّا قدم مرو كاتب ملوك الصين وملك فرغانة وملك كابُل وملك الخزر يستمدهم، وكان الدهقان يومئذ بمرو ماهويه أبو بَراز، فوكل ماهويه بمرو ابنه براز ليحفظها ويمنع عنها يزدجرد خوفاً من مكره، فركب يزدجرد يوماً وطاف بالمدينة وأراد دخولَها من بعض أبوابها، فمنعه براز، فصاح به أبوه ليفتح الباب فلم يفعل، وأومأ إليه أبوه أن لا يفعل، ففطن له رجلٌ من أصحاب يزدجرد فأعلمه بذلك واستأذنه في قتله، فلم يأذن له.

وقيل: أراد يزدجرد صرف الدهقنة عن ماهويه إلى سَنجان ابن أخيه، فبلغ ذلك ماهويه، فعمل في هلاك يزدجرد؛ فكتب إلى نيزك طَرخان يدعوه إلى القدوم عليه ليتفقا على قتله ومصالحة العرب عليه؛ وضمن له إن فعل أن يعطيه كلّ يوم ألف درهم. فكتب نيزك إلى يزدجرد يعده المساعدة على العرب وأنّه يقدم عليه بنفسه إن أبعد عسكره وفرُخزاد عنه، فاستشار يزدجرد أصحابه فقال له سنجان: لست أرى أن تُبعد عنك أصحابك وفرُخزاد. وقال أبو براز: أرى أن تتألف نيزك وتجيبه إلى ما سأل. فقبل رأيه وفرّق عنه جنده، فصاح فرُخزاد وشقّ جيبه وقال: أظنكم قاتلي هذا! ولم يبرح فرُخزاد حتى كتب له يزدجرد بخط يده أنّه آمِن وأنّه قد أسلم يزدجرد وأهله وما معه إلى ماهويه، وأشهد بذلك. وأقبل نيزك فلقيه يزدجرد بالمزامير والملاهي، أشار عليه بذلك أبو براز، فلمّا لقيه تأخّر عنه أبو براز فاستقبله نيزك ماشياً، فأمر له يزدجرد (١٢٢/٣) بجنيبة من جنائبه، فركبها، فلمّا توسّط عسكره تواقفا فقال له نيزك فيما يقول: زوّجني إحدى بناتك حتى أناصحك في قتال عدوّك. فسبّه يزدجرد، فضربه نيزك بمقرعته، وصاح يزدجرد، وركض منهزماً. وقتل أصحابُ نيزك أصحابَ يزدجرد وانتهى يزدجرد إلى بيت طحّان فمكث فيه ثلاث أيّام لم يأكل طعاماً. فقال له الطحان: اخرج أيّها الشقيّ فكل طعاماً فقد جعتَ! فقال: لست أصل إلى ذلك إلاّ بزمزمة، وكان عند الطحان رجل يزمزم، فكلّمه الطحان في ذلك ففعل وزمزم له فأكل. فلمّا رجع المزمزم سمع بذكر يزدجرد، فسأل عن حليته فوصفوه له فأخبرهم به وبحليته فأرسل إليه أبو براز رجلاً من الأساورة وأمره بخنقه وإلقائه في النهر، وأتى الطحانَ فضربه ليدله عليه، فلم يفعل وجحده. فلمّا أراد الانصراف عنه قال له بعضُ أصحابه: إنّي لأجد ريح مسك؛ ونظر إلى طرف ثوبه من ديباج في الماء فجذبه فإذا هو يزدجرد، فسأله أن لا يقتله ولا يدلّ عليه وجعل له خاتمه ومنطقته وسِواره. فقال له: أعطني أربعة دراهم وأُخلّي عنك؛ فلم يكن معه وقال: إن خاتمي لا يُحصى ثمنه

فخُذْه، فأبى عليه، فقال له يزدجرد: قد كنتُ أُخْبَرُ أنّي سأحتاج إلى أربعة دراهم فقد رأيتُ ذلك، ثمّ نزع أحد قرطيه فأعطاه الطحانَ ليستر عليه، وأرادوا قتله، فقال: ويحكم ! إنّا نجد في كتبنا أنّه من قتل الملوك عاقبه اللّه بالحريق في الدنيا، فلا تقتلوني واحملوني إلى الدهقان أو إلى العرب فإنّهم يستبقون مثلي ! فأخذوا ما عليه وخنقوه بوتر القوس وألقوه في الماء، فأخذه أسقفُ مرو وجعله في تابوت ودفنه. وسأل أبو براز عن أحد القرطين وأخذ الذي دلّ عليه فضربه حتى أتى على نفسه.

وقيل: بل سار يزدجرد من كَرْمان قبل ورود العرب إليها نحو مرو على الطَّبَسَين وقُوهِسْتان في أربعة آلاف، فلمّا قارب مرو لقيه قائدان يقال لأحدهما بَراز وللآخر سَنجان وكانا متباغضين، فسعى براز بسنجان حتى همّ يزدجرد(١٢٣/٣)بقتله، وأفشى ذلك إلى امرأة من نسائه، ففشا الحديث، فجمع سنجان أصحابه وقصد قصر يزدجرد، فهرب براز وخاف يزدجرد فهرب أيضاً إلى رحى على فرسخين من مرو، فدخل بيت نقّار الرحى، فأطعمه الطحان، فطلب منه شيئاً فأعطاه منطقته، فقال: إنّما يكفيني أربعة دراهم، فلم يكن معه، ثمّ نام يزدجرد فقتله الطحان بفأس كانت معه وأخذ ما عليه وألقى جثّته في الماء وشق بطنه وثقّله.

وسمع بقتله مطران كان بمرو، فجمع النصارى وقال: قُتل ابن شهريار، وإنّما شهريار بن شيرين المؤمنة التي قد عرفتم حقّها وإحسانها إلى أهل ملتنا مع ما نال النصارى في ملك جَدِّه أنوشِروان من الشرف، فينبغي أن نحزن لقتله ونبني له ناووساً، فأجابوه إلى ذلك وبنَوا له ناووساً وأخرجوا جثته وكفنوها ودفنوها في الناووس.

وكان ملكه عشرين سنة، منها أربع سنين في دعة، وست عشرة سنة في تعب من محاربة العرب إيّاه وغلظتهم عليه، وكان آخر من ملك من آل أردشير بن بابك وصفا الملك بعده للعرب.

ذكر مسير ابن عامر إلى خراسان وفتحها

لما قُتل عمرُ بن الخطّاب نقض أهلُ خراسان وغدروا. فلمّا افتتح ابن عامر فارس قام إليه حبيب بن أوس التميمي فقال له: أيّها الأمير إن الأرض(١٢٤/٣) بين يديك ولم يُفتح منها إلاّ القليل، فسِرْ فإن اللّه ناصرُك. قال: أوَلم نأمر بالمسير؟ وكره أن يُظهر أنّه قبل رأيه. وقيل: إن ابن عامر لما فتح فارس عاد إلى البَصْرة واستخلف على إصْطَخْر شريكَ بن الأعور الحارثي، فبنى شريك مسجد إصطخر. فلمّا دخل البَصْرة أتاه الأحنف بن قيس، وقيل غيره، فقال له: إن عدوّك منك هارب، ولك هائب، والبلاد واسعة، فسِرْ فإن اللّه ناصرُك ومعزُّ دينه. فتجهز وسار واستخلف على البَصْرة زياداً، وسار إلى كرمان فاستعمل عليها مجاشعَ بن مسعود السُّلَمي، وله صحبة، وأمره بمحاربة أهلها، وكانوا قد نكثوا أيضاً، واستعمل على سجستان الربيع بن زياد الحرثي، وكانوا أيضاً قد غدروا ونقضوا الصلح. وسار ابن عامر إلى نيسابور وجعل على مقدمته الأحنف بن قيس، فأتى الطَّبَسَين، وهما حصنان، وهما بابا خراسان، فصالحه أهلهما، وسار إلى قوهِسْتان فلقيه أهلها وقاتلهم حتى ألجأهم إلى حصنهم، وقدم عليها ابن عامر فصالحه أهلها على ستمائة ألف درهم. وقيل: كان المتوجه إلى قُوهِسْتان أُمَير بن أحمر اليشكري، وهي بلاد بكر بن وائل؛ وبعث ابن عامر سريّةً إلى رستاق زام من أعمال نَيْسابور، فتحه عنوةً، وفتح باخَرْز من أعمال نيسابور أيضاً، وفتح جُوَين من أعمال نيسابور أيضاً.

ووجّه ابنُ عامر الأسودَ بن كلثوم العدوي من عدي الرِّباب، وكان ناسكاً، إلى بَيْهق، من أعمالها أيضاً، فقصد قصبته ودخل حيطان البلد من ثلمة كانت فيه ودخلت معه طائفة من المسلمين فأخذ العدو عليهم تلك الثلمة، فقاتل الأسودُ حتى قُتل هو وطائفة ممّن معه، وقام بأمر الناس بعده أخوه أدهم بن كلثوم، فظفر وفتح بَيْهق، وكان الأسود يدعو اللّه أن يحشره من بطون السباع والطير، فلم يواره أخوه، ودفن من استُشهد من أصحابه. وفتح ابنُ عامر بُشْتَ من نيسابور.(١٢٥/٣)

(وهذه بشت بالشين المعجمة، وليست ببست التي بالسين المهملة، تلك من بلاد الداوُن وهذه من خراسان من نيسابور).

وافتتح خَوَاف وأسفرايين وأَرْغِيان، ثمّ قصد نيسابور بعدما استولى على أعمالها وافتتحها، فحصر أهلها أشهراً، وكان على كلّ ربع منها مرزبان للفرس يحفظه، فطلب صاحب ربع من تلك الأرباع الأمان على أن يُدخل المسلمين المدينة، فأجيب إلى ذلك، فأدخلهم ليلاً ففتحوا الباب وتحصّن مرزبانها الأكبر في حصنها، ومعه جماعة، وطلب الأمان والصلح على جميع نيسابور، فصالحه على ألف ألف درهم، وولّى نَيسابورَ قيسَ بن الهيثم السُّلَمي، وسيّر جيشاً إلى نَسا وأبيورد فافتتحوها صلحاً؛ وسيّر سريّةً أخرى إلى سَرْخَس مع عبد اللّه بن خازم السُّلَمي، فقاتلوا أهلها ثمّ طلبوا الأمان والصلح على أمان مائة رجل، فأجيبوا إلى ذلك، فصالحهم مرزبانها على ذلك وسمى مائة رجل ولم يذكر نفسه فقتله، ودخل سَرْخَس عنوةً.

وأتى مرزبان طوس إلى ابن عامر فصالحه عن طوس على ستمائة درهم؛ وسيّر جيشاً إلى هَراة عليهم عبد اللّه بن خازم، وقيل غيره، فبلغ مرزبان هَراة ذلك فسار إلى ابن عامر فصالحه عن هَراة وباذَغيس وبُوشَنْج. وقيل: بل سار ابن عامر في الجيش إلى هراة فقاتله أهلُها ثمّ صالحه مرزبانها على ألف ألف درهم، ولما غلب ابن عامر على هذه البلاد أرسل إليه مرزبانُ مرو فصالحه على ألفي

ألف ومائتي ألف درهم، وقيل غير ذلك؛ وأرسل ابنُ عامر حاتمَ بن النُعمان الباهلي إلى مرزبانها، وكانت مرو كلّها صلحاً إلاّ قرية منها يقال لها سِنْج، فإنّها أُخذت عنوة (وهي بكسر السين المهملة والنون الساكنة وآخرها جيم).

ووجّه ابنُ عامر الأحنفَ بن قيس إلى طَخارستان، فمرّ برستاق يُعرف برستاق الأحنف ويدعى سوانجرد، فحصر أهلَها فصالحوه(١٢٦/٣)على ثلاثمئة ألف درهم، فقال الأحنف: أصالحكم على أن يدخل رجل منّا القصر فيُؤذّن فيه ويقيم فيكم حتى ينصرف. فرضوا بذلك، ومضى الأحنف إلى مَرْو الروذ فقاتله أهلها فقتلهم وهزمهم وحصرهم، وكان مرزبانها من أقارب باذان صاحب اليمن، فكتب إلى الأحنف: إنّه دعاني إلى الصلح إسلام باذان، فصالحه على ستمائة ألف، وسيّر الأحنفُ سريةً فاستولت على رُستاق بغ واستاقت منه مواشي، ثمّ صالحوا أهله. وجمع له أهل طَخارستان، فاجتمع أهل الجُوزجان والطالقان والفارياب ومن حولهم في خلق كثير، فالتقوا واقتتلوا، وحمل ملك الصغانيان على الأحنف فانتزع الأحنف الرمح من يده وقاتل قتالاً شديداً، فانهزم المشركون وقتلهم المسلمون قتلاً ذريعاً كيف شاؤوا وعاد إلى مرو الروذ، ولحق بعض العدوّ بالجوزجان، فوجّه إليهم الأحنفُ الأقرعَ بن حابس التميمي في خيل وقال: يا بني تميم تحابّوا وتباذلوا تعدل أُموركم وابدؤوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم، ولا تغلُّوا يسلم لكم جهادكم.

فسار الأقرع فلقي العدوّ الجُوزجان فكانت بالمسلمين جولة ثمّ عادوا فهزموا المشركين وفتحوا الجوزجان عنوة، فقال ابن الغريزة النهشلي :

سقى صَوْبُ السحابِ إذا استهلّتْ ... مصارعَ فتيةٍ بالجُوزجانِ
إلى القصرين مِن رُستاق خُوتٍ ... أقادهمُ هناكَ الأقرعانِ

وفتح الأحنف الطالقان صلحاً، وفتح الفارياب، وقيل: بل فتحها أُمَيّر بن أحمر، ثمّ سار الأحنف إلى بلخ، وهي مدينة طَخارستان، فصالحه أهلها على أربعمائة ألف، وقيل: سبعمائة ألف؛ واستعمل على بَلْخ أسيد بن المتشمّس، (١٢٧/٣) ثمّ سار إلى خوارزم، وهي على نهر جيحون، فلم يقدر عليها، فاستشار أصحابه، فقال له حُضَين بن المنذر: قال عمرو بن معديكرب :

إذا لم تَستطِعْ أمراً فدَعْه ... وجاوِزْهُ إلى ما تَستطيعُ

فعاد إلى بَلْخ وقد قبض أسيد صلحها، ووافق وهو يجيبهم المهرجان، فأهدوا له هدايا كثيرة من دراهم ودنانير ودواب وأوان وثياب وغير ذلك، فقال لهم: ما صالحناهم على هذا ! فقالوا: لا، ولكن هذا شيء نفعله في هذا اليوم بأمرائنا. فقال: ما أدري ما هذا ولعلّه من حقّي ولكن أقبضه حتى أنظر، فقبضه حتى قدم الأحنف فأخبره، فسألهم عنه، فقالوا ما قالوا لأسيد، فحمله إلى ابن عامر وأخبره عنه، فقال: خذه يا أبا بحر. قال: لا حاجة لي فيه. فأخذه ابن عامر. قال الحسن البصري: فضمّه القرشي، وكان مضمّاً.

ولما تمّ لابن عامر هذا الفتح قال له الناس: ما فُتح لأحد ما فُتح عليك، فارس وكَرْمان وسِجِسْتان وخُراسان. فقال: لا جَرَم لأجعلن شكري لله على ذلك أن أخرج مُحرِماً من موقفي هذا. فأحرم بعمرة من نيسابور وقدم على عثمان واستخلف على خراسان قيسَ بن الهيثم، فسار قيسٌ بعد شخوصه في أرض طَخارستان فلم يأتِ بلداً منها إلاّ صالحه أهلُه وأذعنوا له، حتى أتى سِمِنْجان فامتنعوا عليه، فحصرهم حتى فتحها عنوة.

(أَسِيد بفتح الهمزة وكسر السين. وحضين بن المنذر بالضاد المعجمة).

ذكر فتح كَرْمان

لما سار ابن عامر عن كرمان إلى خُراسان واستعمل مجاشعَ بن مسعود السُّلَمي على كَرْمان، على ما ذكرناه قبل، أمره أن يفتحها، وكان أهلها قد نكثوا(١٢٨/٣)وغدروا، ففتح هَميد عنوةً واستبقى أهلها وأعطاهم أماناً وبنى بها قصراً يُعرف بقصر مجاشع، وأتى السِّيرجان، وهي مدينة كرمان، فأقام عليها أياماً يسيرة وأهلها متحصّنون، فقاتلهم وفتحها عنوةً، فجلا كثير من أهلها عنها، وفتح جِيرَفْت عنوةً، وسار في كرمان فدوّخ أهلها، وأتى القُفص وقد تجمّع له خلق كثير من الأعاجم الذي جلوا، فقاتلهم فظفر بهم وظهر عليهم، وهرب كثيرٌ من أهل كرمان فركبوا البحر ولحق بعضهم بمُكران وبعضهم بسجستان، فأُقطعت العرب منازلهم وأراضيهم فعمروها واحتفروا لها القنيَّ في مواضع منها وأدّوا العشر منها.

ذكر فتح سجستان وكابُل وغيرهما

قد تقدّم ذكر فتح سجستان أيام عمر بن الخطّاب، ثمّ إن أهلها نقضوا بعده. فلمّا توجّه ابن عامر إلى خراسان سيّر إليها من كرمان الربيعَ بن زياد الحارثي، فقطع المفازة حتى أتى حصن زالِق، فأغار على أهله يوم مهرجان وأخذ الدّهقان، فافتدى نفسه بأن غرز عَنَزة وغمرها ذهباً وفضة وصالحه على صلح فارس. ثمّ أتى بلدة يقال لها كَرْكُوَيه، فصالحه أهلها، وسار إلى زَرَنْج فنزل على مدينة رُوشت بقرب زَرَنْج، فقاتله أهلها وأصيب رجال من المسلمين. ثمّ انهزم المشركون وقُتل منهم مقتلة عظيمة، وأتى الربيعُ ناشِرُوذ ففتحها، ثمّ أتى شَرْواذ فغلب عليها، وسار منها إلى زرنج فنازلها وقاتله أهلها فهزمهم وحصرهم، فأرسل إليه مرزبانها ليصالحه واستأمنه على نفسه ليحضر عنده فآمنه، وجلس له الربيع على جسد

من أجساد القتلى واتكأ على آخر وأمر أصحابه ففعلوا مثله، فلمّا رآهم المرزبان هاله ذلك فصالحه على ألف وصيف مع كلّ وصيف جام من ذهب، ودخل المسلمون المدينة. ثمّ سار منها إلى سَناروذ، وهي واد، فعبره وأتى القرية التي بها مربط فرس رستم الشديد، فقاتله أهلها، فظفر بهم(١٢٩/٣)ثمّ عاد إلى زَرَنْج وأقام بها نحو سنة؛ وعاد إلى ابن عامر، واستخلف عليها عاملاً، فأخرج أهلُها العامل وامتنعوا.

فكانت ولاية الربيع سنة ونصفاً. وسَبى فيها أربعين ألف رأس. وكان كاتبه الحسن البصري. فاستعمل ابنُ عامر عبدَ الرحمن بن سَمُرة بن حبيب بن عبد شمس على سجستان، فسار إليها فحصر زرنج، فصالحه مرزبانها على ألفي ألف درهم وألفي وصيف. وغلب عبد الرحمن على ما بين زرنج والكَشّ من ناحية الهند، وغلب من ناحية الرُّخّج على ما بينه وبين الداوُن. فلمّا انتهى إلى بلد الداوُن حصرهم في جبل الزوز ثمّ صالحهم ودخل على الزوز، وهو صنم من ذهب، عيناه ياقوتتان، فقطع يده وأخذ الياقوتتين، ثمّ قال للمرزبان: دونك الذهب والجوهر. وإنّما أردتُ أن أعلمك أنّه لا يضرّ ولا ينفع. وفتح كابُل وزابُلِستان، وهي ولاية غزنة، ثمّ عاد إلى زرنج فأقام بها حتى اضطرب أمرُ عثمان، فاستخلف عليها أُمَير بن أحمر اليشكري وانصرف، فأخرج أهلُها أُمَير بن أحمر وامتنعوا؛ ولأمير يقول زياد بن الأعجم:

لولا أُمَيرٌ هلكتْ يَشكُرُ ... ويشكرٌ هلكى على كلّ حالْ

ذكر عدّة حوادث

وحجّ بالناس هذه السنة عثمان.

وفيها مات أبو الدرداء الأنصاري، وهو بدري، وقيل: سنة اثنتين وثلاثين.

وفيها مات أبو طلحة الأنصاري ،(١٣٠/٣)وهو بدري، وقيل: سنة اثنتين وثلاثين، وقيل: سنة إحدى وخمسين.

وفيها مات أبو أُسيد الساعدي، وقيل: ماتَ سنة ستّين، وهو على هذا القول آخر من مات من البدريين.

(أُسيد بضم الهمزة).

وفيها مات أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب بن هاشم، وأخوه الطفيل. وأبو سفيان بن حرب بن أمية، وهو ابن ثمان وثمانين سنة. (١٣١/٣)

سنة اثنتين وثلاثين

قيل: في هذه السنة غزا معاوية بن أبي سفيان مضيق القسطنطينيّة ومعه زوجته عاتكة بنت قَرَظَة، وقيل فاختة

ذكر ظفر الترك وقتل عبد الرحمن بن ربيعة

في هذه السنة انتصرت الخزر والترك على المسلمين.

وسببه أن الغزوات لما تتابعت عليهم تذامروا وقالوا: كنّا [أُمّة] لا يُقْرِن بنا أحد حتى جاءت هذه الأمة القليلة فصرنا لا نقوم لها. فقال بعضهم: إن هؤلاء لا يموتون وما أصيب منهم أحد في غزوهم. وقد كان المسلمون غزوهم قبل ذلك فلم يُقتل منهم أحد، فلهذا ظنّوا أنّهم لا يموتون. فقال بعضهم: أفلا تجربون؟ فكمّنوا لهم في الغياض، فمرّ بالكمين نفرٌ من الجند فرموهم منها فقتلوهم فتواعد رؤوسهم إلى حربهم ثمّ اتّعدوا يوماً. وكان عثمان قد كتب إلى عبد الرحمن بن ربيعة وهو على الباب: إن الرعية قد أبطرها البطنةُ فلا تقتحم بالمسلمين فإنّي أخشى أن يُقتلوا. فلم يرجع عبد الرحمن عن مقصده، فغزا نحو بلنجر، وكان الترك قد اجتمعت مع الخزر فقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً وقُتل عبد الرحمن ،(١٣٢/٣)وكان يقال له ذو النور، وهو اسم سيفه، فأخذ أهل بَلَنْجَر جسدَه وجعلوه في تابوت فهم يستسقون به، فلمّا قُتل انهزم الناس وافترقوا فرقتين: فرقة نحو الباب، فلقوا سلمان بن ربيعة أخا عبد الرحمن، كان قد سيّره سعيد بن العاص مَدَداً للمسلمين بأمر عثمان، فلمّا لقوه نجّوا معه، وفرقة نحو جيلان وجُرجان، فيهم سلمان الفارسي وأبوهُريرة، وكان في ذلك العسكر يزيد بن معاوية النَّخَعي وعلقمة بن قيس ومِعْضَد الشيباني وأبو مفرز التميمي في خباء واحد، وعمرو بن عُتبة وخالد بن ربيعة والحلحال بن ذري والقَرْثَع في خباء، فكانوا متجاورين في ذلك العسكر، وكان القرثع يقول: ما أحسن لمع الدماء على الثياب ! وكان عمرو بن عُتبة يقول لقَباء عليه: ما أحسن حمرة الدماء على بياضك !

ورأى يزيد بن معاوية أن غزالاً جيء به لم يُرَ أحسن منه فلُفّ في ملحفة ثمّ دُفن في قبر لم يُرَ أحسن منه عليه ثلاثة نفر قعود، فلمّا استيقظ واقتتل الناس رُمي بحجر فهشم رأسه فمات، فكأنّما زين ثوبه بالماء وليس بتلطيخ. فدُفن في قبر على الصورة التي رأى.

وقال معضد لعلقمة: أعرني بُردك أعصب به رأسي، ففعل، فأتى برج بلنجر الذي أصيب فيه يزيد فرماهم فقتل منهم وأتاه حجر عرّادة ففضخ هامته، فأخذه أصحابه فدفنوه إلى جنب يزيد، وأخذ علقمة البرد فكان يغسله فلا يخرج أثر الدم منه، وكان يشهد فيه الجمعة ويقول: يحملني على هذا أن دم معضد فيه. وأصاب عمرو بن عُتبة جراحة فرأى قَباءه كما اشتهى ثمّ قُتل. وأمّا القرثع فإنّه قاتل حتى خُرق بالحراب، فبلغ الخبر بذلك عثمان فقال: إنّا لله، انتكث أهل الكوفة، اللهمّ تب عليهم وأقبل بهم! (١٣٣/٣)وكان

عثمان قد كتب إلى سعيد بن العاص أن يُنفذ سلمان إلى الباب للغزو، فسيّره فلقي المهزومين، على ما تقدّم، فنجّاهم اللّه به. فلمّا أصيب عبد الرحمن استعمل سعيدٌ سلمانَ بن ربيعة على الباب، واستعمل على الغزو بأهل الكوفة حُذيفة بن اليمان، وأمدّهم عثمان بأهل الشام عليهم حبيب بن مسلمة، فتآمّر عليهم سلمان وأبى حبيب حتى قال أهل الشام: لقد هممنا بضرب سلمان. فقال الكوفيون: إذن واللّه نضرب حبيباً ونحبسه وإن أبيتم كثرت القتلى فينا وفيكم؛ وقال أوس بن مغراء في ذلك :

إن تضربوا سلمانَ نضربْ حبيبَكمْ ... وإنْ ترحَلوا نحوَ ابن عفّان نرحَلِ
وإن تُقسطوا فالثغرُ ثغرُ أميرنا ... وهذا أميرٌ في الكتائبِ مُقبِلُ
ونحنُ ولاةُ الأمرِ كنّا حُماتَه ... لياليَ نرمي كلَّ ثغرٍ ونَكبِلُ

وأراد حبيب أن يتآمّر على صاحب الباب كما يتآمّر أمير الجيش إذا جاء من الكوفة، فكان ذلك أوّل اختلاف وقع بين أهل الكوفة والشام. وغزا حذيفة ثلاث غزوات، فقُتل عثمان في الثالثة، ولقيهم مقتل عثمان فقال حذيفة بن اليمان: اللهمّ العن قتلته وشُتّامه ! اللهمّ إنّا كنّا نعاتبه ويعاتبنا فاتّخذوا ذلك سُلّماً إلى الفتنة ! اللهمّ لا تمتهم إلاّ بالسيوف !

ذكر وفاة أبي ذرّ

وفيها مات أبو ذرّ، وكان قد قال لابنته: استشرفي يا بنيّة هل ترين أحداً؟ قالت: لا. قال: فما جاءت ساعتي بعدُ. ثمّ أمرها فذبحت شاةً ثمّ طبختها(١٣٤/٣)ثمّ قال: إذا جاءك الذين يدفنونني فإنّه سيشهدني قوم صالحون فقولي لهم: يقسم عليكم أبو ذرّ أن لا تركبوا حتى تأكلوا. فلمّا نضجت قدرها قال لها: انظري هل ترينَ أحداً؟ قالت: نعم هؤلاء ركب. قال: استقبلي بي الكعبة، ففعلت. فقال: بسم اللّه وباللّه وعلى مِلّة رسول اللّه، ﷺ، ثمّ مات، فخرجت ابنته فتلقتهم وقالت: رحمكم اللّه، اشهدوا أبا ذرّ. قالوا: وأين هو؟ فأشارت إليه، قالوا: نعم ونعمة عين ! لقد أكرمنا اللّه بذلك. وكان فيهم ابن مسعود فبكى وقال: صدق رسول اللّه، ﷺ، يموت وحده ويُبعث وحده. فغسلوه وكفّنوه وصلّوا عليه ودفنوه. وقالت لهم ابنته: إنّ أبا ذرّ يقرأ عليكم السلام، وأقسم عليكم أن لا تركبوا حتى تأكلوا؛ ففعلوا وحملوا أهله معهم حتى أقدموهم مكّة ونَعَوه إلى عثمان، فضمّ ابنته إلى عياله وقال: يرحم اللّه أبا ذرّ ويغفر له نزوله الرَّبذة.

ولما حضروا شمّوا من الخباء ريح مسك فسألوها عنه فقالت: إنّه لما حُضر قال: إن الميت يحضره شهود يجدون الريح لا يأكلون، فدوفي لهم مسكاً بماء ورشّي به الخباء.

وكان النفر الذي شهدوه ابن مسعود، وأبا مفرز، وبكر بن عبد اللّه التميميين، والأسود بن يزيد، وعلقمة بن قيس، ومالك الأشتر النّخعيين، والحلحال الضبّي، والحارث بن سويد التميمي، وعمرو بن عُتبة السُّلَمي، وابن ربيعة السُّلَمي، وأبا رافع المزني، وسويد بن شُعبة التميمي، وزياد بن معاوية النّخعي، وأخا القريع الضبّي، وأخا معضد الشيباني. وقيل: كان موته سنة إحدى وثلاثين.

وقيل: إن ابن مسعود لم يحمل أهل أبي ذرّ معه إنّما تركهم حتى قدم على عثمان بمكّة فأعلمه بموته، فجعل عثمان طريقه عليهم فحملهم معه.(١٣٥/٣)

ذكر خروج قارن

ثمّ جمع قارن جمعاً كثيراً من ناحية الطَّبَسَين وأهل باذَغيس وهرَاة وقوهستان وأقبل في أربعين ألفاً، فقال قيس لابن خازم: ما ترى؟ قال: أرى أن تخلي البلاد فإنّي أميرُها ومعي عهد من ابن عامر إذا كانت حرب بخراسان فأنا أميرها؛ وأخرج كتاباً كان قد افتعله عمداً، فكره قيس منازعته وخلاّه والبلاد وأقبل إلى ابن عامر، فلامه ابنُ عامر وقال: قد تركتَ البلادَ خراباً وأقبلتَ ! قال: جاءني بعهد منك. قال: فسار ابن خازم إلى قارن في أربعة آلاف وأمر الناس فحملوا الودك، فلمّا قرب من قارن أمر الناس أن يُدرج كلّ رجل منهم على زُجّ رمحه خِرقةً أو قطناً ثمّ يكثروا دهنه، ثمّ سار حتى أمسى، فقدّم مقدمته ستمائة ثمّ اتبعهم وأمر الناس، فأشعلوا النيران في أطراف الرماح، فانتهت مقدّمته إلى معسكر قارن نصف الليل فناوشوهم، وهاج الناس على دَهَش وكانوا آمنين من البيات، ودنا ابن خازم منهم فرأوا النيران يمنةً ويسرةً تتقدّم وتتأخّر وتنخفض وترتفع، فهالهم ذلك، ومقدمة ابن خازم يقاتلونهم، ثمّ غشيهم ابن خازم بالمسلمين فقتل قارن، فانهزم المشركون واتبعوهم يقتلوهم كيف شاؤوا، وأصابوا سبياً كثيراً. وكتب ابن خازم بالفتح إلى ابن عامر، فرضي وأقرّه على خراسان، فلبث عليها حتى انقضى أمرُ الجمل، وأقبل إلى البصرة فشهد وقعة ابن الحضرمي وكان معه في دار سنبيل.

وقيل: لما جمع قارن استشار قيسُ بن الهيثم عبدَ اللّه بن خازم فيما يصنع، فقال: أرى أنّك لا تطيق كثرة من قد أتانا، فاخرج بنفسك إلى ابن عامر فتخبره بكثرة العدو ونقيم نحن في الحصون ونطاولهم ويأتينا مددكم. فخرج قيس، فلمّا أمعن أظهر ابن خازم عهداً وقال: قد ولاّني ابن عامر خراسان، وسار إلى(١٣٦/٣)قارن فظفر به وكتب بالفتح إلى ابن عامر فأقرّه على خراسان؛ ولم يزل أهل البصرة يغزون من لم يكن صالحَ من أهل خراسان، فإذا عادوا تركوا أربعة آلاف نجدة.

ذكر عدّة حوادث

وفي هذه السنة مات العباس عمّ النبيّ، ﷺ، وكان عمره يوم مات ثمانياً وثمانين سنة، كان أسنّ من رسول اللّه، ﷺ، بثلاث

سنين. وفيها مات عبد الرحمن بن عوف وعمره خمس وسبعون سنة. وعبد اللّه بن مسعود وصلّى عليه عمّار بن ياسر، وقيل عثمان. وتوفي عبد اللّه بن زيد بن عبد ربّه الذي أُرِيَ الأذان. (١٣٧/٣)

سنة ثلاث وثلاثين

في هذه السنة كانت غزوة معاوية حصن المرأة من أرض الروم بناحية مَلَطْيَة. وفيها كانت غزوة عبد اللّه بن سعد إفريقية الثانية حين نقض أهلها العهد؛ وفيها كان مسير الأحنف إلى خُراسان وفتح المَرْوَين، ومسير ابن عامر إلى نيسابور وفتحها، في قول بعضهم، وقد تقدّم ذكر ذلك؛ وفيها كانت غزوة قبرس، في قول بعضهم، وقد تقدّم ذكرها مستوفى، وقيل إن فتحها كان سنة ثمان وعشرين، فلمّا كان سنة اثنتين وثلاثين أعان أهلها الروم على الغزاة في البحر بمراكب أعطوهم إيّاها، فغزاهم معاوية سنة ثلاث وثلاثين ففتحها عنوة فقتل وسبَى ثمّ أقرّهم على صلحهم وبعث إليهم اثني عشر ألفاً فبنوا المساجد وبنى مدينة. وقيل: كانت غزواته الثانية سنة خمس وثلاثين.

ذكر تسيير مَن سُيّر من أهل الكوفة إلى الشام

وفي هذه السنة سيّر عثمان نفراً من أهل الكوفة إلى الشام. وكان السبب في ذلك أن سعيد بن العاص لما ولاه عثمان الكوفة حين شُهد على الوليد بشرب الخمر أمره أن يسيّر الوليد إليه، فقدم سعيد الكوفة وسيّر الوليد وغسل المنبر، فنهاه رجالٌ من بني أميّة كانوا قد خرجوا معه عن ذلك، فلم يجبهم واختار سعيد(١٣٨/٣)وجوه الناس وأهل القادسيّة وقرّاء أهل الكوفة، فكان هؤلاء دخلته إذا خلا، وأمّا إذا خرج فكلّ الناس يدخل عليه، فدخلوا عليه يوماً، فبيناهم يتحدّثون قال حُبيش بن فلان الأسدي: ما أجود طلحة بن عبيد اللّه ! فقال سعيد: إن من له مثل النشاستَج لحقيق أن يكون جواداً، واللّه لو أنّ لي مثله لأعاشكم اللّه به عيشاً رغداً. فقال عبد الرحمن بن حُبيش، وهو حدَث: واللّه لوددتُ أن هذا الملطاط لك، يعني لسعيد، وهو ما كان للأكاسرة على جانب الفرات الذي يلي الكوفة. قالوا: فضّ اللّه فاك ! واللّه لقد هممنا بك ! فقال أبوه: غلام فلا تجازوه. فقالوا: يتمنى له سوادَنا. قال: ويتمنى لكم أضعافه، فثار به الأشتر وجندب وابن ذي الحنكة وصعصعة وابن الكوّاء وكُمَيْل وعُمير بن ضابئ فأخذوه، فثار أبوه ليمنع عنه، فضربوهما حتى غشي عليهما، وجعل سعيد يناشدهم ويأبون حتى قضوا منهما وطراً. فسمعتْ بذلك بنو أسد فجاؤوا وفيهم طليحة فأحاطوا بالقصر وركبت القبائل فعاذوا بسعيد، فخرج سعيد إلى الناس فقال: أيّها الناس قوم تنازعوا وقد رزق اللّه المعافية، فردّهم فتراجعوا. وأفاق الرجلان فقالا: قاتلَنا غاشيتك. فقال: لا يغشوني أبداً، فكُفّا ألسنتكما ولا تحزّبا الناس. ففعلا، وقعد أولئك النفر في بيوتهم وأقبلوا يقعون في عثمان.

وقيل: بل كان السبب في ذلك أنّه كان يسمر عند سعيد بن العاص وجوه أهل الكوفة، منهم: مالك بن كعب الأرحبي والأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس(١٣٩/٣)النَّخَعيّان ومالك الأشتر وغيرهم، فقال سعيد: إنّما هذا السواد بستان قريش. فقال الأشتر: أتزعم أن السواد الذي أفاءه اللّه علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك؟ وتكلّم القوم معه، فقال عبد الرحمن الأسدي، وكان على شرطة سعيد: أتردُّون على الأمير مقالته؟ وأغلظ لهم. فقال الأشتر: مَن ههنا؟ لا يفوتنكم الرجل ! فوثبوا عليه فوطئوه وطأً شديداً حتى غُشي عليه، ثمّ جُرَّ برجله، فنُضح بماء فأفاق فقال: قتلني من انتخبت. فقال: واللّه لا يسمر عندي أحد أبداً. فجعلوا يجلسون في مجالسهم يشتمون عثمان وسعيداً، واجتمع إليهم الناس حتى كثروا، فكتب سعيد وأشراف أهل الكوفة إلى عثمان في إخراجهم، فكتب إليهم أن يُلحقوهم بمعاوية، وكتب إلى معاوية: إن نفراً قد خُلقوا للفتنة فأقِمْ عليهم وأنهِهم، فإن آنستَ منهم رَشَداً فاقبل وإن أعيوك فاردُدهم عليّ.

فلمّا قدموا على معاوية أنزلهم كنيسة مريم وأجرى عليهم ما كان لهم بالعراق بأمر عثمان، وكان يتغدى ويتعشى معهم، فقال لهم يوماً :

إنّكم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة، وقد أدركتهم بالإسلام شرفاً وغلبتم الأمم وحويتم مواريثهم، وقد بلغني أنّكم نقمتم قريشاً، ولو لم تكن قريش كنتم أدلّة، إن أئمتكم لكم جُنّة فلا تفترقوا عن جُنّتكم، وإن أئمتكم يصبرون لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة، واللّه لتنتهُنّ أو ليبتلينكم اللّه بمن يسومكم السوء ولا يحمدكم على الصبر ثمّ تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعيّة في حياتكم وبعد وفاتكم.

فقال رجل منهم، وهو صعصعة: أمّا ما ذكرتَ من قريش فإنّها لم تكن(١٤٠/٣)أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهليّة فتخوّفنا، وأمّا ما ذكرتَ من الجُنّة فإن الجُنّة إذا اخترقت خُلص إلينا..

فقال معاوية: عرفتكم الآن وعلمتُ أن الذي أغراكم على هذا قلّة العقول، وأنتَ خطيبهم ولا أرى لك عقلاً، أُعظّم عليكم أمر الإسلام وتذكّرني بالجاهليّة ! أخزى اللّه قوماً عظّموا أمركم ! افقهوا عني، ولا أظنكم تفقهون، أن قريشاً لم تعزّ في جاهليّة ولا إسلام إلاّ باللّه تعالى، لم تكن بأكثر العرب ولا أشدّهم ،ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً، وأمحضهم أنساباً، وأكملهم مروءة، ولم يمتنعوا في الجاهليّة، والناس يأكل بعضهم بعضاً، إلاّ باللّه، فبوّأهم حرماً آمناً يُتخطّف الناس من حولهم ! هل تعرفون عربيّاً أو عجميّاً

أو أسود أو أحمر إلاّ وقد أصابه الدهرُ في بلده وحرمته إلاّ ما كان من قريش فإنّهم لم يُردهم أحدٌ من الناس بكيد إلاّ جعل اللّه خدّه الأسفل، حتى أراد اللّه أن يستنقذ من أكرم واتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مردّ الآخرة، فارتضى لذلك خيرَ خلقه ثمّ ارتضى له أصحاباً فكان خيارهم قريشاً، ثمّ بنى هذا الملك عليهم وجعل هذه الخلافة فيهم فلا يصلح ذلك إلاّ عليهم، فكان اللّه يحوطهم في الجاهليّة وهم على كفرهم، أفتراه لا يحوطهم وهم على دينه؟ أفّ لك ولأصحابك!

أمّا أنت يا صعصعة فإنّ قريتك شرّ القرى! أنتنها بيتاً، وأعمقها وادياً، وأعرفها بالشرّ، وألأمها جيراناً! لم يسكنها شريف قطّ ولا وضيع إلا سُبّ بها، ثم كانوا ألأم العرب ألقاباً وأصهاراً، نُزّاع الأمم، وأنتم جيران الخط، وفَعَلة(١٤١/٣)فارس، حتى أصابتكم دعوة النبيّ، ﷺ، لم تسكن البحرين فتشركهم في دعوة النبيّ، ﷺ، فأنت شرّ قومك، حتى إذا أبرزك الإسلام وخلطك بالناس أقبلتَ تبغي دين اللّه عِوَجاً، وتنزع إلى الذلّة، ولا يضرّ ذلك قريشاً ولا يضعهم ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم، إن الشيطان عنكم غير غافل، قد عرفكم بالشرّ فأغرى بكم الناس، وهو صارعُكم، ولا تدركون بالشرّ أمراً أبداً إلاّ فتح اللّه عليكم شرّاً منه وأخزى.

ثمّ قام وتركهم فتقاصرت إليهم أنفسهم، فلمّا كان بعد ذلك أتاهم فقال: إنّي قد أذنت لكم فاذهبوا حيث شئتم لا ينفعُ اللّه بكم أحداً أبداً ولا يضرّه ولا أنتم برجال منفعة ولا مضرّة، فإن أردتم النجاة فالزموا جماعتكم ولا يبطرنكم الإنعام، فإن البطر لا يعتري الخيار، اذهبوا حيث شئتم فسأكتب إلى أمير المؤمنين فيكم.

فلمّا خرجوا دعاهم وقال لهم: إنّي معيد عليكم أن رسول اللّه، ﷺ، كان معصوماً فولاّني وأدخلني في أمره، ثمّ استُخلف أبو بكر فولاني، ثمّ استُخلف عمر فولاني، ثم استُخلف عثمان فولاني، ولم يولني أحدٌ إلاّ وهو عني راض، وإنّما طلب رسول اللّه، ﷺ، للأعمال أهل الجزاء عن المسلمين والغَناء، وإن اللّه ذو سطوات ونقمات يمكر بمن مكر به، فلا تعرضوا لأمر وأنتم تعلمون من أنفسكم غير ما تُظهرون، فإن اللّه غير تارككم حتى يختبركم ويبدي للناس سرائركم.

وكتب معاوية إلى عثمان: إنّه قدم عليّ أقوام ليست لهم عقول ولا أديان، أضجرهم العدل، لا يريدون اللّه بشيء، ولا يتكلّمون بحجّة، إنّما همُّهم الفتنة وأموال أهل الذمة، واللّه مبتليهم ومختبرهم ثمّ فاضحهم ومخزيهم، وليسوا بالذين(١٤٢/٣) ينكرون أحداً إلاّ مع غيرهم، فانّهَ سعيداً ومن عنده عنهم، فإنّهم ليسوا لأكثر من شغب ونكير.

فخرجوا من دمشق فقالوا: لا ترجعوا بنا إلى الكوفة فإنّهم يشمتون بنا، ولكن ميلوا إلى الجزيرة، فسمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وكان على حمص، فدعاهم فقال: يا آلة الشيطان لا مرحباً بكم ولا أهلاً، قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعدُ نِشاط، خسّر اللّه عبد الرحمن إن لم يؤدبكم، يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم، لا تقولوا لي ما بلغني أنّكم قلتم لمعاوية؛ أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من قد عجمته العاجمات، أنا ابن فاقئ الردّة! واللّه لئن بلغني يا صعصعة أن أحداً ممّن معي دقّ أنفك ثمّ أمصُّك لأطيرن بك طَيرة بعيدة المهوى! فأقامهم شهراً كلّما ركب أمشاهم، فإذا مرّ به صعصعة قال: يا ابن الحطيئة، أعلمت أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشرّ؟ ما لك لا تقول كما بلغني أنّك قلت لسعيد ومعاوية؟ فيقولون: نتوب إلى اللّه، أقلنا أقالك اللّه. فما زالوا به حتى قال: تاب اللّه عليكم. وسرّح الأشتَرَ إلى عثمان، فقدم إليه ثانياً، فقال له عثمان: احلل حيث شئت. فقال: مع عبد الرحمن بن خالد. فقال: ذلك إليك، فرجع إليه.

قيل: وقد روي أيضاً نحو ما تقدّم وزادوا فيه أن معاوية لما عاد إليهم من القابلة وذكّرهم كان ممّا قال لهم: وإنّي واللّه لا آمركم بشيء إلاّ وقد بدأت فيه بنفسي وأهل بيتي، وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها إلاّ ما جعل اللّه لنبيّه، ﷺ، فإنّه انتخبه وأكرمه، وإنّي لأظن أن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلاّ حازماً. قال صعصعة: قد(١٤٣/٣) كذبتَ! قد ولدهم خير من أبي سفيان من خلقه اللّه بيده ونفخ فيه من روحه وأمر الملائكة فسجدوا له، وكان فيهم البَرّ والفاجر، والأحمق والكَيس. فخرج تلك الليلة من عندهم ثمّ أتاهم القابلة فتحدث عندهم طويلاً ثمّ قال: أيّها القوم ردوا خيراً أو اسكتوا وتفكّروا وانظروا فيما ينفعكم وينفع أهاليكم والمسلمين فاطلبوه. فقال صعصعة: لستَ بأهل ذلك ولا كرامة لك أن تطاع في معصية اللّه. فقال: أليس أوّل من ابتدأتكم به أن أمرتكم بتقوى اللّه وطاعة نبيه وأن تعتصموا بحبل اللّه جميعاً ولا تفرّقوا؟ قالوا: بل أمرتَ بالفرقة وخلاف ما جاء به النبيّ، ﷺ. فقال: إنّي آمركم الآن إن كنتُ فعلتُ فأتوب إلى اللّه وآمركم بتقواه وطاعته وطاعة نبيه، ﷺ، ولزوم الجماعة وأن توقروا أئمتكم وتدلوهم على أحسن ما قدرتم عليه. فقال صعصعة: فإنّا نأمرك أن تعتزل عملك فإن في المسلمين من هو أحقّ به منك، من كان أبوه أحسن قَدَماً في الإسلام من أبيك وهو أحسن في الإسلام قَدَماً منك. فقال: واللّه إن لي في الإسلام قَدَماً ولغيري كان أحسن قَدَماً مني ولكنه ليس في زماني أحد أقوى على ما أنا فيه مني، ولقد رأى ذلك عمر بن الخطّاب، فلو كان غيري أقوى مني لم تكن عند عمر هوادة لي ولا لغيري، ولم أُحدث من الحدث ما ينبغي لي أن أعتزل عملي، ولو رأى ذلك أمير المؤمنين لكتب إليّ فاعتزلتُ عمله، فمهلاً فإن في ذلك وأشباهه ما يتمنى الشيطان ويأمر، ولعمري لو كانت الأمور تُقضى على رأيكم وأمانيّكم ما استقامت

لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة، فعاودوا الخير وقولوه، وإن لله لسطوات، وإنّي لخائف عليكم(١٤٤/٣) أن تتابعوا في مطاوعة الشيطان ومعصية الرحمن فيُحِلّكم ذلك دار الهوان في العاجل والآجل. فوثبوا عليه وأخذوا رأسه ولحيته، فقال: مه إن هذه ليست بأرض الكوفة، والله لو رأى أهل الشام ما صنعتم بي ما ملكتُ أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم، فلعمري إن صنيعكم ليشبه بعضه بعضاً!

ثمّ قام من عندهم وكتب إلى عثمان نحو الكتاب المتقدّم، فكتب إليه عثمان يأمره أن يردّهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة، فردهم فأطلقوا ألسنتهم، فضجّ سعيد منهم إلى عثمان، فكتب إليه عثمان أن يسيّرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بحمص، فسيّرهم إليها، فأنزلهم عبد الرحمن وأجرى عليهم رزقاً، وكانوا: الأشتر وثابت بن قيس الهمداني وكُمَيْل بن زياد وزيد بن صُوحان وأخاه صعصعة وجندب بن زهير الغامدي وجندب بن كعب الأزدي وعروة بن الجعد وعمرو بن الحَمِق الخزاعي وابن الكوّاء.

قيل: سأل معاويةُ ابنَ الكوّاء عن نفسه قال: أنت بعيد الثرى كثير المرعى طيب البديهة بعيد الغور، الغالب عليك الحلم، ركن من أركان الإسلام، سُدّت بك فرجة مخوفة. قال: فأخبرني عن أهل الأحداث من الأمصار فإنّك أعقل أصحابك. قال: أمّا أهل المدينة فهم أحرص الأمة على الشرّ وأعجزهم عنه، وأمّا أهل الكوفة فإنّهم يردون جميعاً ويصدرون شتى، وأمّا أهل مصر فهم أوفى الناس بشرّ وأسرعهم ندامة، وأمّا أهل الشام فهم أطوع الناس لمرشدهم وأعصاهم لمغويهم.

ذكر تسيير مَن سُيّر من أهل البصرة إلى الشام

ولما مضت ثلاث سنين من إمارة عبد الله بن عامر بلغه أن [في عبد القيس] رجلاً نازلاً على حُكَيم بن جَبَلة العبدي، وكان عبد الله بن سبأ، المعروف(١٤٥/٣) بابن السوداء، هو الرجل النازل عليه، واجتمع إليه نفر فطرح إليهم ابن السوداء ولم يصرّح، فقبلوا منه. فأرسل إليه ابن عامر فسأله: من أنت؟ فقال: رجل من أهل الكتاب رغبت في الإسلام وفي جوارك. فقال: ما يبلغني ذلك، اخرج عني. فخرج حتى أتى الكوفة فأُخرج منها، فقصد مصر فاستقرّ بها وجعل يكاتبهم ويكاتبونه وتختلف الرجال بينهم.

وكان حُمران بن أبان قد تزوّج امرأة في عدّتها ففرق عثمان بينهما وضربه وسيّره إلى البصرة، فلزم ابنَ عامر فتذاكروا يوماً المرور بعامر بن عبد القيس، فقال حُمران: ألا أسبقكم فأخبره؟ فخرج فدخل عليه وهو يقرأ في المصحف فقال: الأمير يريد المرور بك فأحببتُ أن أُعلمك؛ فلم يقطع قراءته، فقام من عنده، فلمّا انتهى إلى الباب لقيه ابن عامر فقال: [جئتك من عند امرىء] لا يرى لآل إبراهيم عليه فضلاً؛ ودخل عليه ابن عامر فأطبق المصحف وحدّثه، فقال له ابن عامر: ألا تغشانا؟ فقال: سعد بن أبي القرحاء يحب الشرف. فقال: ألا نستعملك؟ فقال: حُصين بن الحُرّ يحبّ العمل. فقال: ألا نزوّجك؟ فقال: ربيعة بن عِسْل يعجبه النساء. فقال: إن هذا يزعم أنّك لا ترى لآل إبراهيم عليك فضلاً! فتصفّح المصحف، فكان أوّل ما وقع عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾. [آل عمران: ٣٣]

فسعى به حُمران، وأقام حُمران بالبصرة ما شاء الله، وأذن له عثمان فقدم المدينة ومعه قوم، فسعوا بعامر بن عبد القيس أنّه لا يرى التزويج ولا يأكل اللحم ولا يشهد الجمعة، فألحقه بمعاوية، فلمّا قدم عليه رأى عنده ثريداً فأكل(١٤٦/٣) أكلاً عربيّاً، فعرف أن الرجل مكذوب عليه، فعرّفه معاوية سبب إخراجه، فقال: أما الجمعة فإنّي أشهدها في مؤخر المجلس ثمّ أرجع في أوائل الناس، وأمّا التزويج فإنّي خرجتُ وأنا يُخطب عليّ، وأمّا اللحم فقد رأيتَ ولكني لا آكل ذبائح القصابين منذ رأيت قصاباً يجرّ شاة إلى مذبحها ثمّ وضع السكين على حلقها فما زال يقول: النّفاق النّفاق، حتى ذبحها. قال: فارجع. قال: لا أرجع إلى بلد استحلّ أهله مني ما استحلوا؛ فكان يكون في السواحل، فكان يلقى معاوية فيكثر معاوية أن يقول: ما حاجتك؟ فيقول: لا حاجة لي. فلمّا أكثر عليه قال: تردُّ عليّ من حرّ البصرة شيئاً لعلّ الصوم أن يشتدّ عليّ فإنّه يخفُّ عليّ في بلادكم.

ذكر عدّة حوادث

وحجّ بالناس عثمان.

وفيها مات المقداد بن عمرو المعروف بالمقداد بن الأسود صاحب رسول الله، ﷺ، وأوصى أن يصلّى عليه الزبير.

وفيها توفي الطُّفيل والحُصَين ابنا الحارث بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وشهدا بدراً وأُحُداً، وقيل: ماتا سنة إحدى وثلاثين، وقيل اثنتين وثلاثين. (١٤٧/٣)

سنة أربع وثلاثين

قيل: فيها كانت غزوة الصواري، في قول بعضهم، وقد تقدّم ذكرها.

وفيها تكاتب المنحرفون عن عثمان للاجتماع لمناظرته فيما كانوا يذكرون أنّهم نقموا عليه.

ذكر الخبر عن ذلك وعن يوم الجَرَعَة

قد ذكرنا خبر المسيَّرين من الكوفة ومقامهم عند عبد الرحمن

بن خالد بن الوليد، ووفد سعيد بن العاص إلى عثمان سنة إحدى عشرة من خلافة عثمان، وكان سعيد قد ولّي قبل مخرجه إلى عثمان بسنة وبعض أخرى الأشعثَ بن قيس أذربيجانَ، وسعيدَ بن قيس الريَّ، والنُّسيرَ العِجْليَّ همذانَ، والسائبَ بن الأقرع أصبهانَ، ومالكَ بن حبيب ماهَ، وحكيمَ بن سلام المِزاميَّ الموصلَ، وجريرَ بن عبد اللّه قَرْقِيسيا، وسلمانَ بن ربيعةَ البابَ، وجعل القعقاعَ بن عمرو على الحرب، وعلى حُلوان عتيبة بن النَّهّاس، وخلت الكوفة من الرؤساء. فخرج يزيد بن قيس وهو يريد خلع عثمان ومعه الذي كان ابن السوداء يكاتبهم، فأخذه القعقاع بن عمرو فقال: إنّما نستعفي من سعيد. فقال: أما هذا فنعم، فتركه وكاتب يزيد المسيَّرين في القدوم عليه، فسار الأشتر والذين عند عبد الرحمن(١٤٨/٣) ابن خالد، فسبقهم الأشتر، فلم يفجأ الناس يوم الجمعة إلاّ والأشتر على باب المسجد يقول: جئتكم من عند أمير المؤمنين عثمان وتركتُ سعيداً يريده على نقصان نسائكم على مائة درهم، وردّ أولي البلاء منكم إلى ألفين، ويزعم أن فيئكم بستان قريش. فاستخفّ الناس وجعل أهل الرأي ينهونهم فلا يُسمع منهم.

فخرج يزيد وأمر منادياً ينادي: من شاء أن يلحق بيزيد لردّ سعيد فليفعل، فبقي أشراف الناس وحلماؤهم في المسجد. وعمرو بن حُريث يومئذ خليفة سعيد، فصعد المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه وأمرهم بالاجتماع والطاعة، فقال له القعقاع: أتردُّ السيل عن أدراجه؟ هيهات لا واللّه لا يسكّن الغوغاء إلاّ المشرفيّة ويوشك أن تُنتضى ويعجّون عجيج العدّان ويتمنّون ما هم فيه اليوم فلا يرده اللّه عليهم أبداً، فاصبر. قال: أصبر. وتحول إلى منزله، وخرج يزيد بن قيس فنزل الجرعة، وهي قريب من القادسية، ومعه الأشتر، فوصل إليهم سعيد بن العاص، فقالوا: لا حاجة لنا بك. قال: إنّما كان يكفيكم أن تبعثوا إلى أمير المؤمنين رجلاً وإليّ رجلاً، وهل يخرج الألف لهم عقول إلى رجل واحد؟ ثمّ انصرف عنهم، وتحسّسوا بمولى له على بعير قد حسر فقال: واللّه ما كان ينبغي لسعيد أن يرجع. فقتله الأشتر. ومضى سعيد حتى قدم على عثمان فأخبره بما فعلوا وأنّهم يريدون البَدَل وأنّهم يختارون أبا موسى، فجعل أبا موسى الأشعري أميراً، وكتب إليهم :

أمّا بعد فقد أمّرْتُ عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد، واللّه لأقرضنكم عرضي ولأبذلن لكم صبري ولأستصلحنكم بجهدي فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يُعصى اللّه فيه إلاّ سألتموه، ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى اللّه فيه إلاّ ما(١٤٩/٣) استعفيتم منه، أنزل فيه عندما أحببتم حتى لا يكون لكم على اللّه حُجّة، ولتصبرن كما أمرنا حتى تبلغوا ما تريدون. ورجع من الأمراء من قرب الكوفة، فرجع جرير من قَرْقِيسيا، وعُتَيبة بن النَّهّاس من حُلوان، وخطبهم أبو موسى وأمرهم بلزوم الجماعة وطاعة عثمان، فأجابوا إلى ذلك وقالوا: صلّ بنا. فقال: لا إلاّ على السمع والطاعة لعثمان. قالوا: نعم. فصلّى بهم وأتاه ولايته فوليهم.

وقيل: سبب يوم الجَرَعة أنّه كان قد اجتمع ناس من المسلمين فتذاكروا أعمال عثمان فأجمع رأيهم، فأرسلوا إليه عامر بن عبد اللّه التميمي ثمّ العنبري، وهو الذي يدعى عامر بن عبد القيس، فأتاه فدخل عليه فقال له: إنّ ناساً من المسلمين اجتمعوا ونظروا في أعمالك فوجدوك قد ركبتَ أموراً عظاماً، فاتّق اللّه وتُبْ إليه. فقال عثمان: انظروا إلى هذا فإنّ الناس يزعمون أنّه قارئ ثمّ هو يجيء يكلمني في المحقّرات، واللّه ما يدري أين اللّه! فقال عامر: بلى واللّه إنيّ لأدري أن اللّه لبالمرصاد !

فأرسل عثمان إلى معاوية وعبد اللّه بن سعد وإلى سعيد بن العاص وعمرو بن العاص وعبد اللّه بن عامر فجمعهم فشاورهم وقال لهم: إن لكلّ امرئ وزراء ونصحاء وإنّكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي، وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا إلي أن أعزل عمالي وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبّون، فاجتهدوا رأيكم. فقال له ابن عامر: أرى لك يا أمير المؤمنين أن تشغلهم بالجهاد عنك حتى يذلّوا لك ولا يكون همة أحدهم إلاّ في نفسه وما هو فيه من دبر دابته وقمل فروته. وقال سعيد: احسم عنك الداء فاقطع عنك الذي تخاف، إن لكلّ قوم قادة متى تهلك يتفرّقوا ولا يجتمع لهم أمر. فقال عثمان: إن هذا هو الرأي لولا ما فيه. وقال معاوية: أشير عليك أن تأمر أمراء الأجناد(١٥٠/٣) فيكفيك كلُّ رجل منهم ما قِبَله وأكفيك أنا أهل الشام. وقال عبد اللّه بن سعد: إن الناس أهل طمع فأعطهم من هذا المال تعطف عليكم قلوبهم. ثمّ قام عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين إنّك قد ركبتَ الناس بمثل بني أميّة فقلتَ وقالوا وزغتَ وزاغوا، فاعتدلْ أو اعتزلْ، فإن أبيتَ فاعتزم عزماً واقدم قُدُماً. فقال له عثمان: ما لك قمل فروك؟ أهذا الجدّ منك؟ فسكت عمرو حتى تفرّقوا فقال: واللّه يا أمير المؤمنين لأنتَ أكرم عليّ من ذلك ولكني علمتُ أن بالباب من يُبلغ الناس قول كلّ رجل منّا فأردتُ أن يبلغهم قولي فيثقوا بي فأقود إليك خيراً وأدفع عنك شرّاً.

فردّ عثمان عمالَه إلى أعمالهم وأمرهم بتجهيز الناس في البعوث وعزم على تحريم أعطياتهم ليطيعوه، وردَّ سعيداً إلى الكوفة، فلقيه الناس من الجَرَعة وردُّوه، كما سبق ذكره. قال أبو ثور الحداني: جلستُ إلى حُذيفة وأبي مسعود الأنصاري بمسجد الكوفة يوم الجَرَعة، فقال أبو مسعود: ما أرى أن تُرَدَّ على عقبيها حتى يكون فيها دماء. فقال حذيفة: واللّه لتُرَدُّنَّ على عقبيها ولا يكون فيها محجمة دم وما أرى اليوم شيئاً إلاّ وقد علمته والنبي، ﷺ، حي. فرجع سعيد إلى عثمان ولم يُسفك دم، وجاء أبو موسى أميراً، وأمر عثمان حُذيفة بن اليمان أن يغزو الباب فسار نحوه.

ذكر ابتداء قتل عثمان

في هذه السنة تكاتب نفرٌ من أصحاب رسول اللّه، ﷺ، وغيرهم بعضهم إلى بعض: أن اقدموا فإن الجهاد عندنا، وعظّم الناسُ على(١٥١/٣) عثمان ونالوا منه، وليس أحد من الصحابة ينهى ولا يذبُّ إلا نفرٌ، منهم: زيد بن ثابت، وأبو أُسيد الساعدي، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت، فاجتمع الناس فكلّموا عليّ بن أبي طالب، فدخل على عثمان فقال له: الناسُ ورائي وقد كلّموني فيك، واللّه ما أدري ما أقول لك ولا أعرف شيئاً تجهله ولا أدلّك على أمر لا تعرفه، إنّك لتعلم ما أعلم، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه ولا خلونا بشيء فنبلغكه وما خُصصنا بأمر دونك، وقد رأيتَ وصحبتَ رسول اللّه، ﷺ، وسمعت منه ونلت صهره، وما ابن أبي قُحافة بأولى بعمل الحقّ منك، ولا ابن الخطّاب بأولى بشيء من الخير منك، وأنت أقرب إلى رسول اللّه، ﷺ، رحماً، ولقد نلتَ من صهر رسول اللّه، ﷺ، ما لم ينالاه، وما سبقاك إلى شيء، فاللّه اللّه في نفسك، فإنّك واللّه ما تبصَّر من عمى ولا تعلَّم من جهالة، وإن الطريق لواضح بيّن، وإن أعلام الدين لقائمة. اعلم يا عثمان أن أفضل عباد اللّه إمامٌ عادل هُدي وهدى فأقام سُنَّة معلومة وأمات بدعةً متروكة، فواللّه إن كُلاً لبيّن، وإنّ السُّنن لقائمة لها أعلام، وإن البِدَع لقائمة لها أعلام، وإن شرّ الناس عند اللّه إمام جائر ضلّ وأضلّ فأمات سنّةً معلومة وأحيا بدعة متروكةً، وإني أحذّرك اللّه وسطواته ونَقماته، فإن عذابه شديد أليم، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة الذي يُقتل فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، ويلبِّس أمورها عليها ويتركها شِيَعاً لا يبصرون الحق لعلوّ الباطل، يموجون فيها موجاً، ويمرجون فيها مرجاً.

فقال عثمان: قد علمت واللّه ليقولُنَّ الذي قلت، أما واللّه لو كنتَ مكاني ما عنّفتُك ولا أسلمتُك ولا عِبتُ عليك ولا جئتُ مُنكِراً أن وصلتَ رحماً(١٥٢/٣) وسددتَ خَلَّةً وآويتَ ضائعاً ووليتَ شبيهاً بمن كان عمر يولي. أنشدك اللّه يا عليّ هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك؟ قال: نعم. قال: فتعلم أن عمر ولاّه؟ قال: نعم. قال: فلِمَ تلومني أن ولّيتُ ابنَ عامر في رحمه وقرابته؟ قال عليّ: إن عمر كان يطأ على صِماخ مَن ولّى إن بلغه عنه حرف جلبه ثمّ بلغ به أقصى العقوبة وأنتَ لا تفعل، ضعفتَ ورققتَ على أقربائك. قال عثمان: وهم أقرباؤك أيضاً ! قال: أجل، إن رحمهم مني لقريبة ولكن الفضل في غيرهم. قال عثمان: هل تعلم أن عمر ولّى معاوية؟ فقد ولّيته. فقال عليّ: أنشدك اللّه، هل تعلم أن معاوية كان أخوف لعمر من يرفأ غلام عمر له؟ قال: نعم. قال عليّ: فإن معاوية يقتطع الأمور دونك ويقول للناس هذا أمر عثمان، وأنت تعلم ذلك فلا تغيّر عليه.

ثمّ خرج عليّ من عنده وخرج عثمان على أثره فجلس على المنبر ثمّ قال: أمّا بعدُ فإن لكلّ شيء آفة ولكلّ أمر عاهة، وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيّابون طعّانون يُرونكم ما تحبّون ويسترون عنكم ما تكرهون، يقولون لكم ويقولون، أمثال النَّعام يتبعون أول ناعق، أحبّ مواردهم إليهم البعيد، لا يشربون إلاّ نَغَصاً ولا يَردون إلاّ عَكَراً، [لا] يقوم لهم رائد وقد أعيتهم الأمور، ألا فقد واللّه عبتم عليّ ما أقررتم لابن الخطّاب بمثله، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه فدِنتم له على ما أحببتم وكرهتم، ولِنتُ لكم وأوطأتكم كتفي وكففتُ يدي ولساني عنكم فاجترأتم عليّ. أمّا واللّه لأنا أعزّ نفراً وأقرب ناصراً وأكثر عدداً وأحرى، إن قلتُ هلمّ أُتيَ عليّ، ولقد عددتُ لكم أقراناً، وأفضلتُ عليكم فضولاً، وكثرتُ(١٥٣/٣) لكم عن نابي، وأخرجتم مني خُلقاً لم أكن أُحسنه ومنطقاً لم أنطق به، فكفّوا عني ألسنتكم وعيبكم وطعنكم على ولاتكم، فإنّي كففتُ عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا. ألا فما تفقدون من حقكم؟ واللّه ما قصرت عن بلوغ ما بلغ مَن كان قبلي ولم تكونوا تختلفون عليه.

فقام مروان بن الحكم فقال: إن شئتم حكّمنا واللّه ما بيننا وبينكم السيف، نحن وأنتم واللّه كما قال الشاعر :

فَرَشْنا لكم أعراضَنا فنَبَتْ بكم ... معارسكم تبنون في دِمَن الثَّرَى

فقال عثمان: اسكت لا سَكَتّ، دعني وأصحابي، ما منطقك في هذا ! ألم أتقدّم إليك أن لا تنطق؟ فسكت مروان ونزل عثمان عن المنبر، فاشتدّ قوله على الناس وعظم وزاد تألّبهم عليه.

ذكر عدّة حوادث

وحجّ هذه السنة بالناس عثمان.

وفي هذه السنة توفي كعب الأحبار، وهو كعب بن ماتع، وأسلم أيام عمر.

وفيها مات أبو عبس عبد الرحمن بن جبر الأنصاري، شهد بدراً.

وفيها مات مِسطح بن أُثاثة المطَّلِبي، وهو ابن ست وخمسين سنة، وقيل: بل عاش وشهد صِفّين مع عليّ، وهو الأكثر، وكان بدريّاً.

وفيها توفي عُبادة بن الصامت الأنصاري، وهو ممّن شهد العَقَبة، وكان نقيباً بدريّاً؛ وعاقل بن البُكَير، وهو بدري أيضاً. (١٥٤/٣)

سنة خمس وثلاثين

ذكر مسير من سار إلى حصر عثمان

قيل: في هذه السنة كان مسير من سار من أهل مصر إلى ذي خُشُب، ومسير من سار من أهل العراق إلى ذي المروة.

وكان سبب ذلك أن عبد اللّه بن سبأ كان يهوديّاً، وأسلم أيّام عثمان، ثمّ تنقّل في الحجاز ثمّ بالبصرة ثمّ بالكوفة ثمّ بالشام يريد إضلال الناس فلم يقدر منهم على ذلك، فأخرجه أهل الشام، فأتى مصر فأقام فيهم وقال لهم: العجبُ ممّن يصدّق أن عيسى يرجع، ويكذّب أن محمداً يرجع، فوضع لهم الرجعة، فقُبلت منه، ثمّ قال لهم بعد ذلك: إنّه كان لكلّ نبيّ وصيّ، وعليّ وصي محمد، فمن أظلمُ ممّن لم يُجز وصية رسول اللّه، ﷺ، ووثب على وصيه، وإن عثمان أخذها بغير حقّ، فانهضوا في هذا الأمر وابدؤوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا به الناس.

وبث دعاته، وكاتب من استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السرّ إلى ما هو عليه رأيهم وصاروا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيب ولاتهم، ويكتب أهل كلّ مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون، حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا بذلك الأرض إذاعة، فيقول أهل كلّ مصر: إنّا لفي عافية(١٥٥/٣) ممّا ابتلي به هؤلاء، إلاّ أهل المدينة فإنّهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار، فقالوا: إنّا لفي عافية ممّا فيه الناس. فأتوا عثمان فقالوا: يا أميرَ المؤمنين أيأتيك عن الناس الذي يأتينا؟ فقال: ما جاءني إلاّ السلامة وأنتم شركائي وشهود المؤمنين، فأشيروا عليّ. قالوا: نشير عليك أن تبعث رجالاً ممّن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم.

فدعا محمدَ بن مَسلمة فأرسله إلى الكوفة، وأرسل أُسامة بن زيد إلى البصرة، وأرسل عمّار بن ياسر إلى مصر، وأرسل عبد اللّه بن عمر إلى الشام، وفرّق رجالاً سواهم، فرجعوا جميعاً قبل عمّار فقالوا: ما أنكرنا شيئاً أيّها الناس ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامُّهم. وتأخر عمّار حتى ظنّوا أنّه قد اغتيل فوصل كتاب من عبد اللّه بن أبي سرح يذكر أن عماراً قد استماله قومٌ وانقطعوا إليه، منهم: عبد اللّه بن السوداء، وخالد بن مُلْجَم، وسودان بن حُمران، وكنانة بن بِشر.

فكتب عثمان إلى أهل الأمصار: [أمّا بعدُ] فإنّي آخذ عمالي بموافاتي كلّ موسم، وقد رفع إليّ أهلُ المدينة أن أقواماً يُشتَمون ويُضرَبون، فمن ادّعى شيئاً من ذلك فليوافِ الموسم يأخذ حقّه حيث كان مني أو من عمالي، أو تَصدّقوا فإن اللّه يجزي المتصدقين. فلمّا قُرئ في الأمصار بكى الناس ودعوا لعثمان. وبعث إلى عمال الأمصار فقدموا عليه في الموسم: عبد اللّه بن عامر، وعبد اللّه بن سعد، ومعاوية، وأدخل معهم سعيد بن العاص وعَمراً، فقال: ويحكم ما هذه الشكاية والإذاعة؟ إنّي واللّه لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم وما يُعصَب هذا إلاّ بي ! فقالوا له: ألم تبعث! ألم يرجع إليكم الخبر عن العوامّ؟ ألم يرجع رسلك ولم يشافههم أحد بشيء؟ واللّه ما صدقوا ولا برُّوا ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً(١٥٦/٣)ولا يحلّ الأخذ بهذه الإذاعة ! فقال: أشيروا عليّ. فقال سعيد: هذا أمر مصنوع يُلقى في السر فيتحدث به الناس، ودواء ذلك طلب هؤلاء وقتل الذي يخرج هذا من عندهم. وقال عبد اللّه بن سعد: خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم فإنّه خير من أن تَدَعهم. وقال معاوية: قد وليتني فوليتُ قوماً لا يأتيك عنهم إلاّ الخير، والرجلان أعلم بناحيتيهما، والرأي حسن الأدب. وقال عمرو: أرى أنّك قد لِنتَ لهم ورخيت عليهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك فتشتد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين.

فقال عثمان: قد سمعتُ كلّ ما أشرتم به عليّ ولكلّ أمر باب يؤتَى منه، إن هذا الأمر الذي يُخاف على هذه الأمة كائن، وإن بابه الذي يُغلق عليه ليفتحن فنكفكفه باللين والمؤاتاة إلاّ في حدود اللّه، فإن فتح فلا يكون لأحد عليّ حُجّة حقّ، وقد علم اللّه أنّي لم آلُ الناس خيراً، وإن رحى الفتنة لدائرة، فطُوبَى لعثمان إن مات ولم يحركها. سكّنوا الناس وهبوا لهم حقوقهم، فإذا تعوطيت حقوق اللّه فلا تُدْهنوا فيها. فلمّا نفر عثمان وشخص معاوية والأمراء معه واستقلّ على الطريق رجز به الحادي فقال :

قد علمتْ ضَوامرُ المطيّ ... وضُمّراتُ عُوّجِ القِبيّ
أنّ الأميرَ بعدَهُ عليّ ... وفي الزّبير خَلَفٌ رضيّ
[وطَلْحَةُ الحامي لها وليّ]

فقال كعب: كذبت بل يلي بعده صاحب البغلة الشهباء، يعني معاوية؛ فطمع فيها من يومئذٍ.

فلمّا قدم عثمان المدينة دعا عليّاً وطلحة والزبير وعنده معاوية، فحمد(١٥٧/٣) اللّه معاوية ثمّ قال: أنتم أصحاب رسول اللّه، ﷺ، وخيرته من خَلَفه وولاة أمر هذه الأمّة، لا يطمع فيه أحد غيركم، اخترتم صاحبكم عن غير غلبة ولا طمع، وقد كبر وولى عمره ولو انتظرتم به الهرم لكان قريباً مع أنّي أرجو أن يكون أكرم على اللّه أن يبلغه ذلك، وقد فشت مقالة خفتها عليكم فما عتبتم فيه من شيء، فهذه يدي لكم به، ولا تُطمعوا الناسَ في أمركم، فواللّه إن طمعوا فيه لا رأيتم منها أبداً إلاّ إدباراً.

قال عليّ: ما لك ولذلك لا أمّ لك؟ قال: دع أمّي فإنّها ليست

بشرّ أمهاتكم، قد أسلمت وبايعت النبيّ، ﷺ، وأجبني عمّا أقولُ لك. فقال عثمان: صدق ابن أخي، أنا أخبركم عني وعمّا وليت، إن صاحبيّ اللذين كانا قبلي ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتساباً، وإن رسول اللّه، ﷺ، كان يعطي قرابته وأنا في رهط أهل عيلة وقلّة معاش، فبسطت يدي في شيء من ذلك لما أقوم به فيه، فإن رأيتم ذلك خطأً فردُّوه فأمري لأمركم تبع. فقالوا: قد أصبتَ وأحسنتَ، قد أعطيتَ عبد اللّه بن خالد بن أسيد خمسين ألفاً، وأعطيت مروان خمسة عشر ألفاً. فأخذ منهما ذلك، فرضوا وخرجوا راضين.

وقال معاوية لعثمان: اخرج معي إلى الشام فإنّهم على الطاعة قبل أن يهجم عليكم من لا قبل لك به. فقال: لا أبيع جوار رسول اللّه، ﷺ، بشيء وإن كان فيه خيط عنقي. قال: فإن بعثتُ إليك جنداً منهم يقيم معك لنائبة إن نابت؟ قال: لا أضيق على جيران رسول اللّه، ﷺ. فقال: واللّه لتُغتالن ولتُغزين ! فقال: حسبيَ اللّه ونعم الوكيل !

ثمّ خرج معاوية فمرّ على نفر من المهاجرين فيهم عليّ وطلحة والزبير وعليه(١٥٨/٣) ثياب السفر، فقام عليهم وقال: إنّكم قد علمتم أن هذا الأمر كان الناس يتغالبون عليه حتى بعث اللّه نبيّه، ﷺ، وكانوا يتفاضلون بالسابقة والقُدمة والاجتهاد، فإن أخذوا بذلك فالأمر أمرهم والناس لهم تبع، وإن طلبوا الدنيا بالتغالب سُلبوا ذلك وردّه اللّه إلى غيرهم، وإن اللّه على البدل لقادر، وإنّي قد خلّفت فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً وكانفوه تكونوا أسعد منه بذلك. ثمّ ودعهم ومضى. فقال عليٌّ: [ما] كنت أرى في هذا خيراً. فقال الزبير: واللّه ما كان قط أعظم في صدرك وصدورنا منه اليوم.

واتعد المنحرفون عن عثمان يوماً يخرجون فيه بالأمصار جميعاً إذا سار عنها الأمراء، فلم يتهيأ لهم ذلك، ولما رجع الأمراء ولم يتم لهم الوثوب [صاروا] يكاتبون في القدوم إلى المدينة لينظروا فيما يريدون ويسألوا عثمان عن أشياء لتطير في الناس. وكان بمصر محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حُذيفة يحرضان على عثمان.

فلمّا خرج المصريون خرج فيهم عبد الرحمن بن عُدَيس البلوي في خمسمائة، وقيل: في ألف، وفيهم كنانة بن بشر الليثي وسودان بن حُمران السّكوني وقُتَيرة بن فلان السّكوني، وعليهم جميعاً الغافقي بن حرب العَكّي؛ وخرج أهل الكوفة وفيهم زيد بن صُوحان العبدي والأشتر النّخعي وزياد بن النضر الحارثي وعبد اللّه بن الأصمّ العامري، وهم في عداد أهل مصر؛ وخرج أهل البصرة فيهم حُكَيم بن جَبَلة العبدي وذريح بن عبّاد وبشر بن شُرَيح القيسي وابن المحترش، وهم بعداد أهل مصر، وأميرهم حُرقوص بن زهير السعدي؛ فخرجوا(١٥٩/٣) جميعاً في شوال وأظهروا أنّهم يريدون الحجّ، فلمّا كانوا من المدينة على ثلاث تقدّم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خُشُب، وكان هواهم في طلحة، وتقدّم ناس من أهل الكوفة، وكان هواهم في الزبير، وتركوا الأعوص، وجاءهم ناس من أهل مصر، وكان هواهم في عليّ، ونزلوا عامتهم بذي المروة، ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النضر وعبد اللّه بن الأصم وقالا لهم: لا تعجلوا حتى ندخل المدينة ونرتاد لكم، فقد بلغنا أنّهم عسكروا لنا، فواللّه إن كان هذا حقّاً واستحلّوا قتالنا بعد علم حالنا إن أمرنا لباطل، وإن كان الذي بلغنا باطلاً رجعنا إليكم بالخبر. قالوا: اذهبا. فذهبا فدخلا المدينة فلقيا أزواج النبيّ، ﷺ، وعليّاً وطلحة والزبير، فقالا: إنّما نريد هذا البيت ونستعفي من بعض عمالنا، واستأذناهم في الدخول، فكلمهما أُبيّ ونهاهما، فرجعا إلى أصحابهما. فاجتمع نفر من أهل مصر فأتوا عليّاً، ونفر من أهل البصرة فأتوا طلحة، ونفر من أهل الكوفة فأتوا الزبير، وقال كلّ فريق منهم: إن بايعنا صاحبنا وإلاّ كذبناهم وفرّقنا جماعتهم ثمّ رجعنا عليهم حتى نبغتهم. فأتى المصريون عليّاً وهو في عسكر عند أحجار الزيت متقلداً سيفه، وقد أرسل ابنه الحسن إلى عثمان فيمن اجتمع إليه، فسلّموا عليه وعرضوا عليه، فصاح بهم وطردهم وقال: لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة وجيش ذي خُشُب والأعوص ملعونون على لسان محمد، ﷺ، فانصرفوا عنه. وأتى البصريون طلحة فقال لهم مثل ذلك، وكان قد أرسل ابنيه إلى عثمان؛ وأتى الكوفيون الزبير فقال لهم مثل ذلك، وكان قد أرسل ابنه عبد اللّه إلى عثمان. (١٦٠/٣)

فرجعوا وتفرّقوا عن ذي خُشُب وذي المروة والأعوص إلى عسكرهم ليتفرّق أهل المدينة ثمّ يرجعوا إليهم. فلمّا بلغوا عسكرهم تفرّق أهل المدينة، فرجعوا بهم، فلم يشعر أهل المدينة إلاّ والتكبير في نواحيها، ونزلوها وأحاطوا بعثمان وقالوا: مَن كفّ يده فهو آمن. وصلّى عثمان بالناس أياماً، ولزم الناس بيوتهم ولم يمنعوا الناس من كلامه، وأتاهم أهل المدينة وفيهم عليّ فقال لهم: ما ردكم بعد ذهابكم؟ فقالوا: أخذنا مع بريد كتاباً بقتلنا. وأتى طلحةُ الكوفيّين فسألهم عن عودهم فقالوا مثل ذلك. وأتى الزبير البصريين فقالوا مثل ذلك، وكلّ منهم يقول: نحن نمنع إخواننا وننصرهم، كأنّما كانوا على ميعاد. فقال لهم عليّ: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل حتى رجعتم علينا؟ هذا واللّه أمر أُبرم بليل ! فقالوا: ضعوه كيف شئتم، لا حاجة لنا في هذا الرجل، ليعتزل عنّا. وعثمان يصلّي بهم وهم يصلّون خلفه، وهم أدق في عينه من التراب، وكانوا يمنعون الناس من الاجتماع.

وكتب عثمان إلى أهل الأمصار يستنجدهم ويأمرهم بالحثّ

للمنع عنه ويعرّفهم ما النّاس فيه. فخرج أهل الأمصار على الصعب والذّلول، فبعث معاويةُ حبيبَ بن مسلمة الفِهري، وبعث عبدُ اللّه بن سعد معاويةَ بن حُدَيج، وخرج من الكوفة القعقاع بن عمرو وقام بالكوفة نفر يحضُّون على إعانة أهل المدينة، منهم: عُقبة بن عامر وعبد اللّه بن أبي أوفى وحنظلة الكاتب وغيرهم من أصحاب النبيّ، ﷺ، ومن التابعين: مسروق والأسود وشُريح وعبد اللّه بن حكيم وغيرهم، وقام بالبصرة: عِمران بن حُصين وأنس بن مالك وهشام بن عارم وغيرهم من الصحابة ومن التابعين: كعب بن سور وهَرِم بن حيّان وغيرهما، وقام بالشام جماعة من الصحابة والتابعين وكذلك بمصر.

ولما جاءت الجمعة التي على أثر دخولهم المدينة، خرج عثمان فصلّى بالناس(١٦١/٣)ثمّ قام على المنبر فقال: يا هؤلاء، اللّه اللّه ! فواللّه إن أهل المدينة ليعلمون أنّكم ملعونون على لسان محمد، صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، فامحوا الخطأ بالصواب. فقام محمد بن مسلمة فقال: أنا أشهد بذلك، فأقعدَه حكيم بن جَبَلة، وقام زيد بن ثابت فأقعده محمد بن أبي قُتيرة، وثار القوم بأجمعهم فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد، وحصبوا عثمان حتى صُرع عن المنبر مغشيّاً عليه، فأُدخل داره واستقتل نفر من أهل المدينة مع عثمان، منهم: سعد بن أبي وقّاص والحسين بن عليّ وزيد بن ثابت وأبو هُريرة. فأرسل إليهم عثمان يعزم عليهم بالانصراف، فانصرفوا، وأقبل عليّ وطلحة والزبير فدخلوا على عثمان يعودونه من صرعته ويشكون إليه ما يجدون، وكان عند عثمان نفر من بني أمية فيهم مروان بن الحكم، فقالوا كلّهم لعلي: أهلكتنا وصنعتَ هذا الصنيع؛ واللّه لئن بلغتَ الذي تريد لتمرّن عليك الدنيا ! فقام مغضباً وعاد هو والجماعة إلى منازلهم. وصلّى عثمان بالناس بعدما نزلوا به في المسجد ثلاثين يوماً، ثمّ منعوه الصلاة، وصلّى بالناس أميرهم الغافقي، وتفرّق أهل المدينة في حيطانهم ولزموا بيوتهم لا يجلس أحد ولا يخرج إلاّ بسيفه ليتمنع به، وكان الحصار أربعين يوماً ومن تعرّض لهم وضعوا فيه السلاح.

وقد قيل: إنّ محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة كانا بمصر يحرضان على عثمان، وسار محمد بن أبي بكر مع من سار إلى عثمان، وأقام ابن أبي حُذيفة بمصر وغلب عليها لما سار عنها عبد اللّه بن سعد، على ما يأتي. فلمّا خرج المصريون إلى قصد عثمان أظهروا أنّهم يريدون العمرة وخرجوا في رجب وعليهم عبد الرحمن بن عُدَيس البَلَوِيُّ، وبعث عبد اللّه بن سعد رسولاً إلى عثمان(١٦٢/٣)يخبره بحالهم وأنّهم قد أظهروا العمرة وقصدهم خلعه أو قتله، فخطب عثمان الناس وأعلمهم حالهم، وقال لهم: إنّهم قد أسرعوا إلى الفتنة واستطالوا عمري، واللّه لئن فارقتهم ليتمنون أن عمري كان عليهم مكان كلّ يوم سنة ممّا يرون من الدماء المسفوكة والإحَن والأثَرة الظاهرة والأحكام المغيَّرة.

وكان عبد اللّه بن سعد قد خرج إلى عثمان في آثار المصريين بإذنه له، فلمّا كان بأيلة بلغه أن المصريين رجعوا إلى عثمان فحصروه، وأن محمد بن أبي حُذيفة غلب على مصر واستجابوا له، فعاد عبد اللّه إلى مصر فمُنع عنها، فأتى فلسطين فأقام بها حتى قُتل عثمان.

فلمّا نزل القوم ذا خُشُب يريدون قتل عثمان إن لم ينزع عمّا يكرهون، ولما رأي عثمان ذلك جاء إلى عليّ فدخل عليه بيته فقال له: يا ابن عم، إنّ قرابتي قريبة ولي عليك حقّ عظيم، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مصبِّحيَّ، ولك عند الناس قدر وهم يسمعون منك، وأُحبّ أن تركب إليهم فتردهم عني، فإن في دخولهم عليّ توهيناً لأمري وجرأة عليّ ! فقال عليّ: على أيّ شيء أردُّهم عنك؟ قال: على أن أصير إلى ما أشرت إليه ورايته لي. فقال عليّ: إنّي قد كلمتك مرّة بعد أخرى فكلّ ذلك نخرج ونقول ثمّ ترجع عنه، وهذا من فعل مروان وابن عامر ومعاوية وعبد اللّه بن سعد، فإنّك أطعتهم وعصيتني. قال عثمان: فأنا أعصيهم وأطيعك.

فأمر الناس فركب معه من المهاجرين والأنصار ثلاثون رجلاً فيهم سعيد بن زيد وأبو جهم العدوي وجُبير بن مُطعم وحكيم بن حزام ومروان وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن عتّاب بن أَسيد، ومن الأنصار أبو أُسيد الساعدي وأبو حُميد وزيد بن ثابت وحسان بن ثابت وكعب بن مالك، ومن العرب نيار بن(١٦٣/٣)مكرز، فأتوا المصريين فكلّموهم، وكان الذي يكلّمهم عليّ ومحمد بن مسلمة، فسمعوا مقالتهما ورجعوا إلى مصر. فقال ابن عُديس لمحمد بن مسلمة: أتوصينا بحاجة؟ قال: نعم، تتقي اللّه وترد مَنْ قِبَلك عن إمامهم فإنّه قد وعدنا أن يرجع وينزع. قال ابن عُديس: أفعل إن شاء اللّه. ورجع عليّ ومن معه إلى المدينة، فدخل على عثمان فأخبره برجوعهم وكلّمه بما في نفسه ثمّ خرج من عنده، فمكث عثمان ذلك اليوم، وجاءه مروان بُكرة الغد فقال له: تكلّم وأعلم الناس أن أهل مصر قد رجعوا وأن ما بلغهم عن إمامهم كان باطلاً قبل أن يجيء الناس إليك من أمصارهم ويأتيك ما لا تستطيع دفعه. ففعل عثمان، فلمّا خطب الناسَ قال له عمرو بن العاص: اتّق اللّه يا عثمان، فإنّك قد ركبتَ أموراً وركبناها معك، فتُبْ إلى اللّه نتبْ. فناداه عثمان: وإنّك هنالك يا ابن النابغة ! قملت واللّه جبّتك منذ عزلتك عن العمل ! فنودي من ناحية أخرى: تُبْ إلى اللّه. فرفع يديه وقال: اللهمّ إنّي أوّل تائب !

وخرج عمرو بن العاص إلى منزله بفلسطين، وكان يقول: واللّه إنّي كنتُ لألقى الراعي فأحرّضه على عثمان. وأتى عليّاً وطلحة والزبير فحرّضهم على عثمان، فبينما هو بقصره بفلسطين

ومعه ابناه محمد وعبد اللّه وسلامه بن روح الجذامي إذ مرّ به راكب من المدينة، فسأله عمرو عن عثمان، فقال: هو محصور. قال عمرو: أنا أبو عبد اللّه، قد يضرط العير والمكواة في النار. ثمّ مرّ به راكب آخر فسأله فقال: قُتل عثمان. فقال عمرو: أنا أبو عبد اللّه، إذا حككتُ قرحةً نكأتُها. فقال له سلامة بن روح: يا معشر قريش كان بينكم وبني العرب باب فكسرتموه ! فقال: أردنا أن نُخرج الحق من(١٦٤/٣)خاصرة الباطل ليكون الناس في الحقّ شَرَعاً سواء.

وقيل: إن عليّاً لما رجع من عند المصريين بعد رجوعهم إلى عثمان قال له: تكلّم كلاماً يسمعه الناس منك ويشهدون عليك ويشهد اللّه على ما في قلبك من النزوع والأمانة، فإن البلاد قد تمخّضت عليك، فلا آمن أن يجيء ركبٌ آخر من الكوفة والبصرة فتقول: يا عليّ اركب إليهم، فإن لم أفعل رأيتني قد قطعتُ رحمك واستخففتُ بحقّك. فخرج عثمان فخطب الخطبة التي نزع فيها وأعطى الناسَ من نفسه التوبة وقال: أنا أوّل من اتّعظ، أستغفرُ اللّه ممّا فعلتُ وأتوبُ إليه، فمثلي نزع وتاب، فإذا نزلتُ فليأتني أشرافكم فليروا فيّ رأيهم، فواللّه لئن ردّني الحقّ عبداً لأستنَّنَّ بسنّة العبد ولأذلنّ ذلّ العبد وما عن اللّه مذهب إلاّ إليه، فواللّه لأعطينكم الرضا ولأنحينّ مروان وذويه ولا أحتجب عنكم ! فرقّ الناس وبكوا حتى أخضلوا لحاهم وبكى هو أيضاً.

فلمّا نزل عثمان وجد مروان وسعيداً ونفراً من بني أميّة في منزله لم يكونوا شهدوا خطبته، فلمّا جلس قال مروان: يا أمير المؤمنين أتكلّم أم أسكت؟ فقالت نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان: لا بل اصمُت فإنّهم واللّه قاتِلوه ومؤثّموه، إنّه قد قال مقالةً لا ينبغي له أن ينزع عنها. فقال لها مروان: ما أنتِ وذاك ! فواللّه قد مات أبوك وما يحسن يتوضّأ ! فقالت: مهلاً يا مروان عن ذكر الآباء ! تخبر عن أبي وهو غائب تكذب عليه وإن أباك لا يستطيع أن يدفع عن نفسه؟ أمَا واللّه لولا أنّه عمه وأنّه يناله غمّه لأخبرتُك عنه ما لن أكذب عليه. قالت: فأعرض عنها مروان، فقال: يا أمير المؤمنين أتكلّم أم أسكت ؟(١٦٥/٣)قال: تكلّم. فقال مروان: بأبي أنت وأمّي، واللّه لوددتُ أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع فكنتَ أوّل من رضي بها وأعان عليها، ولكنك قلت ما قلتَ وقد بلغ الحزامُ الطُّبيين وخلّف السيلُ الزُّبى، وحين أعطى الخطة الذليلة الذليلُ؛ واللّه لإقامة على خطيئة يُستغفر منها أجمل من توبة يخوَّف عليها، وأنت إن شئتَ تقرّبتَ بالتوبة ولم تقرّ بالخطيئة؛ وقد اجتمع بالباب أمثال الجبال من الناس. فقال عثمان: فاخرج إليهم فكلمهم فإنّي أستحيي أن أكلمهم. فخرج مروان إلى الباب والناس يركب بعضهم بعضاً، فقال: ما شأنكم قد اجتمعتم كأنّكم قد جئتم لنهبٍ؟ شاهتِ الوجوه ! ألا من أريدَ؟ جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا! اخرجوا عنّا، واللّه لئن رمتمونا ليمرنّ عليكم منّا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غبّ رأيكم. ارجعوا إلى منازلكم فإنّا واللّه ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا. فرجع الناس وأتى بعضهم عليّاً فأخبره الخبر.

فأقبل عليّ على عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث فقال: أحَضرتَ خطبة عثمان؟ قال: نعم. قال: أفحضرتَ مقالةَ مروان للناس؟ قال: نعم. فقال عليّ: أي عباد اللّه ! يا للمسلمين ! إنّي إن قعدت في بيتي قال لي: تركتني وقرابتي وحقي، وإنّي إن تكلّمتُ فجاء ما يريد يلعب به مروان فصار سَبَّقَةً له يسوقه حيث يشاء بعد كبر السن وصحبة رسول اللّه، ﷺ. وقام مغضَباً حتى دخل على عثمان فقال له: أما رضيتَ من مروان ولا رضي منك إلاّ بتحرّفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يُقاد حيثُ يُسار به ؟(١٦٦/٣)واللّه ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه ! وايمُ اللّه إنّي لأراه يوردك ولا يصدرك ! وما أنا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك، أذهبتَ شرفك وغُلبتَ على رأيك.

فلما خرج عليّ دخلت عليه امرأته نائلة ابنة الفَرافصة فقالت: قد سمعتُ قول عليّ لك وليس يعاودك وقد أطعتَ مروان يقودك حيث شاء. قال: فما أصنع؟ قالت: تتقي اللّه وتتبع سنّة صاحبَيك، فإنّك متى أطعت مروان قتلك، ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة، وإنّما تركك الناس لمكانه، فأرسلْ إلى عليّ فاستصلحه فإن له قرابة وهو لا يُعصى. فأرسل عثمان إلى عليّ فلم يأته وقال: قد أعلمته أنّي غير عائد. فبلغ مروانَ مقالةُ نائلة فيه فجلس بين يدي عثمان فقال: يا ابنة الفَرافصة ! فقال عثمان: لا تذكرنها بحرف فأسوِّد وجهك، فهي واللّه أنصح لي ! فكفَّ مروان.

وأتى عثمان إلى عليّ بمنزله ليلاً وقال له: إنّي غير عائد، وإنّي فاعل. فقال له عليّ: بعدما تكلّمت على منبر رسول اللّه، ﷺ، وأعطيت من نفسك ثمّ دخلت بيتك فخرج مروان إلى الناس يشتمهم على بابك ويؤذيهم.. فخرج عثمان من عنده وهو يقول: خذلتني وجرّأت الناس علي. فقال عليّ: واللّه إنّي لأكثر الناس ذبّاً عنك، ولكني كلّما جئتُ بشيء أظنّه لك رضا جاء مروان بأخرى فسمعتَ قوله وتركتَ قولي.

ولم يعد عليّ يعمل ما كان يعمل إلى أن مُنع عثمان الماء. فقال عليّ لطلحة: أريد أن تُدخل عليه الروايا، وغضب غضباً شديداً حتى دخلت الروايا على عثمان.(١٦٧/٣)

قال: وقد قيل إن عليّاً كان عند حصر عثمان بخيبر، فقدم المدينة والناس مجتمعون عند طلحة، وكان ممّن له فيه أثر، فلمّا قدم عليّ أتاه عثمان وقال له: أمّا بعد فإنّ لي حقّ الإسلام وحقّ

الإخاء والقرابة والصِّهر، ولو لم يكن من ذلك شيء وكنّا في الجاهليّة لكان عاراً على بني عبد مناف أن ينتزع أخو بني تيم، يعني طلحة، أمرهم. فقال له عليّ: سيأتيك الخبر، ثمّ خرج إلى المسجد فرأى أسامة فتوكأ على يده حتى دخل دار طلحة، وهو [في] خلوة من الناس، فقال له: يا طلحة ما هذا الأمر الذي وقعتَ فيه؟ فقال: يا أبا الحسن بعدما مسّ الحزامُ الطّبيين. فانصرف عليّ حتى أتى بيت المال فقال: افتحوه، فلم يجدوا المفاتيح، فكسر الباب وأعطى الناس، فانصرفوا من عند طلحة حتى بقي وحده، وسُرّ بذلك عثمان، وجاء طلحة فدخل على عثمان وقال له: يا أمير المؤمنين أردتُ أمراً فحال اللّه بيني وبينه! فقال عثمان: واللّه ما جئتَ تائباً، ولكن جئتَ مغلوباً، اللّه حسيبك يا طلحة!

ذكر مقتل عثمان

قد ذكرنا سبب مسير الناس إلى قتل عثمان، وقد تركنا كثيراً من الأسباب التي جعلها الناس ذريعة إلى قتله لعلل دعت إلى ذلك، ونذكر الآن كيف قُتل وما كان بدء ذلك وابتداء الجرأة عليه قبل قتله.

فكان من ذلك أن إبلاً من إبل الصدقة قُدم بها على عثمان فوهبها لبعض بني الحكم، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف، فأخذها وقسّمها بين الناس وعثمان في الدار.(١٦٨/٣)

قيل: وكان أوّل من اجترأ على عثمان بالمنطق جَبَلَة بن عمرو الساعدي، مرّ به عثمان وهو في نادي قومه وبيده جامعة، فسلّم فردّ القوم، فقال جَبَلة: لمَ تردُّون على رجل فعل كذا وكذا؟ ثمّ قال لعثمان: واللّه لأطرحن هذه الجامعة في عنقك أو لتتركن بطانتك هذه الخبيثة: مروان وابن عامر وابن سعد، منهم من نزل القرآن بذمه وأباح رسول اللّه، ﷺ، دمه. فاجترأ الناسُ عليه، وقد تقدّم قول عمرو بن العاص له في خطبته.

قيل: وخطب يوماً وبيده عصا كان النبيّ، ﷺ، وأبو بكر وعمر يخطبون عليها، فأخذها جهجاه الغفاري من يده وكسرها على ركبته فرمي في ذلك المكان بأكلة.

وقيل: كتب جمع من أهل المدينة من الصحابة وغيرهم إلى من بالآفاق منهم: إن أردتم الجهاد فهلمّوا إليه فإن دين محمد ﷺ قد أفسده خليفتكم فأقيموه. فاختلفت قلوب الناس، على ما تقدّم ذكره، وجاء المصريون، كما ذكرنا، إلى المدينة، فخرج إليهم عليّ ومحمد بن مسلمة، كما تقدم، فكلّماهم فعادوا ثمّ رجعوا، فلمّا رجعوا انطلق إليهم محمد بن مسلمة فسألهم عن سبب عودهم، فأخرجوا صحيفة في أنبوبة رصاص وقالوا: وجدنا غلام عثمان بالبويب على بعير من إبل الصدقة، ففتشنا متاعه فوجدنا فيه هذه الصحيفة يأمر فيها بجلد عبد الرحمن بن عُدَيس وعمرو بن الحَمِق وعروة بن البياع وحبسهم وحلق رؤوسهم ولحاهم وصلب بعضهم. وقيل: إن الذي أُخذت منه الصحيفة أبو الأعور السُّلَمي. فلمّا رأوه سألوه عن مسيره وهل معه كتاب فقال: لا. فسألوه في أي شيء هو، فتغير كلامه، فأنكروه وفتّشوه وأخذوا الكتاب منه وعادوا وعاد الكوفيون والبصريون. فلمّا عاد أهل مصر أخبروا بذلك محمد بن مسلمة وقالوا له: قد كلّمنا عليّاً ووعدنا أن يكلّمه، وكلّمنا(١٦٩/٣)سعد بن أبي وقّاص وسعيد بن زيد فقالا: لا ندخل في أمركم. وقالوا لمحمد بن مسلمة ليحضر مع علي عند عثمان بعد الظهر، فوعدهم بذلك، فدخل عليّ ومحمد بن مسلمة على عثمان فاستأذنا للمصريين عليه، وعنده مروان، فقال: دعني أكلّمهم. فقال عثمان: اسكت فضّ اللّه فاك! ما أنت وهذا الأمر؟ اخرج عني! فخرج مروان. وقال عليّ ومحمد لعثمان ما قال المصريون، فأقسم باللّه: ما كتبته ولا عِلْم [لي] به. فقال محمد: صدق، هذا من عمل مروان.

ودخل عليه المصريون فلم يسلّموا عليه بالخلافة، فعرفوا الشرّ فيهم، وتكلموا فذكر ابن عُدَيس ما فعل عبد اللّه بن سعد بالمسلمين وأهل الذمة والاستئثار في الغنائم، فإذا قيل له في ذلك قال: هذا كتاب أمير المؤمنين. وذكروا شيئاً ممّا أحدث بالمدينة، وقالوا له: وخرجنا من مصر ونحن نريد قتلك فردّنا عليّ ومحمد بن مسلمة وضَمِنَا لنا النزوع عن كلّ ما تكلّمنا فيه، فرجعنا إلى بلادنا فرأينا غلامك وكتابك وعليه خاتمك تأمر عبد اللّه بجلدنا والمُثلة بنا وطول الحبس.

فحلف عثمان أنّه ما كتب ولا أمر ولا علم. فقال عليّ ومحمد: صدق عثمان. قال المصريون: فمن كتبه؟ قال: لا أدري. قالوا: فيُجترأ عليك ويُبعث غلامك وجملاً من الصدقة ويُنقش على خاتمك ويُبعث إلى عاملك بهذه الأمور العظيمة وأنت لا تعلم؟ قال: نعم. قالوا: ما أنتَ إلا صادق أو كاذب، فإن كنت كاذباً فقد استحققتَ الخلع لما أمرتَ به من قتلنا بغير حق، وإن كنت صادقاً فقد استحققتَ أن تخلع نفسك لضعفك عن هذا الأمر وغفلتك وخبث بطانتك، ولا ينبغي لنا أن نترك هذا الأمر بيد من تُقطع الأمور دونه لضعفه وغفلته، فاخلع نفسك منه كما خلعك اللّه! فقال: لا أنزع قميصاً البسنيه اللّه، ولكني أتوب وأنزع. قالوا: لو كان هذا أوّل ذنب تبتَ منه قبلنا، ولكنّا رأيناك تتوب ثمّ تعود ولسنا منصرفين حتى نخلعك أو نقتلك أو تُلحق أرواحنا باللّه تعالى ،(١٧٠/٣)وإن منعك أصحابك وأهلك قاتلناهم حتى نخلص إليك. فقال: أمّا أن أتبرأ من خلافة اللّه فالقتل أحبّ إليّ من ذلك، وأمّا قولكم تقاتلون مَن منعني فإنّي لا آمر أحداً بقتالكم، فمن قاتلكم فبغير أمري قاتل، ولو أردتُ قتالكم لكتبتُ إلى الأجناد فقدموا عليّ أو لحقتُ ببعض أطرافي. وكثرت الأصوات واللغط.

فقام عليّ فخرج وأخرج المصريين ومضى عليّ إلى منزله، وحصر المصريون عثمان، وكتب إلى معاوية وابن عامر وأمراء الأجناد يستنجدهم ويأمرهم بالعجل وإرسال الجنود إليه. فتربص به معاوية، فقام في أهل الشام يزيد بن أسد القسري جد خالد بن عبد اللّه القسري فتبعه خلق كثير، فسار بهم إلى عثمان، فلمّا كانوا بوادي القُرى بلغهم قتل عثمان فرجعوا. وقيل: بل سار من الشام حبيب بن مسلمة الفهري، وسار من البصرة مجاشع بن مسعود السُّلَمي، فلمّا وصلوا الرَّبذة ونزلت مقدمتهم صِراراً بناحية المدينة أتاهم قتل عثمان فرجعوا.

وكان عثمان قد استشار نصحاءه في أمره، فأشاروا عليه أن يُرسل إلى عليّ يطلب إليه أن يردّهم ويعطيهم ما يرضيهم ليطاولهم حتى يأتيه إمداده. فقال: إنّهم لا يقبلون التعلّل، وقد كان مني في المرّة الأولى ما كان. فقال مروان: أعطهم ما سألوك وطاولهم ما طاولوك، فإنّهم قوم بَغَوا عليك ولا عهد لهم. فدعا عليّاً فقال له: قد ترى ما كان من الناس ولستُ آمنهم على دمي، فارددهم عني فإنّي أعطيهم ما يريدون من الحقّ من نفسي وغيري. فقال عليّ: الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك، ولا يرضون إلاّ بالرضا، وقد كنتَ أعطيتهم أوّلاً عهداً فلم تَفِ به فلا تغرّني هذه المرّة فإنّي معطيهم عليك الحق. فقال: (١٧١/٣)أعطهم فواللّه لأفينّ لهم. فخرج عليّ إلى الناس فقال لهم: إنّما طلبتم الحقّ وقد أُعطيتموه وقد زعم أنّه منصفكم من نفسه. فقال الناس: قبلنا فاستوثِقْ منه لنا فإنّا لا نرضى بقول دون فعل. فدخل عليه عليّ فأعلمه فقال: اضرب بيني وبينهم أجَلاً فإنّي لا أقدر على أن أرد ما كرهوا في يوم واحد. فقال عليّ: أمّا ما كان بالمدينة فلا أجل فيه وما غاب فأجله وصول أمرك. قال: نعم، فأجّلني فيما في المدينة ثلاثة أيّام. فأجابه إلى ذلك، وكتب بينهم كتاباً على رد كلّ مظلمة وعزل كلّ عامل كرهوه.

فكفّ الناس عنه، فجعل يتأهّب للقتال ويستعد بالسلاح واتّخذ جنداً، فلمّا مضت الأيّام الثلاثة ولم يغير شيئاً ثار به الناس، وخرج عمرو بن حزم الأنصاري إلى المصريين فأعلمهم الحال، وهم بذي خُشُب، فقدموا المدينة وطلبوا منه عزل عماله وردّ مظالمهم. فقال: إن كنتُ مستعملاً من أردتم وعازلاً من كرهتم فلستُ في شيء والأمر أمركم. فقالوا: واللّه لتفعلن أو لتُخلعن أو لتُقتلن. فأبى عليهم وقال: لا أنزع سربالاً سربلنيه اللّه. فحصروه واشتدّ الحصار عليه، فأرسل إلى عليّ وطلحة والزبير فحضروا، فأشرف عليهم فقال: يا أيّها الناس اجلسوا. فجلسوا المحارب والمسالم. فقال لهم: يا أهل المدينة أستودعكم اللّه وأساله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدي، ثمّ قال: أنشدكم باللّه هل تعلمون أنّكم دعوتم اللّه عند مصاب عمر أن يختار لكم ويجمعكم على خيركم؟ أتقولون إن اللّه لم يستجب لكم وهنتم عليه وأنتم أهل حقّه؟ أم تقولون: هان على اللّه دينه فلم يبالِ من ولي والدين لم يتفرّق أهله يومئذ؟ أم تقولون: لم يكن أخذٌ عن مشورة إنّما كان مكابرة فوكل اللّه الأمة إذا عصته ولم يشاوروا في الإمامة؟ أم تقولون: إن اللّه لم يعلم عاقبة أمري ! وأنشدكم باللّه(١٧٢/٣)أتعلمون لي من سابقة خير وقدم خير قدمه اللّه لي ما يوجب على كلّ من جاء بعدي أن يعرفوا لي فضلها ! فمهلاً لا تقتلوني فإنه لا يحلّ إلاّ قتل ثلاثة: رجل زنى بعد إحصانه، أو كفر بعد إيمانه، أو قتل نفساً بغير حقّ، فإنّكم إذا قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم ثمّ لم يرفع اللّه عنكم الاختلاف أبداً.

قالوا: أمّا ذكرتَ من استخارة الناس بعد عمر ثمّ ولوك فإن كلّ ما صنع اللّه خيرة، ولكن اللّه جعلك بليّة ابتلى بها عباده، وأمّا ما ذكرت من قدمك وسلفك مع رسول اللّه، ﷺ، فقد كنتَ كذلك وكنتَ أهلاً للولاية، ولكن أحدثت ما علمتَه ولا نترك إقامة الحقّ عليك مخافة الفتنة عاماً قابلاً، وأمّا قولك: إنّه لا يحلّ إلاّ قتل ثلاثة، فإنّا نجد في كتاب اللّه قتل غير الثلاثة الذين سميتَ، قتل من سعى في الأرض فساداً، وقتل من بغى ثمّ قاتل على بغيه، وقتل من حال دون شيء من الحقّ ومنعه وقاتل دونه، وقد بغيتَ ومنعتَ وحُلتَ دونَه وكابرت عليه ولم تُقِدْ من نفسك من ظلمتَ، وقد تمسكتَ بالإمارة علينا، فإن زعمتَ أنّك لم تكابرنا عليه فإن الذي قاموا دونك ومنعوك منّا إنّما يقاتلون لتمسك بالإمارة، فلو خلعت نفسك لانصرفوا عن القتال معك !

فسكت عثمان ولزم الدار وأمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم، فرجعوا إلاّ الحسن بن علي وابن عباس ومحمد بن طلحة وعبد اللّه بن الزبير وأشباهاً لهم، واجتمع إليه ناس كثير، فكانت مدة الحصار أربعين يوماً، فلمّا مضت ثماني عشرة ليلة قدم ركبان من الأمصار فأخبروا بخبر من تهيأ إليهم من الجنود وشجعوا الناس، فعندها حالوا بين الناس وبين عثمان ومنعوه كلّ شيء حتى الماء. فأرسل(١٧٣/٣)عثمان إلى عليّ سرّاً وإلى طلحة والزبير وأزواج النبيّ، ﷺ: إنّهم قد منعوني الماء فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا ماء فافعلوا. فكان أوّلهم إجابة عليّ، وأمّ حبيبة زوج النبيّ، ﷺ، فجاء عليّ في الغَلَس فقال: يا أيّها الناس إن الذي تفعلون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، فلا تقطعوا عن هذا الرجل الماء ولا المادة، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي ! فقالوا: لا واللّه ولا نعمة عين ! فرمى بعمامته في الدار بأني قد نهضت ورجعت، وجاءت أمّ حبيبة على بغلة لها مشتملة على إدواة فضربوا وجه بغلتها فقالت: إن وصايا بني أمية عند هذا الرجل، فأحببتُ أن أسأله عنها لئلاّ تهلك أموال الأيتام والأرامل. فقالوا: كاذبة؛ وقطعوا حبل البغلة بالسيف، فنفرت وكادت تسقط عنها، فتلقّاها الناس

فأخذوها وذهبوا بها إلى بيتها.

فأشرف عثمان يوماً فسلّم عليهم ثمّ قال: أنشدكم اللّه هل تعلمون أنّي اشتريت بئر رومة بمالي ليُستعذب بها فجعلت رشائي فيها كرجل من المسلمين؟ قالوا: نعم. قال: فلِم تمنعوني أن أشرب منها حتى أُفطر على ماء البحر؟ ثمّ قال: أنشدكم باللّه هل تعلمون أنّي اشتريتُ أرض كذا فزدتها في المسجد؟ قيل: نعم. قال: فهل علمتم أن أحداً مُنع أن يصلّي فيه قبلي؟ ثمّ قال: أنشدكم باللّه أتعلمون أن النبيّ، ﷺ، قال عني كذا وكذا؟ أشياء في شأنه. ففشا النهي في الناس يقولون: مهلاً عن أمير المؤمنين. فقام الأشتر فقال: لعلّه مكر به وبكم. وخرجت عائشةُ إلى الحجّ واستتبعت أخاها محمّداً فأبى، فقالت: واللّه لئن استطعتُ أن يحرمهم اللّه ما يحاولون لأفعلن. فقال له حنظلة الكاتب: تستتبعك أمّ المؤمنين فلا تتبعها وتتبع ذؤبان العرب إلى ما [لا] يحل؟ وإن هذا الأمر إن صار إلى التغالب غلبك عليه بنو عبد مناف. ثمّ رجع حنظلة إلى الكوفة وهو يقول: (١٧٤/٣)

عجبتُ لما يخوضُ النّاسُ فيه ... يرومونَ الخلافةَ أنْ تَزولا
ولو زالَتْ لزالَ الخيرُ عَنهمْ ... ولاقَوْا بَعدَها ذُلاً ذَليلا
وكانوا كاليهودِ وكالنّصارَى ... سواء كلّهم ضَلّوا السّبيلا

وبلغ طلحةَ والزبيرَ ما لقي عليّ وأمّ حبيبة فلزموا بيوتهم وبقي عثمان يسقيه آل حزم في الغفلات. فأشرف عثمان على الناس فاستدعى ابن عبّاس فأمره أن يحجّ بالناس، وكان ممّن لزم الباب، فقال: جهاد هؤلاء أحبّ إليّ من الحجّ. فأقسم عليه فانطلق.

قال عبد اللّه بن عبّاس بن أبي ربيعة: دخلتُ على عثمان فأخذ بيدي فاسمعني كلام من على بابه، فمنهم من يقول: ما تنتظرون به؟ ومنهم من يقول: انظروا عسى أن يراجع. قال: فبينما نحن واقفون إذ مرّ طلحة فقال: أين ابن عُدَيس؟ فقام إليه فناجاه ثمّ رجع ابن عُدَيس فقال لأصحابه: لا تتركوا أحداً يدخل على عثمان ولا يخرج من عنده. فقال لي عثمان: هذا ما أمر به طلحة، اللهمّ اكفني طلحة فإنّه حمل عليّ هؤلاء وألّبهم عليّ! واللّه إنّي لأرجو أن يكون منها صفراً وأن يُسفك دمه! قال: فأردتُ أن أخرج فمنعوني حتى أمرهم محمد بن أبي بكر فتركوني أخرج. وقيل: إن الزبير خرج من المدينة قبل أن يُقتل عثمان، وقيل: أدرك قتله.

ولما رأى المصريون أن أهل الموسم يريدون قصدهم وأن يجمعوا ذلك إلى حجّهم مع ما بلغهم من مسير أهل الأمصار قالوا: لا يخرجنا من هذا الأمر الذي وقعنا فيه إلا قتل هذا الرجل فيشتغل الناس عنّا بذلك. فراموا الباب فمنعهم الحسنُ وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان وسعيد بن العاص ومن معهم من أبناء الصحابة واجتلدوا، فزجرهم عثمان وقال: أنتم في حلٍّ من نُصرتي، فأبوا، ففتح الباب ليمنعهم، فلمّا خرج ورآه المصريون رجعوا فركبهم هؤلاء وأقسم عثمان على أصحابه ليدخلُنّ فدخلوا فأغلق الباب دون المصريين، فقام(١٧٥/٣)رجل من أسلم يقال له نيار بن عياض، وكان من الصحابة، فنادى عثمان، فبينا هو يناشده أن يعتزلهم إذ رماه كثير بن الصلت الكندي بسهم فقتله.

فقالوا لعثمان عند ذلك: ادفع إلينا قاتله لنقتله به. قال: لم أكن لأقتل رجلاً نصرني وأنتم تُريدون قتلي. فلمّا رأوا ذلك ثاروا إلى الباب، فلم يمنعهم أحد منه، والباب مغلق لا يقدرون على الدخول منه، فجاؤوا بنار فأحرقوه والسقيفة التي على الباب، وثار أهل الدار، وعثمان يصلّي قد افتتح طه فما شغله ما سمع، ما يخطئ وما يتتعتع، حتى أتى عليها، فلمّا فرغ جلس إلى المصحف يقرأ فيه، وقرأ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: آية١٧٣] فقال لمن عنده بالدار: إن رسول اللّه، ﷺ، قد عهد إليّ عهداً فأنا صابر عليه، ولم يحرقوا الباب إلاّ وهم يطلبون ما هو أعظم منه، فأُخَرِّجُ على رجل أن يستقتل أو يقاتل، وقال للحسن: إن أباك الآن لفي أمر عظيم من أمرك فأقسمت عليكم لما خرجت إليه. فتقدموا فقاتلوا ولم يسمعوا قوله، فبرز المغيرة بن الأخنس بن شريق، وكان قد تعجّل من الحجّ، في عصابة لينصروا عثمان وهو معه في الدار، وارتجز يقول:

قد علمتْ ذاتُ القرونِ الميلِ ... والحَلْيِ والأنامل الطُفولِ
لتصدقنّ بَيْعتي خَليلي ... بصارمٍ ذي رونقٍ مصقولِ
لا أستقيلُ إذْ أقَلْتُ قيلي (١٧٦/٣)

وخرج الحسن بن عليّ وهو يقول:

لا دينُهُم ديني ولا أنا منهُمُ ... حتى أسيرَ إلى طَمارِ شَمامِ

وخرج محمد بن طلحة وهو يقول:

أنا ابنُ مَن حامَى عليه بأُحُدْ ... وردُّ أحزاباً على رغم مَعَدّ

وخرج سعيد بن العاص وهو يقول:

صبرنا غداةَ الدّار والموتُ واقبُ ... بأسيافنا دونَ ابنِ أروى نضاربُ
وكنّا غداةَ الرَّوعِ في الدّارِ نُضرَةً ... نشافههم بالضّرْبِ والموتُ نائبُ

وكان آخر من خرج عبد اللّه بن الزبير فكان يحدث عن عثمان بآخر ما كان عليه، وأقبل أبو هُريرة والناس محجمون فقال: هذا يوم طاب فيه الضرب! ونادى: ﴿يَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر: آية٤١]، وبرز مروان وهو يقول:

قد علمتْ ذاتُ القرونِ الميلِ ... والكفُّ والأنامل الطُفولِ
أنّي أروعُ أوّلَ الرّعيلِ ... بغارةٍ مثلِ القَطا الثّليلِ

فبرز إليه رجل من بني ليث يدعى البياع، فضربه مروان

وضرب هو مروان على رقبته فأثبته وقطع إحدى عِلباويه، فعاش مروان بعد ذلك أوقص، وقام(١٧٧/٣)إليه عبيد بن رفاعة الزُرقي ليدفّف عليه، فقامت فاطمة أم إبراهيم بن عدي، وكانت أرضعت مروان وأرضعت له، فقالت: إن كنت تريد قتله فقد قُتل، وإن كنت تريد أن تلعب بلحمه فهذا قبيح ! فتركه وأدخلته بيتها، فعرف لها بنوه ذلك واستعملوا ابنها إبراهيم بعدُ. ونزل إلى المغيرة بن الأخنس بن شريق رجلٌ فقتل المغيرة، قال: فلمّا سمع الناس يذكرونه قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. فقال له عبد الرحمن بن عُدَيس: ما لك؟ فقال: رأيتُ فيما يرى النائم هاتفاً يهتف فقال: بشّر قاتل المغيرة بن الأخنس بالنار، فابتُليت به.

واقتحم الناسُ الدار من الدور التي حولها ودخلوها من دار عمرو بن حزم إلى دار عثمان حتى ملؤوها ولا يشعر من بالباب، وغلب الناس على عثمان وندبوا رجلاً يقتله، فانتدب له رجل، فدخل عليه البيت فقال: اخلعها وندعك. فقال: ويحك ! واللّه ما كشفتُ امرأة في جاهلية ولا إسلام ولا تغنيتُ ولا تمنيتُ ولا وضعتُ يميني على عورتي منذ بايعتُ رسول اللّه، ﷺ، ولستُ خالعاً قميصاً كسانيه اللّه تعالى حتى يكرم اللّه أهل السعادة ويهين أهل الشقاوة ! فخرج عنه، فقالوا: ما صنعتَ؟ فقال: واللّه لا ينجينا من الناس إلاّ قتله ولا يحلّ لنا قتله. فأدخلوا عليه رجلاً من بني ليث فقال له: لست بصاحبي لأن النبيّ، ﷺ، دعا لك أن تُحفَظ يوم كذا وكذا ولن تضيع. فرجع عنه وفارق القوم. ودخل عليه رجل من قريش فقال له: إن رسول اللّه، ﷺ، استغفر لك يوم كذا وكذا فلن تقارف دماً حراماً. فرجع وفارق أصحابه. وجاء عبد اللّه بن سلام ينهاهم عن قتله.(١٧٨/٣)فقال: يا قوم لا تسلّوا سيف اللّه فيكم، فواللّه إن سللتموه لا تغمدوه ! ويلكم ! إن سلطانكم اليوم يقوم بالدِّرّة، فإن قتلتموه لا يقوم إلاّ بالسيف. ويلكم ! إن مدينتكم محفوفة بالملائكة فإن قتلتموه ليتركنّها. فقالوا: يا ابنَ اليهودية ما أنتَ وهذا ! فرجع عنهم. وكان آخر من دخل عليه ممّن رجع محمد بن أبي بكر، فقال له عثمان: ويلك أعلى اللّه تغضب؟ هل لي إليك جرم إلاّ حقه أخذته منك ؟

فأخذ محمد لحيته وقال: قد أخزاك اللّه يا نَعثَل ! فقال: لستُ بنعثل ولكني عثمان وأمير المؤمنين، وكانوا يلقبون به عثمان. فقال محمد: ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان ! فقال عثمان: يا ابن أخي فما كان أبوك ليقبض عليها. فقال محمد: لو رآك أبي تعمل هذه الأعمال أنكرها عليك، والذي أريد بك أشد من قبضي عليها ! فقال عثمان: أستنصر اللّه عليك وأستعين به ! فتركه وخرج.

وقيل: بل طعن جبينه بمشقص كان في يده. والأوّل أصحّ.

قال: فلمّا خرج محمد وعرفوا انكساره ثار قُتيرةُ وسودان بن حمران والغافقي، فضربه الغافقي بحديدة معه وضرب المصحف برجله، فاستدار المصحف واستقرّ بين يديه وسالت عليه الدماء، وجاء سودان ليضربه، فأكبّت عليه امرأته واتّقت السيف بيدها، فنفح أصابعها فأطنّ أصابع يدها وولّت، فغمز أوراكها وقال: إنّها لكبيرة العجز ! وضرب عثمانَ فقتله.

وقيل: الذي قتله كنانة بن بشر التُجيبي. وكان عثمان رأى النبيّ، ﷺ، تلك الليلة يقول له: إنّك تفطر الليلة عندنا. فلمّا قُتل سقط(١٧٩/٣) من دمه على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ﴾[البقرة: ١٣٧]. ودخل غلمة لعثمان مع القوم لينصروه، وكان عثمان قد أعتق من كف يده منهم، فلمّا ضربه سودان ضرب بعضُ الغلمان رقبة سودان فقتله، ووثب قُتيرة على الغلام فقتله، وانتهبوا ما في البيت وخرجوا ثمّ أغلقوه على ثلاثة قتلى، فلمّا خرجوا وثب غلام لعثمان على قُتيرة فقتله، وثار القوم فأخذوا ما وجدوا حتى أخذوا ما على النساء، وأخذ كلثوم التُجيبي ملاءةً من على نائلة، فضربه غلام لعثمان فقتله، وتنادَوا: أدركوا بيت المال ولا تُسبقوا إليه، فسمع أصحاب بيت المال كلامهم وليس فيه إلاّ غرارتان، فقالوا: النجاءَ فإنّ القوم إنّما يحاولون الدنيا ! فهربوا، وأتَوا بيت المال فانتهبوه وماج الناس.

وقيل: إنّهم ندموا على قتله. وأمّا عمرو بن الحَمِق فوثب على صدره وبه رمق فطعنه تسع طعنات، قال: فأمّا ثلاث منها فإنّي طعنتهن إيّاه لله تعالى، وأمّا ستّ فلِما كان في صدري عليه. وأرادوا قطع رأسه فوقعت نائلة عليه وأمّ البنين فصاحتا وضربتا الوجوه. فقال ابن عُدَيس: اتركوه. وأقبل عمير بن ضابئ فوثب عليه فكسر ضلعاً من أضلاعه وقال: سجنتَ أبي حتى مات في السجن.

وكان قتله لثماني عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين يوم الجمعة، وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة إلاّ اثني عشر يوماً، وقيل: إلاّ ثمانية أيام، وقيل: بل كان قتله لثماني عشرة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين، وقيل: بل قُتل أيام التشريق وكان عمره اثنتين وثمانين سنة، وقيل: ثمانياً وثمانين سنة، وقيل: تسعين سنة، وقيل: خمساً وسبعين سنة، وقيل: ستّاً وثمانين سنة. (١٨٠/٣)

ذكر الموضع الذي دُفن فيه ومَن صلّى عليه

قيل: بقي عثمان ثلاثة أيام لا يُدفن، ثمّ إن حكيم بن حزام القرشي وجبير بن مطعم كلّما عليّاً في أن يأذن في دفنه، ففعل، فلمّا سمع من قصده بذلك قعدوا له في الطريق بالحجارة، وخرج به ناس يسير من أهله وغيرهم، وفيهم الزبير والحسن وأبو جهم بن حُذيفة ومروان، بين المغرب والعشاء، فأتوا به حائطاً من حيطان

المدينة يسمّى حش كوكب، وهو خارج البقيع، فصلّى عليه جبير بن مطعم، وقيل: حكيم بن حزام، وقيل: مروان، وجاء ناس من الأنصار ليمنعوا من الصلاة عليه ثمّ تركوهم خوفاً من الفتنة. وأرسل عليّ إلى من أراد أن يرجم سريره ممّن جلس على الطريق لما سمع بهم فمنعهم عنه، ودُفن في حش كوكب. فلمّا ظهر معاوية بن أبي سفيان على الناس أمر بذلك الحائط فهُدم وأُدخل في البقيع وأمر الناس فدفنوا أمواتهم حول قبره حتى اتصل الدفن بمقابر المسلمين. وقيل: إنّما دُفن بالبقيع ممّا يلي حش كوكب. وقيل: شهد جنازته عليّ وطلحة وزيد بن ثابت وكعب بن مالك وعامة من ثَمّ من أصحابه. قال: وقيل لم يُغسل وكُفن في ثيابه.

ذكر بعض سيرة عثمان

قال الحسن البَصْريُّ: دخلتُ المسجد فإذا أنا بعثمان متكئاً على ردائه، فأتاه سقّاءان يختصمان إليه، فقضى بينهما. وقال الشعبي: لم يمت عمر بن الخطّاب حتى ملّته قريش وقد كان حصرهم بالمدينة، وقال: أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد، فإن كان الرجل منهم ليستأذنه في الغزو فيقول: قد(١٨١/٣)كان لك في غزوك مع رسول اللّه، ﷺ، ما يبلّغك، وخير لك من غزوك اليوم أن لا ترى الدنيا ولا تراك. وكان يفعل هذا بالمهاجرين من قريش ولم يكن يفعله بغيرهم من أهل مكّة. فلمّا ولي عثمان خلّى عنهم فانتشروا في البلاد وانقطع إليهم الناس وكان أحبّ إليهم من عمر. قيل: وحجّ عثمان بالناس سنوات خلافته كلّها، وحجّ بأزواج النبيّ، ﷺ، كما كان يصنع عمر. وكتب إلى الأمصار أن يوافيه العمال في الموسم ومن يشكو منهم، وأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، وأنّه مع الضعيف على القوي ما دام مظلوماً.

وقيل: كان أوّل منكَر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا طيران الحمام والرمي على الجُلاهِقات، وهي قوس البندق، واستعمل عليها عثمان رجلاً من بني ليث سنة ثمان من خلافته، فقصّ الطيور وكسر الجلاهقات.

قيل: وسأل رجل سعيد بن المسيّب عن محمد بن أبي حُذيفة ما دعاه إلى الخروج على عثمان، فقال: كان يتيماً في حجر عثمان وكان والي أيتام أهل بيته ومحتملاً كَلّهم، فسأل عثمانَ العملَ، فقال: يا بني لو كنت رضاً لاستعملتك. قال: فأذَنْ لي فأخرج فأطلب الرزق. قال: اذهبْ حيث شئت، وجهّزه من عنده وحمله وأعطاه، فلمّا وقع إلى مصر كان فيمن أعان عليه حين منعه الإمارة. قال: وعمّار بن ياسر؟ قال: كان بينه وبين عبّاس بن عُتبة بن أبي لهب كلام فضربهما عثمان فأورث ذلك تعادياً بين أهل عمّار وأهل عبّاس. وكانا تقاذفا.

قيل: سئل سالم بن عبد اللّه عن محمد بن أبي بكر ما دعاه إلى ركوب عثمان. قال: الغضب والطمع، كان من الإسلام بمكان فغرّه أقوام فطمع، وكانت له دالة فلزمه حقّ، فأخذه عثمان من ظهره، فاجتمع هذا إلى ذلك فصار مذمّماً(١٨٢/٣)بعد أن كان محمّداً. قيل: واستخفّ رجل بالعباس بن عبد المطّلب فضربه عثمان فاستُحسن منه ذلك، فقال: أيفخّم رسولُ اللّه، ﷺ، عمّه وأرخّص في الاستخفاف به! لقد خالف رسولَ اللّه، ﷺ، من فعل ذلك ورضي به. قيل: وكان كعب بن ذي الحَبكة النهدي يعبث بالنارنجيات، فبلغ عثمانَ، فكتب إلى الوليد أن يوجعه ضرباً، فعزّره وأخبر الناسَ خبره وقرأ عليهم كتاب عثمان، وفيه: إنّه قد جُدّ بكم فجدُّوا وإيّاكم والهزل. فغضب كعب وكان في الذي خرجوا عليه، وكان سيره إلى دُنباوند، فقال في ذلك للوليد:

لعمري لئن طرّدتني ما إلى التي ... طمعتَ بها من سقطتي لسبيلُ
رجوتُ رجوعي يا ابن أروى ورجعتي ... إلى الحقّ دهراً، غالَ ذلك غُولُ
فإنّ اغترابي في البلاد وجفوتي ... وشتميَ في ذاتِ الإلهِ قليلُ
وإنّ دعائي كلَّ يومٍ وليلةٍ ... عليكَ بدنباوندكم لطويلُ

قال: وأمّا ضابئ بن الحارث البرجمي فإنّه استعار في زمن الوليد بن عُقبة من قوم من الأنصار كلباً يدعى قرحان يصيد الظباء فحبسه عنهم، فانتزعه الأنصاريون منه قهراً، فهجاهم وقال:

تجشّمَ دوني وفدُ قرحانَ خطّةً ... تضلّ لها الوَجناءُ وهيَ حَسيرُ

(١٨٣/٣)

فباتوا شباعاً طاعمين كأنّما ... حباهم ببيت المرزبانِ أميرُ
فكلبُكُمُ لا تتركوا فهو أمُّكم ... فإنّ عُقوقَ الأمّهاتِ كبيرُ

فاستعدَوا عليه عثمان، فعزره وحبسه، فما زال في السجن حتى مات فيه. وقال في الفتك معتذراً إلى أصحابه:

هممتُ ولم أفعلْ وكدتُ وليتَني ... تركتُ على عثمانَ تَبكي حَلائلُهْ
وقائلةٍ قد ماتَ في السجن ضابئٌ ... ألا مَن لخصمٍ لم يجدْ من يجادلُهْ

فلذاك صار ابنه عمير سبئيّاً. قال: وأمّا كُميل بن زياد وعمير بن ضابئ فإنّهما سارا إلى المدينة لقتل عثمان، فأمّا عمير فإنّه نكل عنه، وأمّا كُميل فإنّه جسر وثاوره، فوجأ عثمانُ وجهه فوقع على استه فقال: أوجعتني يا أمير المؤمنين! قال: أوَلَستَ بفاتك؟ قال: لا واللّه. فقال عثمان: فاستقدْ منّي، وقال: دونك، فعفا عنه، وبقيا إلى أيّام الحجّاج فقتلهما، وسيرد ذكر ذلك إن شاء اللّه تعالى.

قيل: وكان لعثمان على طلحة بن عبيد اللّه خمسون ألفاً، فقال له يوماً: قد تهيأ مالك فاقبضه. قال: هو لك معونة على مروءتك. قيل: فلمّا حُصر عثمان قال علي لطلحة: أنشدك اللّه ألاّ رددت الناس عن عثمان! قال: لا واللّه حتى تعطيني بنو أمية الحقّ من أنفسها. (١٨٤/٣)

وكان عثمان يلقّب ذا النورين لأنّه جمع بين ابنتي النبيّ، ﷺ.

قال الأصمعي: استعمل عبدُ اللّه بن عامر قطنَ بن عبد عوف على كَرمان، فاقبل جيش للمسلمين فمنعهم سيل في واد من العبور، وخشي قطن الفوتَ فقال: مَن عبر له ألف درهم. فحملوا أنفسهم وعبروا، وكانوا أربعة آلاف، فأعطاهم أربعة آلاف ألف درهم، فأبى ابن عارم أن يُجري ذلك له وكتب إلى عثمان، فكتب عثمان: أن احسبها له فإنّه إنّما أعان بها في سبيل اللّه، فلذلك سُمِّيت الجوائز لإجازة الوادي.

وقال حسان بن زيد: سمعتُ عليّاً وهو يخطب الناس ويقول بأعلى صوته: يا أيّها الناس إنكم تكثرون فيَّ وفي عثمان، فإن مثلي ومثله كما قال اللّه تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]. وقال أبو حُميد الساعدي، وهو بدري وكان مجانباً لعثمان، فلمّا قُتل عثمان قال: واللّه ما أردنا قتله، اللّهم لك عليّ أن لا أفعل كذا وكذا ولا أضحك حتى ألقاك.

ذكر نسبه وصفته وكنيته

أمّا نسبه فهو عثمان بن عفّان بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمّه أروى بنت كُرَيز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمّها أمّ حكيم بنت عبد المطّلب.

وأمّا صفته فإنّه كان رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير، حسن الوجه، (١٨٥/٣)رقيق البشرة، بوجهه أثر جُدَريّ، كبير اللحية عظيمها، أسمر اللون، أصلع، عظيم الكراديس، عظيم ما بين المنكبين، يصفّر لحيته، وقيل: كان كثير شعر الرأس، أروح الرجلين.

وأمّا كنيته فإنّه كان يكنى أبا عبد اللّه بولد جاءه من رقيّة بنت رسول اللّه، ﷺ، اسمه عبد اللّه، توفي وعمره ست سنين، نقره ديك في عينه فمرض فمات في جمادى الأولى سنة أربع من الهجرة، وقيل: كان يكنى أبا عمرو.

ذكر وقت إسلامه وهجرته

قيل: كان إسلامه قديماً قبل دخول رسول اللّه، ﷺ، دار الأرقم، وكان ممّن هاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى والثانية ومعه فيهما امرأته رُقَيّة بنت رسول اللّه، ﷺ.

ذكر أزواجه وأولاده

تزوّج رُقيّة وأمّ كلثوم ابنتي رسول اللّه، ﷺ، فولدت له رُقيّةُ عبدَ اللّه، وتزوّج فاختة بنت غزوان، فولدت له عبد اللّه الأصغر، هلك، وتزوّج أمّ عمرو بنت جندب بن عمرو بن حُمَمَة الدوسية، ولدت له(١٨٦/٣)عَمراً وخالداً وأباناً وعمر ومريم؛ وتزوّج فاطمة بنت الوليد بن المغيرة المخزومية، ولدت له الوليد وسعيداً وأم سعيد؛ وتزوّج أمّ البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية، ولدت له عبد الملك، هلك؛ وتزوّج رملة بنت شيبة بن ربيعة، ولدت له عائشة وأمّ أبان وأمّ عمرو؛ وتزوّج رملة بنت الفَرافصة الكلبية، ولدت له مريم بنت عثمان، وقيل: ولدت له أمُّ البنين بنت عيينة عبدَ الملك وعتبةَ، وولدت له نائلةُ عنبسةَ، وكان له منها أيضاً ابنةٌ تدعى أم البنين، وكانت عند عبد اللّه بن يزيد بن أبي سفيان؛ وقُتل عثمان وعنده رملة ابنة شيبة ونائلة وأمّ البنين ابنة عيينة وفاختة بنت غزوان، غير أنّه طلّق أمّ البنين وهو محصور.

فهؤلاء أزواجه في الجاهليّة والإسلام وأولاده.

ذكر أسماء عُمّاله في هذه السنة

كان عماله هذه السنة على مكّة: عبد اللّه بن الحضرمي، وعلى الطائف القاسم بن ربيعة الثقفي، وعلى صنعاء يعلى بن مُنْية، وعلى الجَند عبد اللّه بن ربيعة، وعلى البَصْرة عبد اللّه بن عامر، خرج منها ولم يولّ عثمانُ عليها أحداً، وعلى الشام معاوية بن أبي سفيان، وعامل معاوية على حمص عبد الرحمن بن خالد، وعلى قِنّسرين حبيب بن مَسْلمة الفِهْري، وعلى الأردنّ أبو الأعور السُّلَمي، وعلى فلسطين علقمة بن حكيم الكناني، وعلى البحر عبد اللّه بن قيس الفزاري، وعلى القضاء أبو الدرداء في قول بعضهم، والصحيح أنّه كان قد توفي قبل أن قُتل عثمان، وكان عامل عثمان على الكوفة أبو موسى على الصلاة، وعلى خراج السواد جابر بن فلان المزني، وهو صاحب المسنّاة إلى جانب الكوفة، وسماك الأنصاري، وعلى حربها القعقاع بن عمرو، وعلى قَرْقِيسيا جرير بن عبد اللّه، وعلى أذربيجان الأشعث بن قيس الكندي، وعلى حُلوان عُتيبة بن(١٨٧/٣)النَّهّاس، وعلى ماه مالك بن حبيب، وعلى هذمان النُّسير، وعلى الري سعيد بن قيس، وعلى أصبهان السائب بن الأقرع، وعلى مَاسَبَذان خُنَيْس، وعلى بيت المال عقبة بن عامر، وكان على قضاء عثمان زيد بن ثابت.

(عُتيبة بن النَّهّاس بالتاء فوقها نقطتان، وبعدها ياء تحتها نقطتان، وآخره باء موحدة. وعُيَينة بن حصن بالياء تحتها نقطتان، وياء ثانية، وآخره نون، تصغير عين. والنُّسير بالنون، والسين المهملة، تصغير نسر).

ذكر الخبر عمّن كان يصلّي في مسجد النبيّ، ﷺ، حين حُصر عثمان

قيل: وجاء ذلك اليوم الذي مُنع فيه عثمانُ الصلاةَ سعدُ القَرَظ، وهو المؤذن، إلى عليّ بن أبي طالب، فقال: من يصلّي بالناس؟ فقال: ادعُ خالد بن زيد، فدعاه، فصلّى بالناس، فهو أوّل يوم عُرف أن اسم أبي أيّوب الأنصاري خالد بن زيد، فصلّى أياماً ثمّ صلّى